سهام ترجمان




# آه.. يا أنا





للدراسات والترجمة والنشر
دمشق ــ اوتوستراد المزة
هاتف ٨١٦١٢٦ ــ ٨٨٦٩٥١
تلكس ٤١٢٠٥٠
ص ب ١٦٠٣٥
العنوان البرقي
طلاسدار
TLASDAR

ريع الدار مخصص
لصالح مدارس أبناء الشهداء
في القطر العربي السوري

# آه... يـا أنا...!!

الطبعة الأولى
١٩٨٥

سهام ترجمان

# آه.. يا أنا

مولوي

الآراء الواردة في كتب الدّار
تعبر عن فكر مؤلفيها
ولا تعبّر بالضرورة عن رأي الدّار

# كلمة حب

تحية حب ومحبة عربية خالصة أرفعها إلى كل من شجعني وساعدني لإخراج كتابي «آه... يا أنا...!!» الى نور النهار، أناشيد في الحب الطاهر الشجاع الصادق.

تحية شكر وامتنان واحترام كلي، أرفعها بكل المودة الى سيادة العماد مصطفى طلاس، العاشق الأول للوطن للفن للجمال للكلمة الصادقة، المشجع الأول لي وللمواهب الأدبية في الوطن.

تحية تقدير عميق لمدير «دار طلاس»، الرجل القدير الكريم اللواء إكليل الأتاسي، على تعاونه الكبير معي ومع الكتاب.

تحية قلب يغني يعشق الطبيعة والفن والأدب والجمال والوطن وأهل الوطن، إلى أصدقائي من الفنانين والأساتذة الإختصاصيين والإداريين الكبار، والموهوبين الأعلام في وطننا الغالي، وإلى كل من رسم خطاً، أو طبع حرفاً، أو صحح سطراً، أو كلمة أو نقطة أو فاصلة. تحية قلبي إلى كل من كبَّر صورة أو فَرَز لوناً في لوحات كتابي ونصوصه، وإلى كل من أعطى رأياً في حلاوته ومرارته.

وآه... يا أنا...!! منهم ولهم.
ومني أنا... لكل العشاق.

سهام ترجمان

الشآم ٢٤ نيسان عام ١٩٨٥



آه .. يا أنا ..!! زهرة شامية صفراء «عاشقة معشوقا

# آه ... يـا أنا ... !!

آه ... يا أنا ... !!

أعوذ بالله من كلمة أنا .

أنا لست أنا

أنا أنتم .

أنا ، لست أنانية ، فلا يخافنّ أحد من أناي .

ولأنني ، أنا لست أنا ، ولأنني أنا أنتم ، وأنتم أنا ، أكتب بفرح وأوقّع وأبصم، وأسحب « ختمي » النحاسي الصغير العتيق من



ولادة النزعة الرومانسية عند الكاتبة في غابة «الفرلق» في شتاء ٥٧

الصرة المخبأة في صدري، أو ربما في « الجيبة » السرية الحرة المعلقة بزنار سرّي على خصري تحت ثوبي .

أمسك « الختم » بعناية، أضغطه على « الصطمبا » وأختم اسمي، ثمّ ألوّث ابهامي الأيسر الفريد بحبر الكوبيا البنفسجي، وأبصم، تماما تماما كما كانت تفعل جدتي لأمي، ستي أم «عزيزة» طيّب الله ثراها الطاهر، وكما كانت تفعل أمي الغالية « عزيزة »،« أم صلاح » رحمها الله عندما يطلب منها مباشر المحكمة، أو موظف الأوقاف، أو الكاتب بالعدل أن توقّع اسمها في أسفل المعاملات والأوراق الرسمية .

أرسل لكم أوراقي غير الرسمية الممهورة باسمي، الآتية منكم، اليّ، إليكم في دورة مغلقة كاملة كدورة سفر المياه في الطبيعة من النبع في عمق الجبل الى النهر، الى الغيم، الى المطر والثلج، الى النبع، فالنهر ... !! دورة كاملة كدورة الدم، أسرقها من أوراق خط العمر، من دورة حياة امتدت أكثر من عشرين سنة، أكثر من ستين فصلا من فصول الطبيعة، خريف يسلّمني الى شتاء، وشتاء يسلّمني الى ربيع، وربيع يسلّمني الى صيف، وصيف يعيدني الى خريف، أدور وأدور على خط الدائرة، أتّحد مع الدائرة ـــ اللانهاية، تصبح دائرة حياة الطبيعة دائرة حياتي أنا .

أرسل لكم أوراقي على أجنحة طيور وحمامات الشام في فصل « الدهبيات » في خريف الطبيعة وخريفي ، وأعود الى « مخدعي » الشامي ، راضية ، مرضية ، فقد قلت ماعندي حتى اليوم ، بعد أن شربت من كأس حياتي الفضية ، وفيها العسل وفيها العلقم ، فغنّت حنجرتي الآه طربا ووجعا ، وأعود بعد أن سكبت في كأس الحياة الذهبية الكبيرة خمرة اعتصرتها من حبات عناقيد كرمة حدائق الروح والجسد ، واختزنتها في خوابي الذاكرة الكامنة في أعمق أعماق الكهوف المظلمة الرطبة من ذاتي الندية بالحبّ ، الدافئة بنار العشق ، المنوّرة بنور الأمل ، المخضرّة بنسغ الأنوثة ، المعطّرة بعنبر الوفاء ، المعمّرة بحجارة الصدق ، النائمة في حضن سرير المعرفة .

ذاتي المحبة العاشقة أولا ، المعشوقة ثانيا ، المعطاءة أولا ، المتلقية ثانيا ، الغيرية أولا ، الغيرية ثانيا ، هي ذات انسانة من الحب تأكل ، ومن حبة قلبها وبؤبؤ عينها وفلذة كبدها تطعم الحياة والحبيب .

عندما أقول أنا .. أعني أنت ياصانع الأنا .

ولولاك من أنا !؟ ولا كان الآه ... يا أنا ... !!

الأنا عندي ، كلمة ، ثلاثة حروف حارة . هي ليست فعلا

إلاّ عندما تتحرك باتجاه الآخر ـــ الأنت ، فيضا وعطاء وتفانيا .
لاأعرف عظمة « الأخذ » إلاّ عندما أمارس عظمة العطاء .

من الاله أتيت واليه أعود .. دورة كاملة .

قبل أن أعود لابد أن أقول .

من المطلق أتيت ، الى العدم لن أعود .

من الاله ، من الانسان ، من أمي الثالثة ، من الطبيعة العبقرية ، أستقي قلبي وعقلي وكلمتي وأناي الضعيفة . الى الله والانسان والطبيعة كلمتي تعود . أقهر الموت وأتمسك بأغصان شجرة الخلود خوفا من أن يبتلعني ويلتهمني حوت العدم .

ابنة بارة أنا ، ولدت من رحم أمهات خالدات ثلاث ، رضعت من أثدائهن لبن الحياة والحب والوفاء والخلود . أمي الأولى « عزيزة » ، أمي الثانية « الشام » ، أمي الثالثة « الطبيعة » .. وربما كان التسلسل معكوسا ، وكانت الاولى أمي الطبيعة ، والثانية أمي الشام ، والثالثة أمي عزيزة .. !! ابنة وحيدة مدلّلة أنا في الأحضان الثلاثة .

فمن أنا .. !! ؟ آه ... يا أنا ... !! ؟

من أنا ، ماقيمتي أنا ، في عصر ذابت فيه الأنا وولدت

« النحن » !! ؟ من أنا في عصر عادت فيه الأنا من « النحن » الى « الأنا » ثانية !!؟ لايمكن تجاهل عبقرية الانسان الفرد. لابد من إبداع الأنا ليكون ابداع « النحن » . لابد من « حرية الأنا » لتكون حرية « الكل » . لابد .

لم عنوان كتابي آه ... يا أنا ... !! ؟ والعصر الرومانسي قد انتحر يأسا على أعتاب العصر المادي يسود الكون والطبيعة وحياة الانسان ، يغير المفاهيم والقيم يفكر في « الكل » ويجعل من الجزء « برغيا » في الآلة الصناعية الضخمة ، تماما كما عبر الفنان العبقري الانساني العظيم شارلي شابلن. سادت الآلة ووضع الانسان الرومانسي الطبيعي فجأة أمام صدمة المستقبل ، المستقبل القادم قبل أوانه . واجتاح المستقبل أحلام الانسان وذاته ، فلم يعد يعرف من هو أين هو؟ صار الانسان السيد ، عبدا للآلة ، للآخر . لم يعد هو هو . ولكني مازلت أقاوم الآلة بعشق الطبيعة ، وأحارب العصر الجليدي المحتمل ، بزراعة الياسمين والفل والزنبق والبنفسج وزهرة الآه يا أنا .

لم اليوم بالذات تتجاوب أمي الطبيعة معي وتفجر « في » نبع الكتابة على أوراق الخريف هذه ، تحمل لكم هويتي في كلمات من حب ، يطلع بها عليكم كتابي الثاني آه .. يا أنا ... !! يدوخ معي

مع قلبي بين أن يكون أدب سيرة أو أدب مقالة، أو أدب بوح، أو أدب رسائل، أو أدب خاطرة رومانسية، أو أدبا من جنس جديد، يولد من رحم الواقع الحياتي، يتحجب بحجاب الرمزية، في عصر الحرية والديمقراطية والسفور!.

لم اليوم بالذات، منذ الصباح الباكر، الطبيعة الأم في الشام وأنا في حالة ولادة ليست عسيرة!

يا الهي كم أنت تحبني!! يا الهي.. أنا أسمع صوت الرعد.. !! برق ورعد في السماء وفي قلبي !!

لم اليوم بالذات وأنا أرسل آخر أوراقي الخريفية، وأول أوراق الآه... يا أنا... !!

لم اليوم تحدث المعجزة ؟

اليوم الثلاثاء ١٦ تشرين الأول من عام ١٩٨٤، ٢٢ محرم من عام ١٤٠٥ هـ، وعند الساعة الثانية عشرة غابت الشمس كليا، فغدا الظهر صبحا لقلبي العاشق لغيوم الخريف والشتاء. لقد بزع فجري.

اليوم يهجم الغيم على الشام وعلي، يلمع البرق، يرعد الرعد،



أوراق زهرة آه .. يا أنا ..!! الشامية بريشة الطبيعة .

تعصف الريح، يحط البرد، ينزل المطر على الشام وعلي !! قلبي يركض، قلمي يركض، ينطلقان الى المطر بلا شمسية !!.

اليوم أركض وراء قلمي وقلبي.. لا ألحق قلمي لا ألحق قلبي.

من أنا ؟ ولم العنوان النرجسي للكتاب !؟ لم.. آه... يا أنا... !!؟ لم لاتكون « الآه » الصرخة الوجع ـــ الطرب، آه... يانحن... !!

آه... يا أنا... !! زهرة شامية ناعمة مدللة تولد وتحيا في أرض الشام في فصل الصيف في أحواض البيوت العربية الدمشقية العتيقة، وفي البساتين والمشاتل والحدائق وأصص الزريعة على المشارق والشرفات والشبابيك، زهرة عاشقة معشوقة في الأحياء العربية القديمة، وفي الأحياء الحديثة من مدينة التاريخ، والزهور والياسمين والبنفسج، الشام.

آه... يا أنا.. !! زهرة شامية لونها أصفر هادىء مريح للعين والقلب، طرية رخوة نضرة، حيية، صغيرة الحجم.

هي من أخوات الأضاليا، تحب الشمس وتعشق الفيء، تربو على الماء واللاماء، تشرب يوما بنهم، وتعطش يوما بلهفة.

شوقها الى مياه نهر بردى وعين الفيجة لاينتهي ، وتطلعها الى اشراقة الشمس لايكل ولايمل .

صفراء اللون ، زهرتي ، ويبدو أن لونها الأصفر قد كان منذ البدء رمزا لمعاناتها ، ومرآة تعكس حالتها العاطفية ــ السايكولوجية ــ المازوشية ، فهي زهرة ضعيفة عاشقة متيّمة بالعشق شكلا وجوهرا معنى ولونا ، حياة ومصيرا . ولاشك أنها أخذت اسمها من حالة الحب الموجع ، القدر المكتوب على جبينها من الولادة وحتى الموت .

ويبدو أنها كانت في البدء مثلي ، إمرأة عربية أموية شامية ، ثمّ ماتت من وجع في الروح العاشقة الشقية ، فتحولت الى زهرة ناعمة تعيش شبابها الغض كقطعة « ملبس » . وجه أصفر يعتريه الشحوب ، وجسد ينهكه الشوق والوجد ، وروح يفنيها تألق النار ، وتوهج اللهب واشراق العقل . هي عقل متورد يبكي ويضحك ، وقلب مضنى يحزن ويفرح ، عقل متوحد وقلب متعدد .

آه .. يا أنا ... !! زهرة يبدو أن قلبها منذ البدء كان أصغر من أن يحتمل الروع في قبح الحياة وجمالها ، لايقوى على احتواء عظمة الحياة وسر الكون والوجود ، أضعف من أن يجابه كوارث الموت والحب والحرب والمرض وتفجر الصحة والفقر والغنى ، واللا

والنعم. هي زهرة تستحي من الاعتراف بالعشق، كتبت عليها الخسارة في الحب، لأنها زهرة ذات كبرياء، وليست أخطبوطا، تفترس حبيبها بالقوة. ولم تعد تفهم زهرتنا بعد أن صدمتها « صدمة المستقبل »، هل حياء المرأة ـــ الزهرة في الشرق العربي هو سر قوتها وأنوثتها وسعادتها ونجاحها، أم أنه سر ضعفها وشقائها وخسارتها مع من تحب !!.

أمي « عزيزة » رحمها الله هي صاحبة الآه... يا أنا... !!.

علمتني قبل أن يأتي المستقبل، وقبل أن تكهربني وتصعقني « صدمة المستقبل » في الثمانينات من القرن العشرين، بأن التحول الى الغد في حضن الجمال ممكن.

أمي، الأم العظيمة، الأنثى الكاملة، كانت في طفولتي، ولازالت بعد موتها، مثلي الأعلى في الأمومة والحنان والحب واللين والكبرياء والجمال.

في الشتاء وفي الصيف لابد أن تكون أمي في قمة أناقتها وجمالها وسحرها الأنثوي الطاغي على بيتها وزوجها، أبي، وأولادها.

كنا أطفالها الخمسة نتسابق صيفا على قطف أزرار الياسمين لنضمّ لها عقدا من الياسمين تعلقه في جيدها العاجي فيزيدها تألقا وجمالا

وأنوثة وحلاوة . وكانت تفضل أن تقصف بيدها عرقا أخضر من عريشة الياسمين في بيتنا العربي محملا بزهرات وأزرار اليـاسمين الشامي ، تشكله في شعرها ، يهتز مع كل حركة من رأسها ، ينشر عطر الياسمين حولها ، يثير زوبعة عشق في صدر أبي .

لاأتذكر أني عانقت أمي يوما أو قبلتها من عنقها إلا وعطر الياسمين يسحب روحي من صدري . الآن عندما أحن إلى الماضي وأشتاق أن أشم رائحة أمي وأقبل خدها وصدرها ، أطمر رأسي في عريشة ياسمين ، أشم الياسمين وأقبله . أقبله فيها ، أقبلها فيه . أغرق غرفة نومي بالياسمين ، أرسمه على المرايا والحيطان أنام في حضن أمي . لاأدري هل أخذ الياسمين جماله من عنق أمي من صدرها الحنون ، أم أن أمي قد سرقت ، وهي الأمينـة ، جمال وبيـاض بشرتها من الياسمين !!؟ .

لابد من فلة ، أو طوق ياسمين ، أو زهرة زنبق مشكولة بدبوس على صدر أمي ، على أثوابها الصيفية الحريرية السواريه ، كانت تتفتّل بها عصرا ومساء وليلا أمام أبي في ديار بيتنا ، وفي الأعراس . لابد من وردة جورية صيفا ، لابد من بنفسجة شامية معلقة على صدرها شتاء ، نائمة بين خصلات شعرها يوم المطر .

سألتها يوما بفضول واعجاب وبراءة طفلة تعشق أمها :

— ياأمي لماذا تتشكلين بالزهر ... ؟

— حتى أصير أحلى ياأمي .

— عندما تنزل المطر ويندف الثلج ولاتتفتح في الأحواض الورود كما في الربيع والصيف ألا تحبين أن تكوني أحلى ياأمي ... !!

— في الشتاء ياسهام .. اذا لم تتفتح في بيتي إلاّ زهرة البنفسج ، أقطف « عرق هوا » ناعماً أخضر وأشكل به شعري !! لابد من عرق أخضر يزين جمالي .

— وأنا ياأمي هل سأكبر وأصير أحلى مثلك !!؟

— طبعا ياأمي .. أنت بنتي .. وبنتي أنا لاتكون إلاّ مثلي ، حلوة وذكية وتتشكل بالياسمين وريحتها مثل الفل والياسمين والبنفسج .

— ما اسم هذه الزهرة في شعرك ياأمي !؟

— اسمها ياسهام .. آه ... ياأنا ... !! .

— مامعنى هذا الاسم ياأمي ؟ ولم هي صفراء اللون ؟



ياإبنتي ... ياسهام ... لابد من زهرة تزين شعري ...!!

— يابنتي .. الآه ... يا أنا ... !! زهرة عاشقة، معشوقة اصفرّ لونها من كثرة العشق .

— وهل العاشق مثلها ... ؟

— العشاق .. يذبلون، أجسامهم نحيلة، وجوههم المتوردة يصفرّ لونها بسبب الوجد والشوق والسهر والبكاء .

— وأنت ياأمي .. هل تحبين الآه ياأنا .. !! لأنها عاشقة معشوقة !! وهل أنت عاشقة ياأمي .. !؟

— أحبها ياسهام وأتشكل بها . ألا ترين أنني أنا وكل امرأة شامية نحبها، نزرعها، نسقيها، نغنّي لها، نسهر قربها، نحدثها ليلا، نتصبح بها، عند صلاة الصبح، نشرب عندها القهوة مع الفجر، نذللها، نقطفها، نتغندر، ونتشكل بها، لنبدو في أعين أزواجنا أكثر جمالا أكثر عشقا !! .

آه ... ياأنا ... !! وأعود من أمي الى الأنا .

« أناي »، توأم الزهرة الشامية، إن ضحكت ضحكت

معها، إن عاشت عاشت معها، إن ماتت ماتت معها، لأنها يوم ولدت ولدت بعدها، أو ربما قبلها بلمحة.

أصلنا واحد، إسمنا واحد، قدرنا واحد. ودون أن أدري وبعفوية حقيقية مطلقة، كنت أتذكر اسمي الأول في الحياة ومن عصور سحيقة، عندما تحدثني أنت على الهاتف، آه... ياأنت، وتسأل: من يتكلم... !؟ أردّ على الفور مداعبة بمرح:

ـــ أنا.. !!؟.

لست نرجسية، لست أحب ذاتي كما أحب الآخر، لست أكره ذاتي ولست أكره الآخر، ولكن الأنا هو اسمي الأول الأصلي قبل أن يكتبوا اسمي في شهادة الميلاد، اسمي الثاني.

« أناي » تعاني بصمت مطبق، وصراخ فاجع أخرس الصوت، خلف ابتسامة أنثوية عذبة، منذ الولادة وحتى اليوم الى الغد، « وجع عشق الحياة »، هذا الألم البشري، يموت الطب النفسي قهرا قبل أن يكتشف له دواء شافيا.

« أناي » كتب عليها شقاء الروح عشقا، فما انفكت تستجير وترثي ذاتها بكلمة آه... ياأنا... !!.

« أناي » تتمنى لو تتخلص من ذاتها ، « قدرها » لكن ذاتها لاصقة بها ، وقدرها وشم في جسدها ، في جوهرها ، وسام في اللوح المحفوظ .

« أناي » تعاني عشق الحياة بحلوها ومرّها ، والعشق الدائم على إمتداد خط العمر ، قد اكسبها طبيعة الزهرة الشامية ، تأكل ضربات الحياة ، تتعرض لصدمات الانسان ، تشهق لغدر البشر ، تبكي من أذى الآخرين ، ثم تبتسم تسامح ، تغفر ، وتعود لتحب . بالحب ترد على الظلم ، وبالروح المرحة تسدل الستارة على الأيام الباكية . تضربها الحياة عربية مسلمة على خدها الأيمن ، تدير للحياة خدّها الأيسر عربية مسلمة مؤمنة بدين المسيح عليه السلام ، بمحبة المسيح رسول المحبة .

لاأقلع عن العشق .

مثلي مثل الآه ... ياأنا .. !! عاشقة الى الأبد ..

آه ... ياأنا ... !! زهرة حلوة ، كائن نباتي يختصر بكلمة واحدة ، بنغم آسر ، بلون باهت شاحب ، بتنهيدة عميقة ، كل ماأحببت أن أبوح به عن جزء من عمري قد رحل ، وأنا أنتظر العمر الآتي بقلب مرمد ، أتلفه الحب انتظارا وجوعا ، لا نهما

وشبعا. صوفية وأفلاطونية، لا مجونا وتعددا، الرماد ملء « منقلي » النحاسي العربي، مازالت تتوهج فيه « جمرة » الحب. عمري مازال فتيا طالعا الى الغد متجاوزا هموم الحياة ورماد الذكريات.

« أناي » زهرة عاطفية رومانسية وحيدة غريبة في « غابة الأحجار » في عصر المادة والقنبلة الذرية. نبتت الزهرة من قلب الأحجار والإسمنت، ملغية قسوة الحجر الأصم بطراوة الروح، وحنان وخضرة الخصب العاطفي.

« أناي » المعمرة « المؤلفة » من ألف عام تزحف ببطء شديد نحو الطبيعة مع مطلع الربيع، في نيسان من كل عام تخلع ثوبها القديم، تظهر في الوجود بثوبها المتجدد أبدا، ثوب العشق، تتّحد وحدة كلية مع عناصر الكون، مع الانسان والحيوان، والنبات، والجماد، تخترق الطين الأرضي الى السماء، الى الشمس والقمر، في الليل والنهار، تركب متن الريح، تعانق الغيم والثلج والمطر، تسقط على التراب الأحمر على الشجر، تهيم بالأخضر باليابس، بالنار بالجليد، بالجبل بالوادي، بالأرض بالبحر، بالبحيرة بالنهر، تصير هي صيرورة « الحياة والموت والحياة »، جدلية الماضي والحاضر والمستقبل. تتّحد بالوجود وبالعدم، بالحقيقة بالوهم، بالمادة بالروح. تمثل الحب والكراهية، في الحرب والسلم. تصير هي

الحرب والسلم. الأسر والحرية، الخضوع والثورة، الموت والولادة، العقل والقلب، الصمت والكلمة. وتصير هي البدء، والانسان في البدء كلمة. وهو عندي في البدء حب ومحبة.

قال الفيلسوف ديكارت :

أنا افكّر ... إذن أنا موجود.

أقول :

أنا أحب ... إذن أنا موجودة.

« أناي » كلمة الانسان عبر العصور، تحجرت طبقات بعضها فوق بعض، اختزنت حضارة الانسان، ثم تحولت بحيرة تحت سطح بشرتي البيضاء الرقيقة الناعمة رقة الياسمين، نعومة الياسمين. ومن ثقب صغير في بشرة الياسمين، في بشرة الروح، تفجر ينبوع الكلمة نهرا تحمل أمواجه المتلاحقة الهادئة العميقة حينا، المجنونة الصاخبة المتهورة أحيانا، سر علاقتي، إنسانة عاشقة للانسان للمواقف للأشياء، بالحياة، كما تحمل سر أسلوبي في التعامل مع الحياة.

« أناي » رومانسية وحيدة تعيش كآبة العصر، وقلق الغربة، وفاجعة الوحدة والهزيمة في غابات عمارات الاسمنت والحديد في عصر الاسمنت والحديد والدولار والنابالم. تهرب من خبر عن احتمال

تفجير حرب نووية ثالثة تأكل الأخضر واليابس، تدخل الكرة الأرضية في عصر جليدي جديد ينهي أسطورة الانسان، لتغازل زهرة ياسمين ووردة جورية حمراء وابتسامة طفل، وصوت حبيب، وحنان أخ، ولهفة اخت، وود صديقة، وحنو وطن، ودفء شتاء، ووفاء قطة وضمة بيت، وصداقة كتاب، وطاعة قلم، ونشوة موسيقى.

أطفىء الكهرباء... أهرب من غربة العصر الى الطبيعة ترتدي أزياء الفصول الأربعة، ثم أعود الى ضوء «الكاز»، القنديل العربي ورثته عن جدتي، أكتب على ضوئه الشاحب المريح الحنون مايفيض من نفسي على أوراقي عذوبة وحنانا وتفاؤلا وأملا وكرما وخيرا وطراوة وخضرة وطيبة وحبا.

في هذه اللوحات الوجدانية المتدفقة من نبعي القلب والعقل معا، يتجسد حواري مع الطبيعة والانسان وعناصر الحياة والوجود، في لحظات السلم والحرب، الحب واللاحب. الحياة والموت.

أوراقي الرومانسية.. أغنيات القلب والعقل أناشيد الحب الرومانسي النثرية في عصر يفتقد الحب الكامل والشعر الموزون، فيرسم القلوب العاشقة الحمراء على بطاقات المعايدة، وحمالات مفاتيح السيارات، وعلى الملصقات المعلقة على الجدران وأعمدة

الكهرباء، وعلى أطراف الكؤوس وعلى قماش الألبسة. يحفر شكل القلوب على الحيطان والعمارات، ويصنع من الذهب ومن العاج قلوبا تعلق في جيد الحسان، يفتقد الحب الحقيقي، يفتقد عصرنا قلبه بعد أن اكتشف فجأة جسده، وامتلك حرية التصرف به، بعد أن اهتمّ بجسده ونسي قلبه. يدخل عصرنا مثلي دورة الحياة، دائرة الحياة الدائرية، يدور فيها وعليها. يصيب، يخطىء، يصيب. يتعرض لجدلية الصيرورة. ايجابا، سلبا، ايجابا. يكون قلبا محبا، يصير جسدا جنسيا حيوانيا بلا فكر بلا حب وحنان، يعود قلبا عاشقا، القلب فيه هو السيد. الجسد هو الخادم وليس السيد.

أعشق الله، الحب الأكبر

أعشق الانسان، أعشق الوطن.

أعشق الحرية، أعشق الكون، وعشقي لايبدأ من الأنا... عشقي من الكون يبدأ. أتمنى لو أضم الكون الى قلبي وأمتلكه وأحتويه، ربما أرتاح، ربما أريح.

أدفع ثمن الحب العميق العريض الطويل، حياتي، كل حياتي. هذا الحب العظيم جدير بحياتي، يستحق أن أتحول مدى عمري الى زهرة عاشقة مصيرها أن تموت، شدة حب للحياة،

قدرها أن تشقى شدة عشق للحياة ، كي تكتب الحياة على أوراق الخريف الذهبية القرميدية ، على أوراق الشتاء البنفسجية ، على أوراق الربيع الصفراء ، على أوراق الصيف الياسمينية .

قدرها أن تعبر جسر القلق الوجودي من خشب الورد الجوري ، سعيا الى سكينة الروح في جزيرة تطفو في محيط الكون اللانهائي ، لن يتمكن أحد منه ، العصر الجليدي الثاني ، لن يطاله .

زهرة الآه ... يا أنا ... !! آه ... يا أنت !!

زهرة شامية تمتد جذورها في طين الشام ، يشرئب عنقها وعقلها الى سماء المعرفة والمطلق فوق الشام ، فوق الكون ، الى الله . وعبر العشق الصوفي ـــ الطيني الأبدي السائل في شرايينها ، وعلى جناح النسغ الصاعد بين نقطتين ، وعبر الايمان بفكرة الخلاص والأمل في التحرر من عذابات الحب الأرضي الى سلام الحب الروحي ، سوف تظل مسافرة الى الغد .

الآن قد اكتشفت من أنا .

أنا لست أنا .

أنا لست « سهام » .

أنا .. آه ... يا أنا ... !!

غنّت أمي « الطبيعة » ، فكانت أمي وكان أبي وكانت الشام . غنت أمي الأولى « عزيزة » وغنى أبي « فهمي » فكنت أنا .

وغنت أمي « الشام » فكان الوطن وكانت الحرية وكانت عظمة الفن والطرب الأصيل في وطني .

وغنت نساء بلاد الشام، وغنى رجالها، فانتشيت منذ الطفولة الأولى طربا لأغنيات عذبة تسكرني عشقا، تطلقها في الجو العربي حناجر خالدات وأصوات ذهبية لمطربات ومطربين نبعوا في بلاد الشام، وشكلوا أنهارا من الطرب توازي الفرات والعاصي وبردى . وكانت أسمهان ، وكانت فايزة أحمد ، وكانت فيروز ، وكانت ميادة حناوي . يغنين ، يميل رأسي ، أفرح ، أحزن ، أطرب ، أبكي ، حناجرهنّ المطربة تثير ذكرياتي ، تأخذني ، تعيدني ، تمثلني ، تمثل بي ، تحاكي قصة عشقي ، تماثل حنجرتي غناء صامتا ، أغانيهنّ تماثل غنائي كتابة ، تثير مكامن عشقي ، أصير «مغنية» وتصير أسمهان وفايزة أحمد وفيروز وميادة حناوي «كاتبات» عربيات رومانسيات عاشقات .

غنت لي أسمهان « أنا أهوى » ، وغنت لي فيروز « ياجبل



الثلج في الشام توأم الكآبة

الشيخ »، وغنت لي فايزة أحمد « وقدرت تهجر »، وغنت لي ميادة الحناوي « سيدي أنا ».

غنت « فيروز » وغنى « صباح فخري » ماغناه « أبو خليل القباني »، أبو الفن العربي الشامي العظيم عن أمنا الشام أمي. أطربني صباح فخري، أطربتني فيروز، أطربتني أغنيتي المفضلة « الشام » فكان « يامال الشام ».

غنت «ميادة حناوي» ما لم تغنه مطربة عن الحبيب.

غنت كما أغني أنا بكل كبرياء الأنوثة الشامية وعظمة خضوعها وتفانيها لرجلها، لحبيبها، سيدا على قلبها، سيدة على قلبه، هارونا رشيدا مالكا قدرها، ملكا على قدرها، جارية أموية في قصوره، ألغت « زبيدة » وتربعت ملكة على عرش قلبه وعقله المرصع بجواهر العصر. غنت «ميادة حناوي» أغنيتي الأثيرة «سيدي أنا» فطربت وانتشيت لعظمة الشعر والموسيقى والصوت والأداء المتفجّر من قلب مطربة ذكية جميلة طيبة عاشقة... أغنيتها « سيدي أنا » هي أغنيتي أنا. هو فيها « سيدي »، وأنا فيها الانثى المعاصرة تختار سيدها، وتشتريه، يختار جاريته ويبيعها ذاته. عظيمة هي طاعة المرأة العاشقة للرجل في عصر سيادة المرأة. أعطاني رجلي سيدي المتحضر انوثتي الكاملة وإنسانيتي وحريتي، أعطيته إختياري وطاعتي

ووقفتي. رأي شخصي، أنا أرفض عصر مساواة المرأة بالرجل، يتبادل فيه الجنسان مقاعد الانوثة والرجولة تحت شعار الحرية. أحلم ببيت يحكمه عاشقان رجل وامرأة، لا زوج خلوق ضعيف وزوجة أنانية فاجرة.

وآه... من عشقي أنا... !! آه... من رجلي أنا... !!

كانت فكرتي، زهرتي، زهرة الآه... يا أنا... !! وكان آه... يا أنا... !! كان الحبيب، فكان آه... ياأنا.. !!

آه ... يا أنا... !!

الآن عرفت من أنا ... !!

أنا لست أنا ...

أنا لست « سهام » ...

أنا ... آه ... يا أنا ... !!

أناي، ليست دعوة رجعية لتقديس الذات والانغلاق عن هموم العالم الخارجي الواقعي، استغراقا في هموم الذات، لامبالاة بتناقضات العصر ينوس بين مشاكله وانجازاته العلمية الحضارية، بين صوره البشعة وسقوطه الحتمي، وفنونه العظيمة وصعوده الاكيد.

بين معاناته أوجاع الظلم والقهر، ومتعته مسرة انتصار النزعة الانسانية على شريعة الغاب .

أناي العاشقة، النحلة العاشقة غبار الطلع في زهر الطبيعة وذوات البشر، تفرز « كتابا » رومانسيا، يحلم حلما ـــ رومانسيا ـــ واقعيا، ان يؤدي وظيفة قرص العسل . « كتابي » أناي ليست نعامة تطمر رأسها في رمال الذكريات والشعر والموسيقى والغناء والحب النرجسي، بل هي أنثى ملك غابة العشق الطبيعي، هي لبؤة نبيلة تدافع عن رجلها وصغارها وبيتها وأهلها وأشجار غابتها، بالقوة الحنون، وبالحب العاقل القوي .

أناي، دعوة حارة من قلب عاشق للحياة، للعودة بالانسان المعاصر من عبادة الآلة والأنا والمادة، الى عشق الطبيعة والهو والروح .

كتابي، نداء للانسان في العالم وفي وطني العربي الكبير، وفي وطني العربي الصغير سورية، للاقلاع عن فكرة الهجرة عن عشق الوطن طمعا بعشق وطن الآخرين، اعتداء على وطن الآخرين . هو دعوة للاقلاع عن فكرة قلع جذور الانسان من أرضه لزرع انسان غريب مكانه، للتخلي عن فكرة خلع جذور الشجرة من وطنها وتربتها الحمراء الخصبة، لزرع اساسات عمارة من الاسمنت

والحديد، لفتح شارع اسفلتي تهدر عليه عجلات آليات العصر يأكل بلا رحمة شريطا اخضر من ثروة الوطن.

لم يتحايل أحد في وطني بعد على هجمة ظاهرتي الاسمنت والسيارة، فيرفع عمارة في الصحراء، يدور حول الشجرة المقدسة، وتدور معه الطريق، وتدور السيارة دون ان تدهس شجرة ولا قطة ولا انسانا ولا وطنا. من زمان كنت صغيرة... كنت اسمع أبي يقول ان المطر يجر المطر وان الشجر يجر المطر وان غوطة دمشق، غابة الثمر والزهر والجمال والحب حول دمشق، هي التي تجلب المطر!! كيف ياأبي؟ يابنتي، ياسهام، الشجر يشد الغيم من البحر الابيض المتوسط ومن لبنان غرب سورية، وينزل الغيم مطرا سخيا، ويعم الخصب والخير والبركة وتتسع الغوطة وتنتشر وتزدهر. إي نعم.

نعم ياأبي، طيب الله ثراك، الشجرة تنادي الغيمة، تتمايل، تغني، تصفق، تغري الاعصار القوي تسحبه من صدره من عمق البحر، من الغرب الى الشرق في قامتها وجسدها الغض، يلبي الاعصار المجنون، على جناحي السفر شرقا، يحمل المطر، من شرايينه يسقي الشجرة العاشقة «ماء الحياة». تزدهر الشجرة، ازدهر أنا، يزدهر الوطن.

العلاقة بيننا وبين الطبيعة الأم علاقة دائرية الشكل، علاقة

الانسان بالمطلق بالانسان، علاقة العقل بالدائرة، تماما على مثال الدورة الدموية. نزرع الشجرة، نصلي، ننشد نغني ننادي السماء والانسان معاً، نصلي صلاة استسقاء للمطر، للحقيقة، تسمع السماء النشيد الوطني الحقيقي. تلبي السماء، تحقق الغيوم النداء، تبدع العقول الرجاء، تعزف المطر لحن الحياة، يتقن الوطن الغناء. تخضر الأرض، يبتسم الانسان، نصير اكثر حضارة، اكثر وجوداً، اكثر قدرة على نفي الاعداء.

وأذوب أنا، ويصير نشيدي الذاتي نشيداً وطنيا، ونشيد الوطن نشيدا ذاتياً.

رومانسية أموية معاصرة أنا في القرن العشرين.

آه ... ياأنا ... !!

آه ... ياوطني أنا ... !!

في شتاء عام ١٩٥٧ ....

وفي غابة «الفرلق» العذراء الممتدة على البحر الابيض المتوسط في أقصى الشمال الغربي من سورية، هناك من رحم الغابة الأم، ولدت الكاتبة مني فجأة، وتفجرت عاطفة الحب للطبيعة والحياة والوطن فصرخت صرخة الوليدة. رددت أصداء الغابة صرخاتي



البحث عن الذات في مرآة نبع غابة «الفرلق» في ربيع عام ١٩٥٨

الحقيقية بكاء ـــ ضحكاً، فرحاً باكياً باكتشاف موطن الجمال والحب والفن. ياالله..!! ياإلهي..!! ياعيني..!! ياروحي..!! ياقلبي...!! آه... ياموسيقى الطبيعة... آه من غابة الفرلق علمتني وجع الجمال...!! رددت أصداء الغابة صرخاتي.. آهاتي طرباً ووجعاً، وذهولاً بالجمال البكر، تقديساً للوطن الفائق الجمال، كاد يقتلع قلبي من صدري، تهفو شفتاي لتقبيل الاوراق الصغيرة الخضر اليانعة تفرش أرض الغابة ـــ الجنة، سجادة بديعة الصورة، لا أحلى ولا أغلى، تنتشر إلى ما لانهاية في الاتجاهات الأربعة، تعانق حتى جذوع الأشجار العالية الكثيفة في الفرلق الغالية على قلبي، ترتجف مثلي تحت زخات المطر الخفيف الناعم، والنسيم البارد الحالم، يداعبان أعمق العمق مني، يستوليان على كُل الكل مني، يرطبان حرارة نار الصبا في غصني. وفي عمق الغابة امتدت يد طيبة مجهولة فجأة، تهديني «زهرة فطر»الفرلق !! وفرحت فرح الأطفال في العيد.

وفي ربيع عام ١٩٥٨، ولدت الكاتبة الرومانسية العربية السورية مني، تلك الفتاة الشامية الأموية العاشقة ـــ المفكرة، المتفلسفة ـــ الشاعرة، تماماً عند حافة نبع «الفرلق»، وكأن قدما لم تطأها قبل قدمي العاشقة الحانية.

وعلى الصفحة الفضية لمرآة النبع الصافي النقي، رأيت



في غابة «الفرلق» ربيع عام ١٩٥٨

«الأنا» الحقيقية مني لأول مرة . رأيت قدري والمقبل من مستقبلي . رأيت الممكن ورأيت المستحيل . رأيت «الأنا» عارية حتى من ورقة التوت ، تماما كما يرى الصبي اليافع والفتى الطاهر ، في راحة كف الشيخ التقي ، وفي عمق نقطة زيت «المندل» ، الحقيقة الانسانية العارية ، ويخبر عنها الكبار ، الباحثين عن السر الانساني ، عن مكان الكنز الثمين .

الذي حدث منذ ذلك التاريخ ، ان قلبي وعقلي وحسي وحدسي وشعوري وغريزتي وقلمي وكلمتي وبعضي وكلي ، قد تشكلت نهراً يجري ، ينبع من «نبع الفرلق» ، يطوي بأمواجه المتلاحقة سهول الزمان والمكان منذ سنين ، ليصب في بحيرتي المشتاقة ، في أناي العاشقة . تفيض الأنا مني وأذوب وأسيل وأتحول نهراً من المحبة يجري إلى قدره ، الى بحر الحياة ، إلى محيط الانسانية في العالم ، والذي يقع في القلب من القارة السابعة ، قارة الانسان المطلق . فالقارة السادسة ، وهي من اكتشافي ، هي رجل قدر له ان يكون «حبيبي» .

قدري ، نهري ، نهر المحبة لايعرف إلا العطاء .

حورية رومانسية الطبع أنا في القرن العشرين، موطنها الأصلي «غابة الفرلق».

نرجسية عربية أنا، أحبت صورة ذاتها في مرآة «نبع الفرلق» منذ ربيع عام ١٩٥٨.

ألقيت نفسي في حضن النبع لاعانق «مثلي الأعلى» وقد بحثت عنه طويلاً في غابة الحياة، فكان ان غرقت في عشق «الذات الثانية» الوهم، ومت عشقاً، للحبيب ــ الوهم.

للتاريخ لابد ان أعترف وأسجل الحقيقة.

نرجس الشام أصله من نبع غابة «الفرلق» قرب أوغاريت واللاذقية وكسب وبحر البسيط ووادي جهنم حيث يجن زهر الدفلي.

نهر الأنا بين نبع الفرلق والشام يمر عبر وادي جهنم في الربيع، حيث يجن الدفلي وأجن أنا... وآه.. من جنوني أنا..!!

ومن ربيع عام ١٩٥٨ وحتى ربيع عام ١٩٨٥ وزهرة الياسمين الأموية تنشر عطرها في غابة الفرلق، وزهرة الدفلي الكنعانية يجن جنونها في غوطة دمشق التاريخ.

وبين «زهرة الفطــر» عام ١٩٥٧، «وزهــرة الآه...

يا أنا ... !!» عام ١٩٨٥ ، سافرت برحلة الى وطن الحب وجنة العشق ، حيث تزدهر «زهرة الشوق» . وصار الشوق قدري .

**سهام ترجمان**

**من أوراق الخريف الشآم في يوم الثلاثاء ١٦ تشرين الأول ١٩٨٤ م**

**٢٢ محرّم ١٤٠٥ هـ**

# 1974

# فلسفة

أشارت بأظافرها اللؤلؤية الى ثلاث نقاط على شواطىء ثلاث قارّات كبيرة تتمدد بكبرياء فوق الخارطة الزرقاء وقالت :

هنا أتمنّى أن أكون الآن ، أو هنا ، أو هناك .. !!

قال :

ولكنّها نهايات العالم .

قالت :

أهدافي الحقيقية دائما بعيدة ، يحملني اليها جناح الخيال .

قال :

الخيال خيال وليس حقيقة .


A. Naël

قالت :

— كثيرا مانتمنّى أشياء مستحيلة يعجز عن تقديمها الواقع ويفلح الخيال .

قال :

— مثلا .. !!؟

قالت :

— لو قلت لك لاتّهمتني بالجنون .

قال :

— قولي اذن ..!؟

قالت :

— دع المزاح . فانّها رغبة في أعماقي هائلة ومثيرة وعنيفة . انظر معي الى الخارطة . أترى هذا العالم ، هذه اليابسة وهذه البحار ، هذه المدن وتلك الموانىء ، أترى معي البحر الأبيض المتوسّط وهذه النوافذ التي تطلّ عليه منذ فجر التاريخ .. !!؟

قال وصبره يكاد ينفد :

— نعم أرى ، أرى .

قالت :

— أتمنى لو تضعني الحياة في نافذة الأمنيات المطلّة على هذا العالم . لأرى دون أن يراني أحد حقيقة الحياة التي عاشها الناس عبر

العصور. أتمنّى لو أشمّ رائحة الغبار الذي أثارته حرب طروادة، وألتقي بالعاشقين هيلين وباريس. أتمنّى لو أسمع الموسيقى التي كان ينام عليها قيصر. أتمنّى لو أسمع صهيل جواد طارق بن زياد وهو يعبر قارة الى قارة. أتمنّى أن أرى أسراب حسّان اليونان بملابسهنّ السحرية التي غلبت التاريخ واستمرّت عبر أيامه. أريد أن اسمع صوت خالد بن الوليد، وقيثارة الفارابي، وأركب سفينة فينيقية ــ كنعانية ــ عربية عتيقة لأطلّ من وراء شراعها على نافذة من هذه النوافذ التي كانت تطلّ على البحر المتوسط قبل أن تتغيّر خريطة العالم. أتمنّى لو ألتقي بالخضر عليه السلام وجها لوجه فأطلب منه أن يحقّق لي أمنياتي، فأغدو بلمسة من يده على رأسي امرأة جميلة سعيدة ثريّة يحبها زوجها وتنجب الصبيان والبنات.

أريد...

قال:

ــ كفى كفى. أفهم ماتريدين..

قالت:

ــ ربّما..

قال:

ــ أنت كفتاة البحيرات اميلي برونتي.

قالت:

ــ هي رومانسية، وأنا واقعية تلبس رداء رومانسيا.

قال :

— أنت مثلها .

قالت :

— لقد سحبها الحلم من الواقع ، وتعيدني أحلامي الى الواقع ، أحلامي مشبّعة بالواقع تشرب منه ، وأشعر دائما برغبة في الطيران ، أشعر أنّني دائما وأبدا في تحليق مستمر يفرضه علي شعور ينبع من ذراتي التي تجسّدني أمامك انسانة من لحم ودم .

قال :

— وما الفائدة .. ؟

قالت :

— الحياة .

قال :

— أين ؟

قالت :

— هنا في نهايات العالم ، وهناك في أعماق التاريخ وسراديب الماضي .

قال :

— والحاضر .. ؟

قالت :

— أرفضه بشدّة ، فهو الذي رفع أقدامي عن الأرض ، وجعل أظافري

الطويلة المطلية باللون اللؤلؤي تبحث عن كنوز الطمأنينة المرمية باهمال على شواطىء القارّات ، وهو الذي سمح لروحي بالبحث عن الانسان في أساطير الغابرين .

قال :

فيلسوفة صغيرة أنت .

قالت :

ربّما !!.

# 1942

# أرجعي يا ألف ليلة

لا أشكّ أنّ في أعماقي بدوية سمراء حارّة الدماء ملوّحة الخدّين مكحّلة العينين حافية القدمين متمرّدة على كلّ ملامح الصورة الطافية على سطح الحاضر .

بدوية عنيدة تنتشل نفسها ، في كلّ لحظة تنفرد فيها بنفسها ، من حذاء مدبّب وثوب ضيّق وأظافر طويلة ملوّنة وبشرة ياسمينية ، كي تنطرح على رمال الصحراء البعيدة التي يغرق فيها صوت الكعب العالي وضجيج الألوان .

بدوية ثائرة تنتشل نفسها الغارقة على سطح الحياة الحاضرة ، الطافية جثّة زهرة بيضاء ، كي تغرسها في الماضي الذي ينعم حتى الآن بدفء الرمال وطراوة الحركة في ذرّاتها العربية القاسية .



لا أرنو الى الصحراء الإفريقية أو الاسترالية بل الى الصحراء العربية الصاعدة من نجد حتى شطآن الفرات . ولا أدري لم تلح عليّ هذه الفكرة كثيرا مع أنّني لم أصل ذروة الحضارة كي أبدأ بالانحدار والحنين الى الصحراء !! .

ومع ذلك فأنا أعتبر انحداري صعودا .

حنيني للصحراء ، للأطلال ، للنخيل ، لطعم التمر ، وماء البئر ، لقافلة الإبل وحداء حاديها ، للمضارب العربية تلعب في جنباتها الريح ، وتسهر فيها عيون حادة سوداء كعيون الصقور ، وعيون مكحّلة كعيون المها ، يحلو لها السهر على نغم المهباج ، ولهيب نار الحطب ، ورائحة القهوة المرّة ، وعذاب الربابة ، وصهيل الجواد الأشقر ، وصوت الراوي في هدوء الصحراء يروي قصة العاشقين العربيين قيس وليلى ، أسطورة العشق العربي .

هذا الحنين يقتل كلّ صلتي بالحاضر ، بالحديقة المرسومة ، بالرصيف بجدران البيت ، بالأبنية الواقفة في وجهي ، بالعيون الضائعة ، برائحة دخان المازوت ، بالقهوة الحلوة ، بالسيارة ، بالطائرة ، بالصاروخ ، بسفينة الفضاء ، بقنابل النابالم ، برؤوس الخنافس ، بالكلمة الحرباء ، بالميني جوب ، بزعيق الجاز ، بأدب الدود والعفن .

وأتلفّت حولي . لا . بل أنا أرنو الى البعيد البعيد ، كي أسمع صدى صوت قادم من البادية ، من خط اللانهاية ، يؤكّد لي صفاء الحرف العربي .

فنجان قهوة مرّة ، انتشلني من هوّة السطح الى ذروة الأعماق ، وغبت عن الناس الذين كنت معهم ، ورحت أتأمّل جوانب الفنجان !! .

من منّا ينظر الى فنجان القهوة العربية المرّة.. !! ربّما كلّنا، وربّما لأحد.

كانت على جوانب الفنجان رموز الحياة التي أشتاق اليها شوقا ملتهبا.

ليل أبيض، نجمتان ذهبيّتان. خطّان متوازيان ذهبيان، تنبع من أحدهما ثلاث نخلات ذهبيات.

الليل، والصحراء، والنخيل، والنجوم بلون الذهب، ولماذا الذهب ؟؟!! هكذا أراد صانع الفنجان، وربّما كانت إرادته نوعا من تقويم تلك الحياة الغابرة الذهبية تقييما لاشعوريا. ولو سألني لقلت له: ياعم، أنا أفضّل الماس.

ونظرت الى داخل الفنجان، الى القهوة المرّة، الى عصير حضارة عربية نرتشفه في لحة فأحسست بفرح حقيقي، وسمعت صدى رنين الأجراس الصغيرة النحاسية في رقبة جمل يتهادى في الليل العربي، يحمل على ظهره هودجا جدرانه من الشعر، يضمّ برفق بدوية رائعة الحسن يشعّ من عينيها ضوء ذكي، وترنّ في قدميها المرتاحتين مع حركة خفّي الجمل المتعبين، خلاخيل فضية تثير جنون فارسها بها.

ليل، وصحراء، ورجل وامرأة، وجمل يتهادى، وطريق نحو المستقبل.. !! وإرادة في الوصول.. !!.

حياة عذبة غارت في لاشعور الحياة العربية الحديثة، ولكنّها تعود حارّة متدفّقة كدماء شريان أحمر الى واقعنا الغافل، كي تنقذنا من تعب الركض والسأم واليأس وتحملنا على أجنحة شفّافة الى حقيقتنا الانسانية المتميّزة.

أنا أهرب دائما. أهرب من نفسي الحاضرة، لا الى نفسي المقبلة، بل الى نفسي الماضية، وفي نفسي الماضية التي تجاوز عمرها مئات السنين يضحك بسعادة حقيقية سن بدوية طويلة الضفائر، عارية القدمين، حرّة القلب والعقل.

أنا أهرب. أهرب الى نفسي المسلوبة مني، المتمرّدة عليّ، وسأظلّ ألحق بها، ولو كلّفني ذلك ضياع نفسي المقبلة.

وكلّما غنّت لي فيروز:

أرجعي يا ألف ليلة
غيمةالعطر
فالهوى يروي غليله
من ندى الزهر
انّ اشواقي الطويلة
قصّرت عمري
وحكاياك جميلة
في مدى الدهر

تتراقص في عيني دمعة الحنين، وأخلع حذائي، وأغمض عيني،

أتخيّل نجمتين فضّيتين، وليلا حالكا، ورمالا دافئة، وثلاث نخلات، وعاشقين وأربع عيون، عيني صقر وعيني مهاة.

# الشتاء

أنا لاأحبّ الصيف . ليشهق الآخرون وليرفعوا أهدابهم دهشة وليبتسموا ابتسامة فيها ألف معنى . انّني أفهم . مجنونة .. !! ليكن أنا مجنونة بالشتاء ، وأكاد أفقد عقلي وقلبي في الخريف .

ليت الصيف لايعود . انّني منقبضة . بدأت الأيام الهاربة من الصيف الى شتائي العذب تقلقني ، وبدأت أتمسّك بأذيال الشتاء كمن يمسك بأغصان شجرة « المستحيّة » خوفا من السقوط في الماء .

بدأ الربيع ينقر بأصابعه الملوّنة على رأسي ، ويدقّ دقّات خجول متردّدة على قلوب المراهقين من الناس ، ويهرع الكبار الى نوافذهم يغلقونها في وجه الشاب المغرور يبدو لهم كمهرّج في سيرك جوّال ، بثيابه المزركشة الملوّنة ، ووجهه الضاحك دائما بقوّة الأصباغ ، انّهم لايحبّون الاّ الضحكة


A. Nael

المخلصة لصاحبها وللآخرين، وعندما يتكلّم الربيع يغري عددا كبيرا من الناس، وعندما يتكلّم الشتاء فان الحلقة تصغر، فالمريدون هم الخاصة. لقد بلغوا من الترف النفسي مايسمح لهم بفهم الشتاء، كالفقير الذي أثرى ثمّ بدأ يدرك أنّ بيته الطيني في الحي العتيق من المدينة هو المكان الوحيد في العالم الذي يمنحه عفوية السعادة ويحميه من سأم الحضارة والألوان ويمنعه من السقوط في بورجوازية النفس والفكر والجيب. فان كان الربيع بورجوازيّا يخدم مصالح الصيف، فانّ الخريف في رأيي ثري أدرك أنّ الاطمئنان الحقيقي للنفس لن يكون الاّ مع فقر الشتاء.

أكتب والريح تعصف في ليل المدينة النائمة، تريد أن تقتلع المنازل والأشجار والناس من جذورهم. المرآة في الغرفة تكاد من فرط سعادتي بالريح أن تقول كلمتها رغم الظلام، وكأنّ سعادتي نور ينبعث من وجهي فيضيء المرآة والعالم، بل العالمين الداخلي والخارجي.

الشتاء لي. أنا أعلم. وقد يكون لبعض الآخرين من المجانين أمثالي، وتسألون: لم لاأحبّ الربيع.. ؟ وسأجيبكم بسؤال: لم تريدونني أن لاأحب الشتاء.. ؟.

كأني بالربيع يريدنا أن نقدّم للطبيعة أطفالا، وبالصيف يهيب بنا أن نأكل، وتظلّ نوازع الفكر والمحبّة والانسانية من أعمال الخريف والشتاء.

هذه ليست نظرية، إنّها أحاسيسي ومشاعري والأحاسيس والمشاعر لاتخضع لمنطق أرسطو.

من منّا يتعامل مع الطبيعة في الشتاء ؟ أنا ، وربما أنتم .

أتمنّى لو أسير وأسير في دروب الضيعة في بلادي ، وحدي ، ويداي في جيبي وخطواتي هادئة ، وقدمي تدوس برفق غصنا يتقصّف تحتها بألم لذيذ . الأشجار العارية حولي تسير معي على الدرب ، ورأسي يثقل عليها التفكير والحب القوي الهادىء في حياتي ، كلّ شجرة عارية تسألني عنه بحياء ، وكلّ ورقة يابسة ترمقني بنظرات حاسدة أحيانا ومهنئة أحيانا . الكل يطلب مني أن يكون بيتنا هنا في حضن الطبيعة البعيدة عن المدينة المتلألئة بأنوار الاعلانات .

في هذه الدرب وصورته في عقلي وقلبي ، أشعر ، بأنّي كبرت وانّي تحوّلت إلى بالون أزرق ينمو ويكبر حتى يلامس سطح القبة السماوية وتختلط على هذا البالون حقيقته ، هل هي من السماء أم من التراب ، يريد أن يتقلّص فيضمّ في أعماقه بشرة الأرض وجوهرها ، وأن يمتدّ فيلامس سطح القبة الزرقاء وسرّها ، وكأن المسافة بين كرة الانسان وقبة الاله قد ضاعت . فأدرك من إحساساتي البسيطة أنّ الشتاء طريق من طرق الصوفية تحملني الى مرحلة عالية من مراحل الخلاص . وأبتسم هذه المرة ابتسامة لاتشبه ابتسامة مهرّج السيرك الدائمة .

الريح ، تعصف عندما تمرّ أمام نافذتي وتصفّر ، تؤكد لي أنني ضعيفة ، ولكنني لاأخاف ، أخرج إليها وأفتح لها صدري وأسمح أن تداعب خصلات شعري وتعاملها بعنف ، علني مع الريح أطير كورقة يابسة ، ولكن الريح العظيمة لاتأخذ معها في رحلتها الراقية الاّ من تمّت دورة حياتهم .

ليت الصيف لايعود فأنعم بالشتاء البارد وأحسّ بحرارة الحياة تسري في عروقي وعروق الأشجار العارية. وان كانت زهرة الياسمين الرقيقة هي ميزة الصيف الوحيدة، الاّ أن الشتاء يظلّ فصل زهرة البنفسج الناعمة التي تخلص بلونها ورائحتها ودقّتها لمعنى الشتاء الغامض. انّ الشتاء يحقّق لي صورا لاتنتهي، ويمدّني بأفكار وعواطف لاتنضب. ليت الصيف الغبّي البليد لايعود.

إنني مع الشتاء انسانة، انثى ضعيفة، رغبتي في الابقاء على ضعفي الأول لاتحقّقها الاّ هذه الريح الهادرة الباردة. وأمامها وحدها تتلاشى قوّتي التي منحها لي بترف صيف الحضارة.

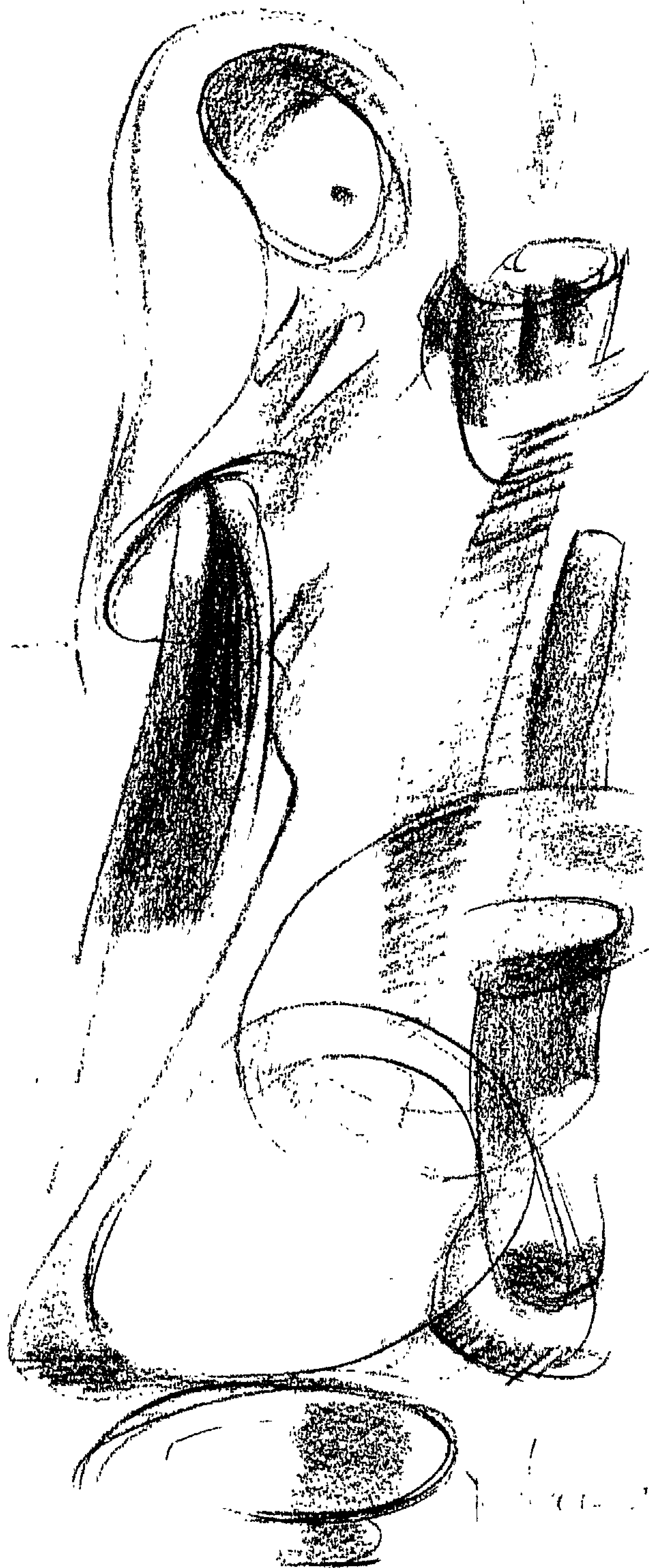
**من اوراق الشتاء ١٩٦٤**

# المطر وأنا

وليكن .. فلتغرب الشمس ، وسوف أسجل نفسي على ضوء شمعة ربما استطاع لهبها المتردد أن ينقذني من الصور اليومية اللاهثة وراء اهتمامات الانسان بها ، كالاعلانات الضوئية المستجدية في ليل المدينة الساهر .

حركة يومية بسيطة نرفع معها غطاء الفراش لنطمر به رؤوسنا ، ونسمع وحدنا صوت أعماقنا ، وتشوينا أنفاسنا الساخنة ، ونستسلم لصورنا الداخلية العنيفة تحمل آخر صورة لنا مسافرة على سكة قطار الحياة ، صورة لا لون لها ولا صوت ولا حركة ، ولايعترف بها العالم الخارجي من حولنا ، الاّ أنها حقيقية مترعة بالمعنى .

الشمعة تعيدني الى نفسي ، وغطاء الفراش يؤكّد لي وجودي ، والمطر يمسح من أمامي العالم .



هطلت الأمطار ، وكنت في الطريق ، وهرب الناس ، ولم أهرب ، فهذه الأيام المبللة خلقت من أجلي ، ولست أنانية بادعائي .

الفلاح يفرح بها لأنها تروي حبة القمح الجائعة العطشى تحت التراب ، أما أنا ففرحي بالمطر يكاد يكون الهيا ، ربما لأنني لست جائعة وعطشى كحبة القمح ، وربما لأنني أمتلك في جوانحي روحا قوتها تفوق قوة المعدة .

في المطر .. أسير وأسير ، لاأسمع إلاّ صوت نفسي ، وصوت فكري ، وصوت خطواتي ، وصوت خطوات المطر . لاأدري كيف يعاملني المطر ، إنه يعاملني بصورة خاصة جدا ، وأنا أقدر له هذه العناية وأفرح . الناس يلتصقون بجدران الشارع هربا من المطر ، وأنا أهرب من الناس ومن جدران الشارع في سبيل لقاء انتظرته أيام الربيع المغرور والصيف الغبي .

لم يخاف الناس ؟ لم يخافون المطر والعاصفة والثلج والريح العاتية والبرد والشجر العاري والأوراق اليابسة والغيوم الداكنة ؟!!.

ماذا في الصيف الغبي غير شمس محرقة تلاحق الانسان في كل خطوة ، تطاله في كل حركة ، في كل مكان تحت سماء الله ، وتحت سقف بيته ، تذيقه المر ، تكاد تزهق روحه !!؟ .

ماذا في الصيف اللاهب الحارق الخانق غير سماء غبية باهتة لاتملك أي حس فني تزخر به ريشة الخريف العبقرية الناعمة ويد الشتاء العنيفة

المتمردة المتفجرة بالحيوية، الحاملة جوهر الحركة والحياة. وكأني بالسماء لايبدأ سر الخلق فيها الاّ في الخريف والشتاء.

ولم أناقش الناس فيما يحبون ومالا يحبون !! لأدعهم وقناعاتهم، لن أدلهم على ماأحب حتى يكون لي وللقلة من أمثالي. اللوحات الفنية أمام الناس وبين أيديهم، فليغرفوا منها وحدهم، فالاحساس الفني شعور صادق ينبع من الداخل ويتفجر بقوة الارادة، ولاتشير اليه عصا معلم.

والحياة معرض كبير، نتفرج فيه على لوحات كثيرة، أحيانا نرسمها نحن، وأحيانا يرسمها غيرنا، المهم أن ندخل المعرض وأن نقف طويلا أمام أنفسنا وأمام الآخرين في لقائهم مع الطبيعة. أما الطبيعة الساحرة التي تشدني اليها في فصلي الخريف والشتاء، فانها في نظري بشرية، أراها خلال طبيعتي وطبيعة من حولي، من أحبهم ومن لاأحبهم، والأفضل أن أقول من لايدخلون دائرة حبي، لأني في الأصل حب ومحبة، وفي المنطلق والبدء لاأكره أحداً. طبيعتي فيض من الحب، فيض من مطر الحب.

المطر، والشمعة، والليل، والغطاء، والشجرة العارية، هي أسباب قوية تجعلني ألتقي بيدي وشعري ونفسي وأنفاسي وأفكاري وأحلامي. تحت صوت المطر يغمرني، ألتصق بنفسي، أسمع لهاثي، أشعر بحرارة الحياة تشع في عروقي، تنبه أعصابي، تثير مكامن أفكاري.

ان الانسان في رأيي لايظهر أمام مرآة النفس الصافية على حقيقته العارية الاّ في الخريف والشتاء.

أنظر الى المدينة الحبيبة ، الشام ، تحت المطر فأراها مدينتين ، واحدة فوق الأرض وواحدة تحتها ، أما أنا تحت المطر فأغدو واحدة ، واحدة حقيقية ، وتختفي المزيفة .

**من أوراق الشتاء ١٩٦٨**


١٩٧٠

# نقطة الخطر

الشوق في أعماقي الى الحياة لايرتاح، يتعب نفسه ويتعبني. البحث أبدا عن الراحة يسلب منّي راحتي الحاضرة. عقلي يفهم أن قلقي اليوم أفضل من راحتي في الغد، وقلبي يرفض راحة اليوم من أجل قلق الغد.. معادلة صعبة وضعتها بنفسي وعجزت عن حلّها.

أنا واقفة في نقطة خطرة جدا، أعرف مدى خطورتها ولاأملك قدرة على التحرّك. الآخرون قد أوقفوني عليها كالتمثال الرخامي. والآخرون هم الذين يملكون القدرة على تحريك التمثال من مكانه وبعث الحياة في أوصاله المتحجرة.

ألعب مع نفسي لعبة أحجار الزهر.. وأظلّ واقفة فوق نقطة الخطر. وأعلن أمام نفسي الحقيقة النهائية التي لاتحتمل فوق جسمها المرهف أردية



الحظ الكاذبة، وأظلّ واقفة فوق نقطة الخطر، وأنا في الحالين لاأتحرّك لاأتطوّر. ونقطة الخطر تشدّني الى أعماق أعماقها بسلاسل حديدية، وتغوص قدمي يوما عن يوم. روحي تأخذ قوّتها من مركز الجاذبية في قلب المائع الناري لكرة الانسان المدوّرة. نقطة الخطر، هي رغبتي في أن أظلّ واقفة في مكاني لاأتحرّك.

أنا التمثال، فوق القاعدة الرخامية. روحي تتطلّع الى الأعلى، وقدمي تتشبّث بنقطة الخطر، حيث مات التطوّر وانتحر القفز وشلّت الحركة، ففقدت روحي الارادة، وربحت قدمي الارادة.

على نقطة الخطر أقف كالبلهاء الهاربة من مستشفى المجانين، لاتدري الى أين تتّجه، دماغ بلا عقل، قدمان بلا حركة، حاضر بلا مستقبل، فم بلا ابتسامة، وجه بلا خلفية، حقيقة بلا تحقيق.

على نقطة الخطر واقفة أنا، أغوص في طينها اللّزج ببطء نحو الأسفل، أعرف الى أين سيوديّ بي الغوص. وتظلّ عيني الدامعة باسمة كعيني طفل طيّب وقد ضربته أمّه التي يحبّها، ضربته حتى آلمته، فأخذ يبكي، يبكي منها ويضحك لها في لحظة واحدة.

أنا لاأرفع قميصي الأبيض ملوّحة به، طالبة النجدة من عين ثاقبة لطائر يعبر سمائي صدفة، ولكنّني أدرك في سريرتي أنّ هذه العين سوف تراني وتنقذني في اللحظة الأخيرة الضعيفة، عندما يتجعّد وجهي وتهرّ أسناني وتجفّ دمائي ويهرب أولادي منّي الى جنّة العدم.

أنا في جزيرة الخطر، ولن ألوّح للطائر، أنا في بحر الخطر، ولن أرسل

اشارة للشاطىء الآخر الأكثر أماناً وطمأنينة، تختصر حالتي بجملة « أنقذوا أرواحنا » !! S.O.S !!! .

وحتى في لحظة الانقاذ، أظلّ أنا فوق نقطة الخطر وفي نقطة الخطر. وتستفحل نقطة الخطر وتنتشر في وجودي وتطلي أعماقي وبشرتي، وتصعد كالنسغ في شرابيني، وتتكوّن مع الايام طبقات القشور الصلبة على جذع هذه الشجرة التمثال، وتمتصّ جذوري من نقطة الخطر نسغ النهاية، وتدرك أوراقي أن لافائدة من توزيع الابتسامات على الطيور العابرة في موسم الهجرة، وتستعدّ قامتي اليابسة بكلّ شجاعة لفكرة القطع والحرق، وتسلّم رأسها بكلّ كبرياء لمقصلة الحياة.

أين الخطر ؟ ولم الخطر ؟ الخطر في داخلنا لا في داخل الآخرين.

الخطر أن نفقد سلام الروح مقابل قلق المادة، الخطر أن نرفض أنفسنا كي نكون صورة الآخرين، الخطر أن لاندرك أنّنا فوق نقطة الخطر.

ولو حاولت تعريف النقطة التي أقف عليها لقلت:
الجمود والصمت والرفض واليأس والنزوع والغضب الساكن.

وعندما ينفجر الغضب ينزل التمثال عن قاعدته الرخامية، يغادر نقطة الخطر بلاعودة، ليسير في شارع الحياة حافي القدمين حرّاً طليقاً من شوقه الى الحياة، من توقه الى حرية الكلام والفعل.

من أوراق الخريف **دمشق ١٥ ايلول ١٩٧٠**

# في الخريف أعود

في الخريف أعود .

في الخريف ألتقي بنفسي لقاء كاملا ، أشم رائحته من عطر ينتشر كالسحر ، يأتي من زخة مطرة خفيفة في أواخر أيلول ، تتّحد بتراب الأرض في الشام ، في تربة سورية كلها ، اتحادا يجعلك تتنفس الوطن بنشوة فائقة . وتأخذني وتسحرني كلمة العامة وحكمتهم الأثيرة : « أيلول ذنبه مبلول » .

وأستعد لأحتفل بمهرجان الطبيعة في الخريف والشتاء ، حيث حركة الحياة في الأوج ، ألوان خريفية على الشجر لانهاية لتعددها ، أوراق يابسة تطير مع مداعبات الرياح الخريفية ، لوحات شفافة خارقة تصنعها قطعان الغيوم وهي تصعد تلال السماء الزرقاء ، وتغازل جسدي الحار برودة الأمسيات الدمشقية ، وأشعر أن عروقي تتفتح للحياة ويبدأ موسم ربيع الحب



والكتابة، وتزداد ضربات قلبي، وأنسى الصور البشعة والأخبار المؤلمة، والأحداث الفاجعة، وهموم الحروب والمجاعات ومشاكل الأفراد والشعوب والأمم، وتسحبني طبيعة الخريف في بلادي أو في غير بلادي الى عالم رومانسي انساني الحنان، يسحب مني تشاؤمي واكتئابي وحسي بالضياع في عصر المادة والضياع، وتتجدد ولادتي الروحية تجددا عجيبا.

عندما أمشي على الرصيف المحاذي لنهر بردى وحدي، أو على طرقات تأخذني بحنان الى الغوطة تحيط بالشام، أو الى وادي بردى، أو الى نبع بردى، والزبداني، وجبل بلودان، حول الشام، أحس أني أولد من جديد في خريف جديد. الناس يولدون في كل الفصول، الاّ أنا. ولادتي الأولى كانت في عز الشتاء المثلج في عمق الشام في حي العمارة قرب الطاحونة، ولادتي الثانية تتكرر كل عام، كل خريف، قرب طاحونة الحياة.

متعتي لا حد لها مع أول أعمال الخريف. الصورة الحية التي ترسمها حركة الحياة بريشة رياح الخريف. الأوراق الحمراء اليابسة تطير عن الأشجار وتهرب مني لتحط على قمة موجة أو طرف بستان، أو لتطير الى مكان بعيد مجهول.

أعانق بنظراتي اللاهثة أجسام الأشجار العارية، أحاول عناق كل شجرة. أتمنى لو أضم كل شجرة عارية كي أعطيها من دفء ضمتي، أدور حولها كرجل أحبه أتوق أن أسجنه بين ذراعي طيلة الخريف والشتاء لأطلقه الاّ عندما تطلع شمس الصيف.

أنتشي بجو الخريف القاتم نشوة لاأملك تعبيرا يرصد أبعادها. أتنفس

هواءه يتحرر من حكم شمس الصيف الظالم. تتحول السماء الى لوحات فنية مدهشة تعذبني شدة جمالها وشفافية ألوانها. لوحات السماء والأرض في ظل الخريف تحمل سر حركة الحياة. طيور الشام، عصافيرها، حمام الشام الأبيض والابلق منه، ستاتي الشام، مثلي، يحلو لها الرقص والطيران في سماء دمشق في الخريف.

الناس تغتم قلوبهم من عبق الغيوم الداكنة في الخريف، من صوت الرياح وغضب العواصف وزئير البرق والرعد ونحيب المطر وهديل الثلج... !! يتأففون، يبدأون بالعودة الى بيوتهم الدافئة المغلقة النوافذ، كالزواحف ذات الدم الحار تكمن في جحورها.

وأرتدي معطفي.. وأخرج الى الطبيعة في المدينة وفي الريف على ضفة نهر وشط بحر، أتخيل أني أمسك يد من أحب بقوة حتى لايضيع مني بعد أن وجدته، أنظر اليه خلال الخريف الذهبي، أعرض وجهي لهواء الخريف وهوى الحبيب، أركض طفلة مراهقة على درب الخريف، ثم أمشي ببطء لذيذ تطقطق تحت قدمي أغصان الخريف اليابسة، وتخشخش أوراقه الذهبية المتراكمة. حواسي كلها تمتص جمال الخريف. أتمنى لو ألحق كل ورقة لأمسك بها وأقبلها بحنان وأطلقها كالطائر لمصيرها تواجهه بكل حرية، لمستقبلها تصنعه بكل سعادة. في الخريف يفيض لبن حناني، فيزداد عشقي لإنساني، لوطني، للحجر، للنبات، لقطتي الشامية الشقراء الأليفة الحلوة الأنثى «عطرة» ويصير كل مافي الكون لايكفي لحبي لقلبي.

الخريف عندي بداية، نقطة انطلاق الى قمتي، الشتاء العظيم. فان

كان الخريف الزهرة التي تثيرني ، فان الشتاء هو ثمرة تلك الزهرة ، أقطفها من قطبي الحياة .

الخريف ، قوة خفية كامنة تسري في كياني كله ، فتقلب يأسي أملا ، وغضبي رضى ، وركودي حركة ، وكسلي نشاطا ، وتشاؤمي تفاؤلا ، ونومي يقظة ، وحيادي فيضا وعطاء .

لم تتحول أوراق الخريف الى لون ذهبي أحمر !؟ ألكي تنسجم مع زرقة السماء المرسومة بتلال القطن الهش الناصع !؟ أم لكي تؤكد لنا أن السنة قد بلغت عصرها الذهبي !؟ .

لم أتبنى الخريف نبعا للعلاقات الانسانية الراقية وأرفض الربيع !؟ .

ان الذين يصفقون لمقدم مهرجان الربيع هم بعض الناس ، والذين يصفقون لمقدم مهرجان الخريف هم الكل المتبقي .

الخريف بالنسبة لي ، مدفأة جدار جانبية أحتمي بنور نارها من برد العاصفة الثلجية في الطبيعة وفي ذاتي العاشقة المعذبة .

عند صدر الخريف أحتمي من الضياع فأجد أن كل ما في الطبيعة قد أصبح لي وأمتلك القوة والاحساس بالجمال . في الخريف أفتح الشباك لأستقبل أفكاري وعواطفي واحساساتي وغرائزي وذاتي بكل أبعادها قادمة إلي من الكون الكلي .

ان الأوراق الخريفية القرميدية والذهبية المشعة على الجدران هي ربيعي

الخاص الذي أتحول معه الى مراهقة يدق قلبها لخطوات ابن الجيران مليون دقة في الدقيقة.

أتساءل بدهشة، لم لايكثر انتاج الحليب والجبن والقشدة والخضار والفواكه والأزهار في الخريف.. !؟.

لم لايتحول الناس في الدروب والطرقات والشوارع وبين البساتين والغابات والصحارى، الى أزواج أزواج من العشاق لايقوى الرجل على ترك يد المرأة مادام الخريف مخيما !؟.

هذا يحصل في خريف غابات بلاد العالم الغربي كلها الآّ عندنا، فنحن قوم لم نذق بعد طعم يد الحبيب بحرية في خريف غابات بلادنا.

لاتهتم أيها الخريف.. لاتهتم أيها الحبيب سيأتي يوم وتتحقق فيك كلمتي، وتتجسد فيك وبك نبؤتي، عندما يتحرر الناس في بلادي من الجبن أمام قوة الحب الحقيقي. عندما يقدس الناس في وطني جمال الطبيعة، ويعودون من سفرهم الطويل بعيدا عن الغابة والبستان، عن الشجرة والزهرة، عن النهر والساقية، عن القطار وعربة الخيل، عندما يهجرون عشق الاسمنت والحديد والحجر والألمنيوم والسيارة والذهب والدولار، ويعودون الى حضن الطبيعة الأم، الى الخضرة والماء والوجه الحسن.. الوجه العربي الحسن.

**من أوراق الخريف ١٩٧٠**


1971

# هديّة العمر العربي

الثلج يغطّي الشام .. يطمر سورية كلّها بالقشدة . الراديو يعلن : الطرقات بين مدن سورية كلّها مغلقة . الطريق بين دمشق وبيروت مغلقة .

وأفرح .. وأفرح .. وأفرح ، فرح الأطفال في عيد ، فرح « عين الفيجة » في كوانين . وأخرج من فرحي .. وأكتب . القلم الأخضر يكتب ويرمي على الورق كلمات حارّة كالجمر . والحبر ساخن طيّع يجري في عروق القلم كالدم الحار الشاب الفوّار باتّجاه الحب ، الحياة . مهمّتي في هذا اليوم البارد الحار الأبيض الأحمر الأخضر أن أمسك القلم وانتظر ، وهو يكتب وحده ، ويأخذني من يدي الى مدرسة « الكتابة الصادقة » .

لم يتوقّف قلمي عن الحركة كما توقّفت سيارات المدينة . لم يتجمّد فيه الزيت والماء والبنزين كما تجمّد في عربات المدينة . أبداً . من شدّة البرودة



دبّت فيه حرارة عجيبة وتحوّل في يدي الى عصفور دوري نشيط يزقزق طربا لمنظر الثلج وهو يندف بغزارة، يريد أن يرسم برجله الواحدة هذه الشجرة البيضاء المطلّة على نافذتي. وبدأ المحاولة. وأخذ يرسم في البداية جذع الشجرة ونظرت الكاميرا من فوق كتفه فوجدته يرسم بسطحية وببطء. ودفعته بكتفها، وكاد يقع. وصفّق وطار. وسجّلت الكاميرا شجرتي التي تفتّحت على أغصانها أزهار الثلج.

نحن في صباح يوم السبت ١٨ كانون الأول عام ١٩٧١. شجرة زهرة الثلج تغازلني بحرارة فأذوب وأسيل كلمات. الشجرة عند نافذتي تعلن فجأة عن تفتّح الربيع — ربيعي أنا — بعد ليلة باردة ماطرة، كنّا نسمع صوت خطواتها الناعمة على زجاج نوافذها، وعلى بلاط الحديقة المحيطة ببيتنا، وفي لحظات مرور عجلات السيارات على أرض شارعنا.

خطوات حلوة التكوين لأقدام صغيرة صغيرة لايتعدّى حجمها حجم نقطة المطر، وحبّة العزيز، وندفة الثلج. وكأنّها خطوات الملائكة وقد نزلت من السماء تزور الأرض الطيّبة المضيافة.

شجرات الحديقة كأنّها في عرس. وفرحت الشجرة العارية لأنّ زهر الثلج قد منحها أناقة لامثيل لها. أمّا شجرات الكبّاد والليمون والأكيدنيا فقد استقبلت أوراقها الخضر كلّ مانزل من ثلج، وازدادت أغصانها تواضعا. واقتربت من بني البشر، أكثر ودّا وحنانا كقطّتنا الشامية الحلوة المتمرّدة المتعالية التي ترفض أن نلامس شعرها الجميل، الاّ عندما تصبح حاملا فتتنازل. وكلّما اقترب موعد ولادتها لقططها الصغيرة العزيزة كلّما ازدادت اقترابا منّا وقرباً.

الثلج قد منح الشجر أمومة.

والأمومة تواضع ومحبّة.

ودخلت أكثر فأكثر الى الشجرة. انّها لم تعد قادرة على حمل مانزل على أغصانها وأوراقها، فيسقط دون ارادتها. وتستقبل الأرض حمل الشجرة وتمتصّ جذور الشجرة أزهار الشتاء البيضاء على طريقتها الخاصّة. الأزهار باردة، والجذور حارّة، وتذيب حرارة اللقاء كلّ البرودة في مفاصل الحياة ويصعد نسغ الحبّ الى القمّة وتستغرق الرحلة أياما طويلة. فطرق المواصلات داخل الشجرة مازالت هي هي منذ بدء الخليقة. وربّما كانت طريق الطمأنينة والسلام الحقيقي، الطريق التي تتفتّح في نهايتها على أغصان الشجرة في الربيع القادم زهرة المشمش وزهرة التفّاح وزهرة الأجاص. ولهذا فان التفاحة هي التفاحة، لأن التفاحة لم تغيّر طريقها، ولم تركب طائرة، ولم تسافر بالسيّارة، ولم تذهب الى بيتها بالمترو، ولم تكذب على نفسها وعلينا وتركّب على رأسها باروكة شعر مستعار. قد تقولون بأن التفاحة لاتفكّر، أمّا الانسان فانه يفكّر، ولهذا فهو يتطوّر.

ولكنّني عندما أنظر الى دمشق البيضاء اليوم أشعر بأن الطبيعة تفكّر جيدا، وان لها في كلّ لحظة فكرة جديدة تمنحها للبشر بلا ضجيج وادّعاء. وأمس فقط نمنا، ولم نكن ندري أن فكرة الامس داخل عقل الطبيعة كانت فكرة بيضاء نبع من جوانبها المطر والثلج والخير.

شجرة زهر الثلج، تبتسم لي وفي عينيها دمعة وداع لامعة. تعدني بشجرة أفضل مخبأة في داخلها. وسمعتها تقول لي:

انتظريني ، سأحضر ثانية بثوب من الزهر النقي .. !! ولكنّني أفضّل زهرة الثلج . لاأدري لم !!؟ انّي أدرك كنه فكرها . أمّا زهرة الربيع ، فهي جميلة لأنّها من صنع زهرة ذكيّة .

ويدوّي صوت ناضج يأتيني من أعماق الشجرة ، الصوت أعرفه . صوت شجرة التفاح ، ينادي بصوت أكله البرد ، كأنّه صوت امرأة مبحوحة حبيسة في بئر : أنا الثالثة وأنا الأخيرة وأنا الغاية وهما الوسيلة .

وبين زهرة الثلج وزهرة التفاحة رحلة طويلة عظيمة ، أودّ لو كنت قطرة ماء أو حبّة عزيز أو ندفة ثلج ، كي أقطعها ببطء داخل عروق الشجرة ، وأنعم بسلام وعظمة رحلة الحياة داخل جسم الطبيعة التي نظنّ أنّها تفتقد عقلا كعقلنا العظيم .. !!.

أغرق عيني من نافذتي ، في أشجار غوطة دمشق الغربية التي تحوّلت بين يوم وليلة الى عرائس تذهل العقول . وأغمس قلمي في قلبي الذي أذابه هذا السحر الأبيض . وأكتب ، وأنا أشعر بالفرح والتفاؤل . ولا أملك الاّ أن أقول لكلّ من أقابلهم هذا الصباح :

« كلّ سنة وانتو سالمين .. ان شاء الله سنة بيضا ...
سنة مباركة وربّ كريم ... »

وأتذكّر « مفكّرة الزمن » وأقلّب الأوراق ورقة ورقة ورقة . ١٨ ــ ١٩ ــ ٢٠ بقيت أيام معدودات ونقلّب ورقة يوم الجمعة في ٣١ كانون الأول لنسقط فوق أمنيات عام جديد ملفوفة بالأوراق المزخرفة والأشرطة الملوّنة .

وفي كلّ عام أقطع بفرح مع الطبيعة وعبر الفكر، الطريق بين زهرة الثلج، والتفّاحة. متناسية أنّي في كلّ رحلة أقطع مسافة هامّة من رحلة العمر.

لابأس. لنبدأ معا في فتح علب هدايا عام ١٩٧٢ ... ربّما.. !! ربّما.. !!

من يدري. قد نجد كلّنا أحلى هدّية تخصّنا جميعا. انّها هديّة العمر العربي. هديّة واحدة، يرسلها كلّ منّا للآخر، نفتحها كلّنا في لحظة واحدة.

ويكتب لنا عمر جديد.

**كانون الأول / ١٩٧١ من أوراق الشتاء**

۱۹۷۴

# قال .. الكتبي .. !!

هو لايعرف كلّ الحقيقة ، حقيقتي .
في الصيف ياسيدي ، أنا لا أكتب .

في الصيف أنا كالاسفنجة البحرية اللاصقة في جدار بحر اللاذقية أو طرطوس أو بانياس أو بيروت أو طرابلس أو الاسكندرية أو حيفا أو الجزائر أو تونس أو الدار البيضاء أو الغردقة أو رأس غارب أو الكويت أو أبو ظبي ، أو الدوحة أو بصرى أو المنامة أو العقبة أو عدن . سعيدة كانت في عمق المياه ، نديّة كانت في عمق البحر . وشقيّة هي الاسفنجة العربية عندما تقطف قسرا وتسفر الى منابع الشمس . في الشمس تجفّ وتصير كالشوك لاينثر العطر ، ولايحمل لين الطراوة والحياة . في حضن البحر المالح ، وتحت مظلّة المطر الحلو ، تنتعش الاسفنجة ، تشبع ، ترتوي من صور الحياة المتحرّكة . وعندما تجرّبها الحياة وتعتصرها بين أنامل التجربة القاسية ، تردّ الى


A. Naël

الحياة ماء الحياة يحمل جوهر الانسان . وتقطر من جوانبها وأثداء العطاء فيها مياه الحياة التي تحمل عطر الذات الخالقة ورائحة لقاء الأرض بالمطر ، رائحة الوطن .

هو .. لايعرف كلّ الحقيقة . يحبّ كتابتي .
قال اكتبي .. فقط اكتبي .

في الصيف ياسيدي أنا أسافر الى أعماقي . وأعماقي الفصول الأربعة فيها : فصل الخريف وفصل الشتاء وفصل الخريف وفصل الشتاء . في الصيف أنا ــ وياخوفي من كلمة أنا ــ أنحسر تحت سقف بيتي الذي يدلف منه المطر . وتحت الدلف أنا الوعاء الذي يجمع المطر . أبتعد عن الناس ولاأخرج اليهم . أختبىءمن الشمس . في الصيف أنا أنسى الكلام .

وعلى عكس الزواحف الباردة ، في الشتاء أنا أظهر . عالمي الأثير الحقيقي ، حديقتي الغريبة التي يهرب منها الناس . وهي حديقة الشتاء ، حديقة انسانية رطبة الجوانب ، فيها تتفتّح أزهار عقلي وقلبي ونفسي . فيها وحدها أبحث عن الآخرين الذين يسكن الشتاء أعماقهم .

حديقتي ترابها من الطين الذي شبع من مزاريب المطر . أشجارها تتمايل تحت السماء الرمادية المطرّزة بالغيوم ، عارية حتّى من ورقة التوت .

أغصانها زنود تعانق حبال المطر . أزهارها بلون المعنى الذي يلوّن قلبي الطيّب بلون الثلج . وزهرة الثلج هي زهرة ربيعي المغاير يبعث في عروق الشجر وعروقي حرارة الحياة ومتعة الوجود والوعد الأكيد بالحبّ والخير والجمال والحق .

حديقتي، بلا أسوار في النهار، بلا أضواء وحرّاس وكلاب في الليل. ولن تستقبلك فيها كقارىء فنّان، لافتات « ممنوع قطف الأزهار ». اقطف الأزهار كما يحلو لك. الأزهار لكلّ الذين لايخافون ولايجهلون معنى تمرّد الطبيعة في بلادي في البرد والثلج والريح والبرق والرعد والغيم والمطر والشمس الباردة والنار الدافئة. الأزهار في حديقتي ليست للحسّ. انّها للفكر. لاخوف عليها من اللصوص.

في حديقتي، هناك، لاأعرف، كيف تتكرّر ولادتي مرّة جديدة كلّ سنة، عندما تتم دورة العام وينغلق باب الصيف وتتفتّح أبواب الشتاء. ومع كلّ شتاء يطرأ التحوّل على صورتي. وفنان الشتاء الخالد مايزال أمام لوحتي والريشة والألوان في يده. وعندما يأتي أوان سقوط ورقتي في حضن الخريف الحقيقي للحياة، ينتهي العمل، وتعلّق لوحتي على جدار الزمن بعد أن تبلغ الكمال.

حديقتي تتكاثر في سواقيها وأنهارها وبحيراتها العذبة الأسماك الخصبة الملونة بألوان الذهب والفضة والشمس والقمر والليل، وتغرّد في أعشاشها القشّية وأقفاصها المعدنية والخشبية الطيور الغريبة الملونة النادرة، وهناك وتحت شمس الحديقة الباردة، اذا بحثت عنّي كقارىء، هناك تجدني.

أجلس على مكتب الفكر والمحبّة على طين الفكر والمحبة، تحت المطر، بلا سقف، بلا مظلة، بلا مدفأة. أكتب أكتب والورق تحت القلم نديّ « كالفرح » طريّ كأنامل طفل في الأشهر الأولى من عمره، سعيد باستقبال خطوات القلم النشيطة ومداعباته العاطفية، وضحكاته البريئة، ودموعه العاشقة.

وأنا ـــ وياخوفي من كلمة أنا ـــ أنا كالعصفور الدوري في يد القلم. أتحرّك كما يحبّ ويشتهي. أزقزق كما يأمرني. أتناول من فمه الكلام، كلمة كلمة، حبّة حبّة. وأغنّي ... وأغنّي ... وأغنّي ...

ياسيدي أنت ... عندما يصل قطار الفرح الانساني ليحملني الى حديقتي الغريبة، فأنا أدعوك أن تمرّ بجانب سور تلك الحديقة. سوف تراني، لا سور بيننا.

سوف تدخل الحديقة، لا باب بيننا، سوف تكون وحدك من يسمع غنائي فالآخرون في عزّ النوم، يلتصقون بمدافىء الشتاء، وأسرّة الدفء، ومشاعر السخط والغضب من هدير المطر وعصف الرياح. يحلمون بحدائق الصيف الحار، وتكايا الكسل الغامر.

لن تلتقي بأحد في ممرّات الحديقة، فالغالبية تكره فصل الشتاء، الاّ أنا والفلاح وربما أنت.

هناك في حضن الحديقة ... ستجدني شجرة آدمية ـــ جنية عارية من كل شيء الاّ من صدقي.. لن أراك لن تراني.. لأنني سأكون مكتوبة على الورق المبلول.. على طين الأرض.. وان بحثت عنّي فلن تجدني.. سأتحول الى عصفورة من الثلج تغني بحرارة فوق أزهار الثلج الأبيض المزدهر على الأغصان العارية في عزّ «ربيع الشتاء»، وان حاولت اصطيادي ووضعي في القفص.. لن تتمكن.. سأطير.. وأذوب.. وأتبخر.. وأتحوّل من جديد الى حبّات من المطر.

لوني أبيض.. وقلبي حار.. وغنائي مطرب.. سوف يجعل فيروز

تغار مني .. لا بأس سأغنّي لك أغنية فيروز « رجعت الشتوية » عندما ترجع الشتوية في كوانين .. وربّما أغرّد أغنية أحلى .

ياسيدي .. فرحت بالسؤال الأمر .. اكتبي ... ولكن ...!!

ياسيدي .. أنا لاأكتب الاّ عندما أغني . وأنا لاأغني الاّ عندما أفرح . وأنا لاأفرح الاّ عندما يعود الحبيب ويأتي الشتاء . فهل ستنتظر الشتاء القادم ، لتضيفني الى مكتبتك كلمة جديدة ، طائرا سعيدا يتلاشى زمن الحزن من عمره .. ويرتفع زمن الفرح الى غده ، طائرا انسانيا يحمل القلم بمنقاره ، تضيفه الى مجموعة طيورك الجميلة الغريدة النادرة .

اسفنجة عربية . وتنكرين حضارة الشمس والصحراء العربية ، وتكرّسين حضارة الغرب الباردة كأنّها وحدها منبع الحقيقة الانسانية !!

كلام ذكي لرجل ذكي يرفض أن يؤمن بطرف واحد من الحقيقة الانسانية . فالحياة ميدالية أحد وجهيها شتاء والآخر صيف .. أحدهما غرب والآخر شرق . أحدهما ثلج والآخر شمس .

أنا معه ، ولكنّي عربية من بدو الصحراء العربية تحنّ الى غابات اسكاندنافيا وأفريقيا فهل هو عيب هذا الحنين الدائم . أرجو أن تقول لي :

لا . لأن الانسان في القطب يحنّ الى لون الصحراء والرمال المحترقة . فكلّ يحبّ نقيضه والقطب يعشق خطّ الاستواء ويبادله خطّ الاستواء هذا العشق . ورحلة الطيور في الشتاء والصيف هي قطار البريد الذي يحمل رسائل عشق الطبيعة .

قال : اكتبي . وعقرب الزمن مازال يقف على خطّ الاستواء .

الاّ أن نسمات وغيمات أيلول قد بدأت تحرك أوراق الشجر وريش الطيور ومشاعر الحب في قلبي .

بقي أربعة أشهر . ويزقزق « عصفور الثلج » في « قفصك الفضّي » . وتعطّر « زهرة الثلج » جوّ غرفة نومك الدافئة بحطب المحبة . تزدهر في « مزهريتك » الذهبية وتتحوّل .. وتثمر فاكهة الشتاء : تفاحة حواء لفكر آدم .

هذا وعد بالكتابة على طين الحياة في السنة الجديدة
فهل أجبت ؟؟ .

**من أوراق الصيف ١٩٧٤**

# علاقتي الجدليّة بأمّي

قلّبت أوراق المفكّرة لعام ١٩٧٥، ثمّ التفتّ فجأة الى الوراء، فلم أر شيئا .. !!

أخرجت من درج الذاكرة دفتر الشيكات، واكتشفت أنّ رصيدي في بنك الحياة لاشيء .. !!

انتابني الخوف .

نظرت الى الأمام، لن يسمح لي ضباب المستقبل من تبيّن ملامح الطريق والهدف . خفت أكثر .

نظرت الى النقطة التي أقف عليها، لم أر الاّ قدمي الطفلة المهذبتين المضمومتين بحذائهما الملوّث بوحل الحياة .



طرت في الهواء لحظة، فلمحت تحت قدمي، رقما كبيرا هو « اللا رقم »، هو الصفر.

١٩٧٤ + ٠٠٠ = أنا

السنوات تركض تطير، وأنا مازلت في نقطة الصفر أحاول عبثا التشبّث بحبال الرقم واحد، بلا أي دليل للنجاح والوصول الى أحضان وحنان وشفتي الرقم « واحد »، علّني أعانقه، ألمسه، أقبّله، فأبتسم وأستريح وأنام في أرجوحة الواحد على هدهدة أغنية « الرقم٢ »، وألحان أغنيات وأناشيد الأرقام التالية في سلّم الطمأنينة ـــ المستقبل، عسى أن تلمس قدماي المتعبتان في يوم من أيام الرحلة، الدرجة الأخيرة للسلم، ثمّ أجرّب الفرح بلاحزن، وأرمي بكلّ ثقلي وكلّ هموم السنين على سطح بناء العمر العالي، وأتنفّس هواء الوصول النقي، فيحيلني بمعجزة حب تغاير معجزة حب الهولاندي الطائر، الى إنسانة تأخذ شكلها من حقيقة عمرها، لامن حقيبة آلامها، تعاني حباً يمسح تجاعيد النفس بلمستي قديس وولي، يضع الانسان المناسب في العمر المناسب والزمن المناسب.

أتخيّل أنني أقف على سطح برج العمر كالديك الذهبي يحمل صليبا على أعلى نقطة في برج من أبراج كنائس « لوبيك » المدينة الهادئة الناعمة المطلّة على بحر الشمال، أبتسم بنظرة شاملة للوحة الدائرية حولي وورائي، للماضي الذي أضاف الى سنوات عمري الحقيقية سنوات وسنوات من عمر الهموم، فتجعدت بسببه بشرة نفسي، وكبرت الصبية وهرمت وغدت

بحاجة الى معجزة، بعد أن صارت عجوزا تبتسم بسخرية للحرب الخفيّة وللصراع المدمّر بين فورة شباب العمر ويأس شيخوخة النفس.

الدم الحار في الشرايين يقفز كالنمر في وجه الهموم يلاكمها، يحطّم أنفها، يفترسها، ومع ذلك تعود كأسنان الأرنب وتنبت من جديد، وتمدّ لسانها بشماتة لأنياب النمر الفتي المغرور.

ريشة الهموم القوية في يد رسام مجهول تقف خلف جدار المستحيل الزجاجي الصلب ترسم، عفوا، بل تحفر بسكينها الحادة الصلبة أخاديد النفس، وتسجّل مع كل خط جديد على جبين النفس قفزة جديدة لعمر جديد، تعادل عشر سنوات من عمر الزمن.

وتفوز « حكمة » الهموم، وتخفق « طفرة » الدم الفوّار، وأنا كالكرة الطائرة بين مضربين أطير، ألهث، أتألم، أتوجّع من الضربات المتلاحقة، توجعني « قبل » الحياة كما « الصفعات » أتمنى لو يكتب النجاح مرة نهائية لأحد المضربين، وأستقرّ مرة واحدة في سلة الانتصار أو في سلة الهزيمة، وأنام أو أسهر على حالة واحدة إيجابا أو سلبا بلا أي قدرة على النقاش والرفض أو الرضى.

أريد أن أصل حيث يصل الانسان الى حال من الديمومة، ديمومة الجنة والنوم على الحرير، أو ديمومة النار ومحاولة النوم عبثا على الشوك.

السنون، تمرّ، تركض، تطير.

والطفلة الصغيرة ابنة الخامسة، داخلي مازالت تبكي بدموع ساخنة

طاهرة بريئة تبحث عن حضن أمها الضائعة. فحضن الأم هو الحضن الوحيد الذي نحب أن ننام فيه نوما هادئا عميقا سعيدا حتى لو تحولنا الى أمهات، حتى لو بلغت طفولتنا الثمانين. حتى لو بلغت شيخوخة أمهاتنا ذروتها مابعد الموت. وهل أكثر من الموت شيخوخة. كان أبي في الخامسة والثمانين، مرض تألم صرخ من الوجع ياأمي !! ومات وهو ينادي أمّه وهي في عالم الموت منذ خمسين سنة. وهل أكثر من الموت شيخوخة !؟

ويبكي الموت حقدا، واحتقارا لنفسه وشفقة ورأفة بنا لأنّه أخفق في انتزاع توقنا الى أحضان أمهاتنا وهنّ في قبورهن، وفي قتل حنين وحنان قلب الأم وهي في قبر العدم والمستحيل، الى أولادها المهمومين المتعبين على سطح الحياة وفي بيوت الحياة والإمكان.

وتنمو هذه العلاقة الجدلية بين حضن الأم ونوم الطفل الحقيقي. حتى مابعد مرحلة الانفصام القسري بين جسدين وروحين بينهما علاقة جدلية عضوية نفسية.

ونظلّ نحن الكبار ـــ الصغار، نمسح الدمعة ونتّجه بذواتنا المسحوقة بفعل هموم الحياة والحب والحرب، الى عيون أمهاتنا النائمة الى الأبد نلتمس الابتسامة من رضى الله ورضى الوالدين وهما في غيبوبة الراحة الأبدية من هموم الحياة وهم الأولاد.

أمّا أنا، فلن تنتهي علاقتي الجدلية بأمّي وأبي، الاّ عندما يتوقّف صوت العقل والحسّ والقلب، عندي فجأة، عندما ينسدّ داخلي فجأة شريان الحياة والحب ووريد الهم، ويسكت القلب عن غنائه، ويتوقّف الهم

عن حداثه، ولن تنتهي، لأن علاقتي الجدلية بأمي وأبي، قبل الولادة وفي الحياة وبعد الموت، علاقة روحية لامادّية، والجسد يفنى والحب يبقى والروح المبدعة خالدة تنفي الموت وتقهره وتلغيه.

قالت لي أمي مرة:

أخذني أبوك، وأنا حامل بك، الى حيفا في فلسطين في القطار. وخلال زيارتنا لحديقة الحيوان توقفت طويلاً عند قفص الغزلان أتفرس في عيني غزالة من أجمل ما خلق الله، وتوحمت على الغزالة وولدت بنتاً لها عيني غزالة حيفا ...!!

نسيت أمي أن تنظر في المرآة، فقد توحمت أمي على الغزالة السورية الشامية ــ الجزائرية الأصل، على صورة نفسها، فكنت أنا صورتها وامتدادها وديمومتها وخلودها.

**من أوراق الشتاء دمشق ٢٩ كانون الثاني ١٩٧٤**

# ١٩٧٥

# نزل الليل .. نزل المطر

نزل المطر في الليلة التي دخل فيها « كانون الأول » علينا . وكان إيقاع خطوات المطر على أوراق الشجر ، وعلى أرض الحديقة ، وعلى زجاج نافذتي ، في الليل البارد المنعش ، يحرّك فيّ كوامن السهد ، ومواجع الذكريات ، ومنابع التفكير ، ومجامر العاطفة المغطّاة بالرماد .وكأني بها قاعدة : كي نأخذ لحظة سعادة ندفع أعمارنا ثمنا .

ومقابل كلّ لحظة سعادة وفرح وأمل ، ساعات من الشقاء والألم واليأس . هكذا الحياة لافائدة ، لايجدي معها شيء . لا الذكاء ولا الجمال ولا الصدق ولا الحب ولا المجد . منتهى التشاؤم والسوداوية .. !! لابأس . وأيّ تفسير لما أكتب أنا موافقة عليه بلا جدل . المهم أنّي صادقة مع نفسي وأشعر بالغبطة الروحية والعظمة الانسانية وأنا أعيش هذا الصدق ، ولايهم مايقوله الآخرون . انتهى عندي عهد المجاملة وعهد التفكير القلق بتقدير



الناس لما أقول وماأكتب، مادمت أعي كلّ مافي من سلبي وايجابي وعيا تاما. فليس قول الحقيقة تشاؤما، ولا السكوت عن الجرح تفاؤلا. أحسّ الآن أنّني سأكتب الحقيقة وبكلّ تفاؤل. فالسوداوية مرض، وإدراك الحقيقة صحّة كاملة.

أنا حزينة أكتب أنّي حزينة. أنا سعيدة أكتب أنّي سعيدة. المهم أن لاأرتدي أقنعة مزيّفة.

نزل المطر.. وأحسست بصدق أنّ روحي قد ابتسمت داخل الخلايا والشرايين، مع أنّني نسيت كيف أبتسم منذ زمن.

نزل المطر.. ابتسمت وبكيت دموعا ناشفة. سكرت وانتشيت. وبدأت نفسي مع روحي حديثا حارًا، لكنّه كحديث الحشّاشين في آخر الليل، لابداية له ولانهاية، لامعنى ولامحطّة، لاتسلسل ولاترابط.

نزل المطر.. انّي أسمع صفير قطار كانون يعلن أنّه قادم ليهدّدني بالمرور فوق كياني، لينهي داخلي فترة متأججة من « الأمل » العذب امتدّت عشرة أعوام من ليلة رأس السنة عام ١٩٦٥ الى ليلة رأس السنة عام ١٩٧٥.

وتتحرك من سباتها أحلام وذكريات الطفلة التي لاتكبر أبدا في داخلي، الطفلة المتأجّجة الروح، المرهفة، المشتعلة الحسّ والفكر، ودود الطبع والخلق.

قطار شهر الأعياد يصفّر، يأتي من قلب المعلوم الى قلب المجهول.

قطار الأعياد يسافر منّا الينا، يحمل هدايا العيد، عيد الأضحى، العيد الكبير، عيد ميلاد السيد المسيح، عندما نتمنّى أن ينزل الثلج وتعود الأشياء والمواقف والمخلوقات نقيّة محبّة مسالمة بيضاء.

وفي هذا الشهر، آخر شهر في السنة، أفرح أيضا بعيد « إجازتي السنوية ». أحتمل حريق حزيران وتمّوز وآب في العمل، وأنا أمنّي النفس براحة طويلة ممتدّة عميقة في كوانين أقضيها على جناح السفر بعيدا عن الزمن والأرض والناس والعمل والنفس، لأعود أكثر جدّة مع مطلع عام جديد، مشتاقة للأرض والزمن والنفس والناس والعمل، ومتفائلة، قوية، غنية معطاء.

نزل الليل .. صديقي المفضّل.

النوم عصفور مسالم كان يرتدي « بيجامته » الملوّنة يستعد للنوم في سريره المفضّل، عقلي.

وفجأة نفنف المطر .. !!

ونسي العصفور آداب الطيران في شوارع السماء، وطار وهو يرتدي « منامته » الملونة بألوان قوس قزح وألوان الأحلام. طار وهو يغنّي ويتمايل كالسكران، وتركني بلا نوم.

أنا مازلت في سريري، أستعذب دفء الفراش ودفء العتمة، ودفء السكون. أمتنع عن إحداث حركة أية حركة تقطع تيّار الروح،

وتجرح أعظم سيمفونية تعزفها الآلات الموسيقية السماوية، أنتظرها عاما كاملا.

تيّار الافكار كفيضان النيل في السودان يجرفني يجرفني يجرفني، وأغرق وأغرق وأغرق، لأطفو وأطفو وأطفو، وأكتب وأكتب وأكتب، على جدران الذاكرة وحيطان الخيال، بلاقلم، بلاورقة، بلانور.

روحي الشقية لاتنام.

روحي تكتب كي تنقذني من الغرق البطيء، من الصمت المميت، من الصبر النافد على مالايمكن تصديقه، وعلى مالايمكن احتماله، ماأقوى بنيتي، اذ لم أمت حتى الآن من فرط الألم والتأثّر والتفكير والحزن العميق !؟ وبرغم شعوري، في بعض الأحيان، أن نفسي حزينة حتى الموت.

غريبة هي علاقتي بالمطر ... غريبة غريبة.

يقولون: لكلّ كاتب شيطان. وشيطاني هو المطر. قلتها لصديقتي المتميزة الغالية دلال قطرية:

— أحسّ انطفاء في روحي، لم يبق عندي ماأقوله أحسّ أنّي عجوز في التسعين، أحسّ أنّي انتهيت. لاحركة، لاكتابة، لاكلام، لاأمل، لاأريد بعد شيئا، ليس عندي بعد شيء. يقولون فلان نفد صبره، وأقول فلانة، أنا، نفدت كلّها.

وترّد دلال بتفاؤل لاينقطع حبله، بعينين يفيض منهما العسل والأمل والودّ والثقة:

— الغد سيكذّبك .. أنت تغالطين نفسك، والعمر، واشتعال الروح.
قد ينطفىء كلّ شيء في الانسان — مرحليا — الاّ شعلة الروح والفكر، عند من يفكرون يحبون يبدعون، عند من يحبّون بفكر ويفكرون بحب.

وقفتك عند من رحلوا خطأ تقترفينه عمدا. ستعودين الينا أكثر حيوية وتألقا مع الزمن.

لي الحق كانسانة أن أتصرّف كما أحب وكما أرتاح وكما أحس. كلّ شيء يغالب فيه الانسان نفسه، الاّ عدم القدرة على الكلام، على الكتابة، على العطاء. هناك قوّة أعظم تسحبه كلّه الى الداخل الى قاع الذات، ليرتاح من لهاث الحياة الصعبة، ومفاجآت الدهر المفجعة، وليس أصعب على الانسان من أن يفجع بأغلى من يحب وأقدس من يقدّس.

المطر ينفنف.!! شريط الذكريات يكرّ سريعا، يأخذ منّي العجوز المتعبة، يعيد لي الطفلة التي لم تعرف التعب وهي تحلم بمقدم العيد.

هل ينزل الثلج هذا العام في عيدنا الكبير كما كان ينزل في الأعياد الكبيرة في الشام قبل ثلاثين سنة.. !!؟

في الأعياد الصغيرة أحيانا كانت تنتظرنا، اخوتي وأنا، عند الفجر ملابس صيفية جديدة للعيد.

وفي الأعياد الكبيرة أحيانا، كانت تنتظرنا معاطف شتوية جديدة،

وجزمات، وقبّعات صوفية ملوّنة، وشماسي صغيرة على أحجامنا يشتريها لنا أبونا من سوق الخجا.

وكالعسكر، كنّا نقف على أتم استعداد مع آذان الصبح، وتمشي جزماتنا الصغيرة بجرأة في الطين والثلج والمطر، تلاحق بسرعة خطوات كبيرة وسريعة لحذاء كبير وشمسية كبيرة، خطوات حذاء وشمسية أبي رحمه الله، تسير بنا قبل طلوع الشمس في العيد لنزور موتانا في تربة الأسرة في « الباب الصغير » على طريق حي الميدان وقريبا من حي الشاغور. قاعدة في عائلتنا وكلّ أسر أهل الشام. على كلّ الأولاد أن يذهبوا مع أهلهم في العيد لزيارة الموتى من أهل الأم والأب. وأهل أمي وأبي رحمهم الله جميعا، قد اختاروا قبورهم في تربة الباب الصغير.. كما يلفظها أهل الشام.

لابدّ من أن نشتري الآس من باب الجابية، ونسير على أقدامنا أو نركب « الترين » الترام الكهربائي لنصل الى « باب صغير » وندور بين القبور، بحثا عن قبور الجد والجدّة والعمّ والعمّة والخال والخالة... وو... ونقرأ الفاتحة، و« نشكل » لهم « أغصان » الآس على شواهدهم، ونسقيها، تربتهم، بالماء. ومن هنا أتت كلمة الأم الشامية التي تدلّل ابنتها حبّا فتقول لها: تشكلي آسي..، لأنها تودّ أن تموت في حياة ابنتها، ولا أن تعيش يوما، لترى واحدا من أبنائها أو بناتها يموت قبلها.

وتذكّرني هذه الأم العربية الشامية بالأم العربية الجاهلية التي كانت تقول: « اللهمّ أعزّني بوقوفهم على قبري، ولاتذلّني بوقوفي على قبورهم ».

لم أكن أخاف « التربة » في لغة أهل الشام، « المقبرة » في لغة

الضاد. أبدا .... أبدا ... !! كانت أعظم متعة لي ولاخوتي أن نلاحق أو نسبق خطوات أبي ونلفّ وندور بين القبور حتى نصل الى قبور أهلنا. ولابدّ من أن نلتقي هناك بأقاربنا من أفراد العائلة الكبيرة، نعايدهم ويعايدوننا، « كل سنة وانتو سالمين، ان شاء الله بينعاد عليكن بالصحة والسلامة، الله يرحم أمواتنا وأمواتكن ». والأهم من هذا كلّه، أنّ الأطفال، كانوا يأخذون العيدية هناك من المتقدّمين في السن، وتغدو « التربة » لنا نحن الأطفال، أعظم وأجمل حديقة للعيد في العالم.

تكبر الطفلة التي لاتعرف الهمّ ولا التعب ولا الموت. وتذهب الى الجامعة. تحب الحياة وتكره الموت. تبتعد عن كلّ احتفال جنازة لقريب يموت. وتموت « جدّتي » أم أمي وهي غالية علينا كأمي.. تموت « أمّي يامو » تيتي « أم عزيزة »... وأنا على وشك التخرّج، أستعدّ لامتحانات الليسانس. لاأحد يخبرني، أمّي تأمر بكتمان الخبر عنّي حتى لاأحضر « الموتة » وحتى لاأبكي ولا أحزن ولا أسقط في الامتحان.

وتعود بعد أن ودّعت أمّها لكي تجبرنا على فتح الراديو ولبس « الأحمر ». فالمغاربة لايلبسون الأسود للحداد، وأمّي وجدّتي جزائريّات من مغاربة السويقة والميدان. وتعود الحياة الحلوة، ويعود الطبخ والنفخ والمرح الى بيتنا، لأن أمّي لاتريد أن يسكن بيتنا الاّ الفرح. وغارت دموع أمّي الى الداخل. وطفت أفراحنا الى السطح، الى وجوهنا. وغرقنا بحنان أمّي الأقوى، بكلّ ابتساماتها بكلّ عواطفها، ودّعت الماضي. ونحن عندها المستقبل، كلّ المستقبل.

وكنت أضحك وأسخر بمرح عجيب على كلّ من يتمسك بتقاليدنا الشعبية من عجائز الأسرة، بملاحقة آخر أخبار الموتى في العائلة لتقديم الواجبات من حضور « العصرية » و« أخدان الخاطر »، وحضور أول خميس، وكلّ يوم يطابق يوم الوفاة حتى الأربعين، وحضور السنوية، و و... !! وأهرب وأهرب وأنا أضحك وأسخر لا أحب الموت، لا أعترف به، لاعلاقة لي بمن يرزؤون بفقد قريب حبيب، كأنّني من طينة مغايرة لايطالها الموت. أتجاهل أوراق النعوة على أعمدة الكهرباء وجدران الشوارع وصفحات الصحف، أكره أن يبلغني نبأ موت من أعرفه. أحبّ أخبار الأعراس والأفراح والولادات، لاأخبار الوفيّات. هربت وهربت وهربت. ثلاثين سنة وأنا أهرب من الموت.

وأخيرا جاءني الموت الى بيتي كالطوفان، وأنا في قمّة السعادة من عمري. أخذ منّي في سنتين كلّ أحبّائي. خمسة. وحصل زلزال عظيم، ودمّرت أركان مدينة الفرح في عزّ الشباب، شبابي.

المطر ينفنف على أوراق الشجر. وأنا أستدعي أحبّائي الذين خطفهم الموت، وأعايشهم لحظات صحو نفسي عجيب.

مات أبي الطيّب المرح، واستشهد زوجي البطل الضابط المثقف النقيب فؤاد محفوظ، وسقط جنيني حزنا على أبيه وأمّه. وماتت أمي العظيمة الغالية، حزنا على ابنتها الحزينة الغارقة بالأسود والدموع.

أمّا الشخص الخامس، فهو ليس شخصا بشريا عاديّا، انه شخص

معنوي، « أسطورة ». انّه « الأمل ».. !! مات « الأمل » وأنا في قمّة الشباب، وسقطت الى وادي الكهولة فجأة وجهاً بلا تجاعيد.

عندما يموت « الأمل » يموت الانسان فعلا. وأحسّ أنّي أسير وفي قلبي « مقبرة » لمن أحب. وآسفة للتعبير الجارح، الاّ أنّه تعبير جرحني قبل أن يجرحكم، سرقته من قريب لي، مغربي جزائري الأصل، هادىء الطباع حاد العواطف عميق التفكير شامخ الكبرياء، فيه كلّ ملامح الرجل الجزائري الذي ولد في « الشام » الأرض الشريفة التي اختارها الثوّار اللاجئون المغاربة كأفضل وأشرف أرض للمنفى عن الجزائر المحتلّة من الفرنسيين. فقد أباه وأمّه وأخاه وحبيبته وعددا من أصدقاء الروح والفكر من رجال الثورة الفلسطينية، وكاد يضيع، ثمّ كافأته الحياة فجأة بزوجة حنون محبّة ذكيّة عملية صبور وطفل جميل جميل ذكي ذكي محب محب، فيه كلّ حنان وذكاء وجمال جدّته لأمه وجدّته لأبيه، وجمال أمّه وأبيه وذكاء وحنان أمه وأبيه. انّه هبة من السماء قطعة من السعادة الروحية هبطت على هذا الرجل. فنسي أحزانه مؤقّتا ــ وخيّل الينا ذلك ــ وعاد يبتسم للحياة. الاّ أنّه قال لي مرّة:

ــ أين السعادة المطلقة ؟.. وأنا أشعر أنّ مافي صدري ليس قلبا، بل مقبرة لمن أحببت ممّن رحلوا ؟؟.. أحسّ الوجع في قلبي..! الموت يكوي القلب.

وهزّني التعبير الجارح هزّا موجعا، واحترمت أحزان هذا الرجل الودود المحب المفكّر. وسرقت منه التعبير قولا وفعلا.

وكبرت الطفلة فجأة، فصارت عجوزا في نهاية عمرها، تعيش أيامها الأخيرة بلا « أمل ». فقد مات الشخص الأهمّ والأغلى في عمرها، مات شيء هام كان اسمه « الأمل ».

بعد موت من أحببت في عمري، لم أعد أخاف الموت. غدوت صديقته. بالموت تكاملت.

أنتظر بلهفة صباح كلّ عيد وموسم لأذهب الى تربة « باب صغير » لأزور أمّي وأبي أحمل لهما، الآس الذي أكره رائحته، بل الزهر العطر الذي يحبّان عطره. أشكل النرجس والمضعف على شاهدة قبر أمّي، وأشكل الورد والزنبق البلدي والياسمين الشامي على شاهدة قبر أبي، أقرأ لهما الفاتحة، أحدثّهما عن همومي بصمت أحيانا وبصوت عال مجرح بالبكاء أحيانا، ودموعي تسقي مع حبّات المطر ترابهما الطاهر. أطلب لهما الرحمة.

أطلب منهما في القبر، رضى الله ورضى الوالدين. أنظر الى القبور حولي والى الناس الذين يقفون وقفة حزينة بخشوع وايمان بقضاء الله أثناء زيارة قبور موتاهم منذ الخامسة صباحا يستمعون الى قرّاء القرآن الكريم.

فلا أكاد أتبيّن وجها من غزارة دموعي. تهدّني أحزاني وأحزانهم.

يهدّني قهري وقهرهم. كلّنا متساوون هنا. كلّ يقف أمام قبر فقيده الغالي يبكيه بحرقة وصمت، يعلّق على شاهدته عرق وفاء أخضر، يقرأ له الفاتحة، يدعو له بالجنة، ويحكي له همومه، يعبّر عن اشتياقه لرؤياه، فالحوار لم ينقطع ولن ينقطع بيننا وبين من رحلوا وتركونا شبه أموات بسبب غيابهم الأبدي.

وأكتبها عن تجربة . الذي يموت هو الذي تبدأ حياته ، والذي يبقى هو الذي يموت ، الذي يسافر هو الذي يعود ، والذي يبقى هو المسافر الحقيقي .

وأخرج من التربة ، شبه مريضة ، وشبه منتعشة ، لأنني التقيت بروح من أحبّ ، وقتلت القطيعة الأبدية التي لا أقوى على احتمالها ــ رغم أن الدين الاسلامي يعلّمني بأن « الموت حق » . أشتاق لوجه أمّي ، أنا مشتاقة لوجه أبي ، أنا مشتاقة لوجه زوجي ، أنا في شوق لاينطفىء لوجه غدرني ورحل في سفر أبدي .

أسير وأسير .... أنا ولست أنا .

أسير نحو باب الخروج بين القبور بعد أن تطلع الشمس ، لأن زيارة الموتى « أمر حلال » قبل طلوع الشمس كما يقولون ، أستيقظ على أصوات الناس الذين تكاثروا . أستيقظ على الحقيقة الكبرى ، الموت حق . لا بل أنّ الحياة أقوى من الموت ، بدليل أنّي مازلت أحيا برغم كلّ الكوارث التي حلّت بي ، ولاذنب لي سوى ذنب الحب ، وتشبّثي بوفاء عجيب لم يحسب معه قلبي الوفي حسابا للغدر والموت .

روحي القلقة الهاربة من « مدينة الأحياء » تنشد السكينة في « مدينة الأموات » . تصحو فجأة من غيبوبتها ، تثور ، تغضب ، تكتب ، تصرخ .

فجأة أتحوّل الى انسانة شرسة ترفض تثور تقسو على يد شحاذ صغير ، تهزّني تهزّني ، يعرض عليّ صاحبها أن يبيعني الماء لأزهار قبر

أمي !!.. يعرض عليّ قراءة القرآن مقابل حسنة للّه !!.. يناديني بالحاح حتى أردّ عليه، حتى أعطيه حسنة للّه ليرحم موتاي..!!.

فأثور وأطرده لأنه لايفهم. يلحّ لأنه جائع والجائع لايفهم، أطرده لأنه جاءني في لحظاتي الروحية العالية ليرميني على الأرض الماديّة الدنيوية الفجّة شئت أم أبيت. يا ألله.. أين يهرب الانسان بنفسه ليختلي بربّه !! بأمواته !! بمقدّساته !! بنفسه !! لايقاطعه أحد قائلا: مرحبا.. كم الساعة الآن ؟.. حسنة للعاجز اليتيم..!! هل تشتري آسا..!؟؟ هل أسقي قبر ميّتك بالماء.؟! هل أعبّي لك سطل الماء ؟ هل أكنس لك حول القبر..؟؟

أنهر الصبي ولاأعطيه، أطلب منه أن يتركني، عيب أن يطلب الانسان شيئا من إنسان يبكي، ألا ترى أنّي أبكي...!! ويفاجأ الصبي بكلام لم يسمعه من قبل. وعوّضت له أختي الصدمة، وأعطته حسنة عن أرواح الأموات. وليتها أعطته أيضا عن روحي...!!!

أصحو. أعود الى بشاعة الحياة، وضجيجها. ففي « مدينة الأموات » هدوء كبير وشعور بالايمان بالله عميق، وسكينة للروح الشقيّة. مشكلة الموت أقوى من كلّ مشكلة.

أخرج من التربة غاضبة ثائرة للمناظر البشعة التي تحيط بجوّ « الترب » في مدينتي أيام العيد. آلاف البشر رجال ونساء وأطفال من أهالي الشام لايتخلّون عن تقاليدهم العظيمة في زيارة أمواتهم في العيد. الاّ أن الاهمال العجيب لمداخل « الترب » التي تتحوّل الى برك من الطين صيفا وشتاء، بسبب عملية سقي الآس والزهر على القبور على يد الأطفال

المشرّدين والشحاذين الفقراء، والأوساخ والأقذار والروائح البشعة التي تستقبل الزوّار الحزانى، وجوّ الحرمان والسؤال، الذي يمتدّ على طول الأرصفة المحاذية لجدران الترب. وكتل اللحم المكوّمة من أمّهات وأطفال رضّع وعجزة بلا أيدي ولا أرجل ولا عيون على الأرصفة الملوّثة بالطين، بانتظار المحسنين بأموالهم، مقابل الدعوات بالرحمة، والجنّة للأموات، مناظر لم يعد بامكاني السكوت عنها. أنا ثائرة أبكي على الأموات وعلى الأحياء..!!

أدخل الى التربة لأبكي على الأموات.

أخرج من التربة لأكتب وأطالب بحقوق الأحياء الأموات.

أدخل بعد آذان الصبح الى التربة، واجفة القلب، مشتاقة الروح، منكّسة الرأس، لألتقي بروح أمّي وروح أبي وجدّي وجدّتي، أدخل امرأة يتيمة الأبوين مكسورة الخاطر، مكسورة القلب.

وأخرج من التربة كالبركان مواطنة ثائرة غاضبة على اهمال الدولة لمرفق حيوي وهام جدّا في حياة الشعوب، مع أنّه مدينة للأموات ومكان مقدّس.!؟

المطر ينفنف.. والشريط يكرّ.

شريط ملوّن الصوّر في عتمة الليل، يتحوّل الى شريط باللونين الأسود والأبيض في النهار.

والنوم عصفور طار في الليل يحملني الى كلّ هذه الصور، الماضية والحاضرة والمقبلة.

أراجع مامرّ، وأتصوّر ماقد يمرّ، ومايجب أن يمرّ، وأكتب وأكتب وأكتب، بلا قلم بلا ورقة. وأتمنى وأتمنى وأتمنى. أتمنّى مثلا لو أذهب صباح هذا العيد الكبير الى قبر أمي، فلاتنتزعني يد شحاذ صغير من غيبوبتي الروحية ولقائي بروح أمّي، لتبيعني « قراءة سورة من القرآن الكريم » مقابل قروش لطعامها اليومي !!..

الليل ... وأنوار عقربي الساعة الفوسفورية تشير الى الثالثة صباحا.

ياربّي ... أنا فعلا مشتاقة لأمّي، حبيبتي، صديقة عمري، أريد أمّي ...!! أنا أريد أمي ياعالم !! لا أحد يعادل أمي. لابديل عن أمي العظيمة. بدي أمي !! خبز الحياة أمي ..!!

لانوم .... لانوم .... ياربي ليتني أنام، أمسح دموعي في المخدّة، أحاول النوم لأصحو مبكرة الى العمل، الى « الحياة المريرة » التي تمشي في الشرايين اليقظة، تؤكد أنّ « الأمل » أضحى عندي مسألة صعبة في الغد.

وأتساءل هل ماكتبته على جدران الليل يخصّ أحدا غيري ؟..!

وأتذكّر كلمته الأخيرة:

— أرجو أن تعودي للكتابة، الناس تحبّ كتاباتك ..!!

— أنسيت أنّي متّهمة بأني أكتب انطلاقا من ذاتي ..؟!

— ذاتك هي ذوات الآخرين، أنت انسانة حقيقية.

— أنسيت أنّ أسلوبي يزعج بعض الشموليين من مدّعي الثقافة والتقدّم ...!!؟

— لايهمّ، كتابتك نوع من أنواع الكتابة، يرتاح له كثير من الناس، ومنهم أنا..انّنا نهرب من قسوة الواقع وجموده الى روحانيات الروح عبر الكلمة النابعة من صدر الانسان يكتب بعفوية عن هموم الانسان، ولايلقي خطبا.

أنا متهمة، ولكنني بريئة !!..

أقف كعادتي، دائما فوق نقطة ثابتة في مدينتي الأثيرة « الشام الروح » ومنها أنطلق وأكتب. وأحسّ أن هذه النقطة تكبر وتنتشر وتتّسع لتغطي الوطن الصغير، ثمّ تكبر وتكبر لتغطي الوطن العربي الكبير، ولتشمل من بعد الكرة الأرضية وطن الانسان.

وذاتي الصغيرة الفردية، على تفرّدها شاملة، تحسّ، تفرح، تثور، ترضى، تغضب، تسامح، تنام، تصحو، تحبّ، تكره، تتكلّم، تسمع، تأخذ وتعطي، تقرأ وتكتب. وأحسّ أنّها ليست ذاتي أنا، لأنّها تضمّ ذوات الآخرين، كلّ الآخرين. تتمثّلهم وتمثّلهم، لأنها شعبية، ولأنها منهم. فهي ليست ذاتي. هي صورة ذواتهم، صورة الذات البشرية الطبيعية على « الكرة الانسانية ».

لذا يحبّ قرّائي كتاباتي، لأنّها تكتب عن كلّ واحد منهم يسكنني. قلمي عصفور ينقر زجاج منازلهم وشغاف قلوبهم. أعرف.

أدرك اليوم أنّني قد أصدم للوهلة الأولى كثيرين ممّن يتشاءمون من « سيرة » الموت، يهربون منها الى « سيرة » الحياة، الاّ أنّني أشعر سلفا أنّهم سيتابعون كلماتي كلمة كلمة، لأنّي أكتب عنهم، ماهم بحاجة لقوله، عن قضية هامّة في حياتهم، قضية الانسان الذي فقد عزيزا، ويزور التربة في العيد، ويرى ويثور لما يحدث هناك..!!

وكلّهم يؤمن معي أنّ الموت حق، وان في كلّ بيت إنسانا يفتقد في العيد إنسانا غاليا قد رحل، وانّه يتمنّى له وضعا أفضل في دنيا الأموات.

ان كنت أنسى لن أنسى أبدا تعزية الصديق الكاتب السوري الكبير الدكتور عبد السلام العجيلي، الذي كنت أقرأ له ولاأعرفه شخصيا، ويقرأ لي ولايعرفني شخصيا.

استشهد زوجي الضابط منذ ثلاث سنوات.. واهتزّ لأحزاني ودخل بيتي للتعزية من أعرفه ومن لاأعرفه، وحضر الروائي السوري الدكتور عبد السلام العجيلي من الرّقة الى دمشق، الى بيتي، مع بعض الأصدقاء والصديقات. يراني لأول مرة، يزورني لأول مرة، يقدم تعزيته لانسانة يحترم صدق الكلمة عندها كما قال، يعزّيها في زوجها الضابط البطل الذي استشهد في نوى على الجبهة السورية ٨ / ١ / ١٩٧٣. وكانت تعزية متميّزة بطريقة فريدة لأديبنا الكبير، أيقظتني من عزّ البكاء ورفض الموت،

على الحقيقة الكبرى، بأن الموت حق، وأعادت التوازن الى عقلي وروحي، ومدّت لي جسرا الى الحياة من جديد.

روى لي ولكلّ المعزّين الموجودين في منزلي يومها، قصة شعبية من ريف الجزيرة والفرات، يردّدها الرواة عن امرأة بدوية مات وحيدها الشاب، ولم يجرؤ أحد على ابلاغها الخبر. وقرّر زوجها حمل المهمة بطريقته العربية البدوية الخاصة. فدخل الى البيت وطلب منها أن تطبخ له في حلّة، عليها أن تستعيرها من بيت من بيوت الجيران والعشيرة، لم يمت فيه ميت. ودارت الأم من بيت الى بيت والكلّ يعتذر قائلا: لقد مات لنا عزيز. حلّتك ليست عندنا. فعادت تخبر زوجها بأنّها لم تعثر على « الحلة المستحيلة » فقال لها: اطبخي لنا، اذن، في حلّتنا !.. فأدركت على الفور أن ابنها قد مات، وأنّها ككلّ الناس، لابدّ أن يدخل الموت بيتها.

المطر ينفنف.. والصبح يؤذّن.. وأنا مازلت أكتب على جدران القلب والعقل في العتمة.

لايهمّ...

لم يبق الاّ القليل على طلوع النهار وقدوم العيد.

ياطفلتي.. ياأنا...!! لاتجزعي.. ونامي.

لكن الطفلة مطفأة الروح، مازالت تخاف.

ومايخيفني هو عودة « عيدي » في ليلة رأس السنة الجديدة وأنا وحدي...!؟

كيف سأعيّد وأستقبل السنة الجديدة ؟ وكيف أصحو مع الفجر لا أفرح بالمفاجأة الملوّنة ، بملابسي الجديدة على طرف سريري !!.. الملابس التي وعدني بها أملي الدائم الذي رحل الى الأبد ...!!؟

أخاف من هذا العيد . أخاف يامطر !!..

أنا « الطفلة المشرّدة » التي يجب أن يقبضوا عليها ليلة « عيد رأس السنة » ، كي يضعوها في إصلاحية الحياة كي لاتجن .. حتى تعقل وتكبر . وآن لها أن تكبر وتعرف الخير من الشر ، والحبّ من الغدر ، وأن تقرأ وتكتب ، لتمحو الأميّة عن جدران قلبها الغض .

ففي كلّ شتاء تحبّه ، عليها أن تخلف ملابس الفقر النفسي ، وتمتنع عن السؤال كالشحاذين ، في تربة الباب الصغير لترتدي معطف الغنى الروحي .

وانطفاء الروح ونكران « الأمل » ليس حلاً ، وانّ الحل هو اشتعال جذوة الفكر والروح لإنارة درب المستقبل تماما كما قالت دلال ، رمز الصداقة لايغدر ، والوفاء لايشيخ .

زقزق العصفور الملعون ، وقرّر العودة مع الفجر الى سريره المفضّل .. عقلي .

وأخذ قطّي الأليف « عنتر » الزيتوني الفائق الجمال والوسامة كالنمر ، يموء بذوق وصوت ذكي محب منخفض كي أفتح له النافذة ليعود الى بيته

وينام بعد رحلة استطلاعية طوال الليل. فهو لايغدر، يذهب، لكنّه وفي يعود .... حيوان .......!!

وفتحت للحيوان الودود، وللعصفور الحنون، شباكي، وعدت الى سريري مرتاحة الضمير لأنّني كتبت الحقيقة في ليلة ممطرة، عل الأمل يعود في ليلة رأس السنة الجديدة.

**من أوراق الشتاء ١٩٧٥**

# ١٩٧٦

# أنا ... والزمن الميت

دعوني أقرع الأجراس بعنف .

لأوقظ النيام في « مدينة الحياة »، مطالبة بالصحو الكامل، داعية لسقوط « الزمن الميّت » .

وأخيرا صحوت . أخيرا اكتشفت تحت أنقاضي وبعد الزلزال العنيف والدمار الهائل، مدفن « الزمن الميّت » من عمري، ومدافن « الأزمنة الميّتة » من أعماركم . أخيرا عرفت حجم مامات من عمري وماتبقّى .

أريد أن أسجّل اكتشافي المتواضع على الورق .

في كلّ يوم تنطلق سرّاً رصاصات بلا صوت تصيب مقتلا في قلب « الزمن الحي » الممتد الى مالانهاية في عمق الحياة .



هل يتنفّس الزمن من رئتيه أوكسجين الحياة من هواء الفضاء أم من هوى الانسان ؟

سؤال ؟ هل الزمن « شخصية » غير انسانية منفصلة عن شخصية الانسان ؟ ولا جواب الاّ في عقل الزمن العاقل وعاطفة الانسان الجاهل .

فالسؤال مرفوض أصلا ، لأن الزمن أولا وأخيرا بشري رغم أنف عقربي الساعة الفوسفوريين ، وهو موجود بوجود وعي. الانسان وادراكه وعلاقته بالمكان والزمان ، بأبعاده الثلاثة : الماضي والحاضر والمستقبل .

قالها لي بانكليزيّته القويّة المحبّبة الى قلبي ، ونادرا مايتحدّث بها ، كلمة واحدة تختصر كلّ تحليله لأسلوبي في التفكير والكتابة . كلمة انكليزية واحدة ضمن جملة عربية مفيدة سريعة (Sophisticated) ، بمعنى أنت « تفلسفين» الكلام . التحدّث معك ليس أمرا سهلا ، لذا أخاف الحوار معك ...!!

ولو أردت ترجمة كلمته حرفيا كما تعلّمنا في صفوف الفلسفة لأعطت معنى مغايرا .

« أنت تسفسطين » الكلام وأنا أقلّ قدرة منك على ذلك ، واللجوء الى الصمت معك هو الحلّ الأفضل .

وسفسطة لاتعني فلسفة أبدا . وقد اتّهمني من حيث لايدري بالسفسطة وهي ليست أكثر من الثرثرة . وجاء ذمّه في معرض المديح .

ولو عدنا معا الى القاموس لاكتشفنا ماهو أكثر مرارة (Sophism) تعني مغالطة منطقية، قياس مركّب من المغالطات لافحام الخصم، وقياس باطل يقصد به تمويه الحقائق. وكلمة (Sophist) تعني مغالطا سفسطيّا.

وكلمة (Sophisticate) تعني: غش، زيف، غالط، ضلّل، سفسط.

وأيقظتني كلمته على حقيقة هامّة، وهي أنه لايعرفني أولا. وهي أنّنا نقع مع أغلى وأقرب انسان نحبّه ونعبده ونقدّسه في فخّ « الخطأ » خطأ فهمنا لحقيقته، وخطأ فهمه لحقيقتنا. وفي دوّامة هذه الأخطاء « الصغيرة الكبيرة » نسقط في فخّ « الزمن الميت »، وتندرج أخطاؤنا في جداول الأزمنة الميّتة من أعمارنا وينتصر « الزمن الميّت » على تجربتنا الحياتية الحيوية، ويوقعنا في خسائر الروح والجسد « ونخسر بعضنا » ونبكي « موتنا » ونحن أحياء ولاندري أنّنا الموتى وأنّنا القتلة معا.

لهذا قرّرت من « خطأ » في تعريف « كلمة » عنّي، أن أرفع ستار الحقيقة عن ظاهرة هامّة في حياتنا. قرّرت أن أرفع الأنقاض، أنقاضي وأنقاضكم من مدافن الأزمنة الميّتة، لأبني مكانها مدينة جديدة لحياة بلا أزمنة ميّتة، لمستقبل انساني لاينخر في عظامه خطأ لايجوز أن يرتكب في حق ماتبقّى من دقائق الحياة الثمينة.

(Sophism) تعني مغالطة منطقية.

(Philosophy) تعني علم الحكمة.

وبين فهمنا وادراكنا لحقيقة الكلمتين ، وعدمه ، قد تضيع أعمارنا في مدافن « الزمن الميّت » .

ماسأكتبه اليوم ليس سفسطة ، ولافلسفة ، بل محاولة جادّة لرصد الذات البشرية ، ذاتي وذوات الآخرين .

« السفسطة » ، هي الحوار العقيم ، هي القدرة على التضليل ، بينما « الفلسفة » كما علّمنا المعلّم الأول هي محبّة الحكمة أو علم الحكمة ، وهو العلم الذي أتمنّى أن يكون الدرجة الدنيا تطلي أسلوبي في الحياة ، فكرا وعملا وأسلوبا ونتيجة . انسانة تحبّ « محبّة الحكمة » وتعمل بها ولأجلها فقط ، والكذب والتضليل والخداع والسفسطة زمن ميّت من حياة الانسان الخادع نفسه ، لا الانسان المخدوع وحده .

أحاول أن يكون تسلسلي للوصول الى تعريف « الزمن الميّت. » منطقيّا .

تذكّرت كلمته ، وابتسمت . قال كلمة عابرة ، ورحل . ولم يدرك أبعاد الصدى في نفسي ، ولم يدرك وقفتي . وقرّرت أن أمزح معه على البعد وأمارس « السفسطة » دون علم أساتذتي في الفلسفة وأحاول تعريف الكلمتين ، لظاهرة « الزمن الميّت » .

من أين أتيت بها ؟

وهل يحيا الزمن الاّ بحياة الانسان وهل يموت الاّ بموته ..؟

أبدا. الزمن هو علاقتي أنا بالنفس، بالأشياء، بالمواقف، هكذا أعرف أنا الزمن.

فمن أين أتت لي فكرة موت الزمن وأنا مازلت أحيا !؟

ركبت جناح طائر كبير وحلّقت علوا بعيدا عن الأنا والحادثة واللحظة.

من عيني طائر ثاقب النظراتِ بدأت أرقب الأمور، وعلى مساحات لانهائية.

من « مربع » الجدران الأربعة الى « دائرة » خطّ الاستواء خرجت.

من الرؤية الضيّقة للمواقف الصغيرة الى الرؤية الشمولية.

واكتشفت مايلي:
أزمنة صغيرة في عمر الانسان تموت وهو واقف على قدميه ينتظر دوره. والذي لايقف في الصف يخسر دوره. ويموت كلّيا لاجزئيا فقط.

كيف ؟ هذا ماحدث معي ومايحدث يوميا وأنا أعبر هذا الشتاء البارد حتى الصفر، الدامع الماطر حتى الطوفان، والذي معه تبدأ عندي آلية الحركة، حركة الفكر وحركة القدمين وحركة الدماء في العروق وحركة القلم في الوجدان، وحركة الروح في غابة الضباب.

أضع يدي في جيبي المعطف، وأخفي رأسي في قبّة الفراء الأخضر، وأسير في شوارع الحياة صامتة كما يبدو لمن يراني من بعيد. أسير وحدي

بخطوات متّزنة وهدوء رصين دون أدنى صوت يشير الى خطواتي الحزينة حتى الصمت الكامل، ولو أرهف أحدهم السمع، وياخوفي لو فعل، لسمع أكبر وأعلى ضجة بشرية يمكن ان تصدر عن حنجرة انسان يذبح كلّ ثانية بوحشية بين فكّي غول الحياة.

أسير وأسير.. مازلت، وسأظلّ وحدي أسير على رصيف الحياة. ألتفت الى الخلف، الى اليمين الى اليسار ألتفت. الى الأمام أنظر بحذر. هل تلتفت الرؤوس نحو الضجّة الصادرة من أعماقي..؟ هل يسمع أحد صوت المذبحة..؟

ياصوتي الجريح.. مالك تعلو..؟ إهدأ إهدأ. أما آن لك أن تعتاد الذبح وتبكي بلا صوت..!!؟ إهدأ وحلّل المواقف بمحبّة الحكمة، بالاخلاص، بالصدق، لا بالسفسطة الفارغة، والتضليل والخداع.

ياصوتي الغاضب إخفض صوتك فالناس نيام بين أحضان النوم.

ياصوتي.. لو كنت قلبا، لو كنت ألف قلب لهلكت، لآن لك أن تهلك، ولأصابت كلّ قلب فيك وكلّ عقل فيك، جلطة مميتة، مع كلّ ادراك لك لحقيقة مريرة في شوارع حياتك تؤكّد موت جزء هام من الزمن الانساني الثمين الذي مضى من عمري.

الظاهرة القاتلة التي اكتشفتها اسمها عندي « الزمن الميت ».

هو... زمن صغير صغير كبرعم زرّ ورد في حديقة الورود من عمر الانسان المحدود. هذا الزمن قد لايتجاوز الساعة أو الساعتين، تأكدت أنّه

يموت موتا أكيدا عندما يقف الانسان في شريط الدور مع بقية الناس، بلا حركة بلا عمل، بلا انتاج، بلا معنى، بلا هدف الاّ هدف التحرك خطوة نحو رغيف نأكله بدقائق، نحو فاتورة هاتف مقطوع لاتستحق مبالغها أبدا هذه التضحية العظيمة من العمر الحقيقي الكامل للانسان، وهو عمر قصير قصير اذا ماقيس بما يأخذ الانسان من الحياة ومايعطيها، بالنسبة لآماله الطوال العراض في الأخذ والعطاء.

الزمن الميّت. لا. أنا أستعمل التعبير الخاطىء. انّها الأزمنة الصغيرة الميّتة التي يسلبها وحش الحياة الكاسر من أعمارنا، وأعيننا مفتوحة، وإرادتنا مسلوبة، وأيدينا مصلوبة، وعقولنا مدركة لهول المأساة.

وهذه الأزمنة لو لجأنا الى ذكاء الحاسب الالكتروني لقال إنّها أكثر من كثيرة. فكلّ أخطائنا السابقة في حقّ أنفسنا أزمنة ميّتة من أعمارنا ذهبت ولن تعود أبدا.

وأنا أسير في شوارع الحياة، في أحد الشوارع الهامّة، التفتّ فجأة، فأرى على الرصيف شريطا بشريا طويلا يمتدّ أمام دكان الخبّاز، تكاد تتحطّم نهايته بعربات الشارع.

الدور.. بالدور ياشباب..!!
النظام.. بالنظام ياسادة نختصر الزمن المتعب..!!
لننتظر دورنا في الشريط الانساني الطويل المشهور بالأدب والصبر،
كي نأكل الخبز، خبزنا اليومي.
الصبر..

الصبر على الكثرة الكاثرة ...!!

لنصبر على الدور بهدوء قياسي عالمي. لنحتمل بصبر عظيم ونحن وقوف بلا أدنى عمل الاّ انتظار الدور لنمارس ذواتنا، نحن الكميّة الكبيرة من البشر فوق شريط محدود من الأرض لايتّسع في الأصل لربعنا، لنصبر فالصبر مفتاح الفرج. وليرقب كلّ منّا بلهفة تحرّك قدمي من وقف قبله خطوة، وتحرك عجلات سيارة من يقف في الشارع المسدود أمامه، حركة. لننتظر ككلّ البشر المتحضّرين في العالم، دورنا في ركوب الباص، في شراء بطاقة سينما أو مسرح، دورنا لنؤمّن للأولاد تنكة الزيت النباتي وكيلو العدس المفقود ورطل البصل وحزمة الثوم وربطة المعكرونة، ودورنا عند مدخل المقبرة لنضع عرق وفاء أخضر على قبور أحبّائنا في العيد. هجم نظام الدور حتى على المقابر !!

لنحترم بسلوك عصري غربي وشرقي على السواء تكاثر البشر على سطح الكرة الانسانية السعيدة بنسلها السعيد، حتى يمنحنا احترام تكاثر السكّان واتّباع نظام الدور، الحقّ في شراء طابع مالي بخمسة وخمسين قرشا، أو توقيع معاملة ورقة حسن سلوك أو فقر حال مثلا، أو استلام تأشيرة خروج، أو دفع أجور الهاتف والماء والكهرباء ورسوم ضرائب البيت والتلفزيون، أو لتسجيل أبنائنا في المدارس والجامعات ... أو .... أو ....

انتبهوا ياسادة

الشريط البشري يتحرّك خطوة الى الأمام. يتحرّك « الأول » فينا خطوة نحو « نافذة الحياة » حيث ندفع لابن الحياة « موظف النافذة » أو

يدفع لنا، لافرق، فيكّر الشريط كلّه تلقائيا، وبفرح عظيم، بكلّ أفراده المربوطين بخيط خفي واحد، يكرّ نحو النافذة، خطوة فرح تعادل الفراغ الذي تركه « الأول » فينا لمن بعده. ويكون أكثرنا فرحا « الأخير » في الشريط. يخرج « الأخير » فينا رأسه عن خطّ الدور عادّا في قلبه، أحيانا، وبصوت عال أحيانا، ماتبقّى من الرؤوس أمامه. اقتربنا من الهدف، مع أنّنا تعبنا من الوقوف انتظارا.

وتنطلق على هذا الشريط الصابر الرصاصات الصامتة من فوهة مسدّس مجرم مجهول الهويّة يرتدي طاقية الاخفاء. وتستقرّ في كلّ فرد من أفراد الشريط رصاصة، تعادل ماصرف من صبر الانتظار، وتعادل « الزمن الميّت » سقط من عمره. كلّ منّا قاتل ومقتول، ولايعترف.

كل يتهم الآخر في سرّه، الذي يقف قبله بانه هو سبب « الزمن الميّت » في داخله. كلّ يشعر بالضجر ممّن قبله، ولايخطر له أبدا أنه سبّب الموت والضجر لمن يقف وراءه وبعده. كلّ يضع اللوم في سرّه طبعا على الاخرين، وعلى تكاثر وكثرة الاخرين، وهو لايدري، وينسى أو يتناسى، انه هو أحد هؤلاء المسبّبين لظاهرة « الزمن الميّت » في أعمار الآخرين كل الآخرين. هو سبب الظاهرة الانسانية الخطيرة التي اكتشفها بداخلي وداخل ذوات الآخرين، ظاهرة الزمن الميت في هذا « الزمن المعاصر ».
حيث تزداد الدعوة للتحديد من النسل ومع ذلك يتكاثر السكان وتزداد صفحات علم السكان وتتضاعف مشكلات السكان وأعمال لجان الامم المتحدة، من أجل سكاننا وسكان جيراننا، سكان الشرق وسكان الغرب، سكان الكرة الأرضية يعيشون ربع أعمارهم الحقيقية.

موت الازمنة الصغيرة في أعمارنا سببه الاول، عدم تمكننا من علم السكان، وعدم قدرتنا على توزيع السكان توزيعا يعيد للانسان كرامته الانسانية، بأن يأخذ مكانه الحقيقي في الحياة، دون أن يضطر للانتحار طويلا على شريط الانتظار الميت.

سببه الثاني، جهلنا بقيمة الزمن وقتلنا لسنوات وأيام وساعات ولحظات هامة من عمرنا أخطأنا بحقها، وقتلناها، وأمتناها بغبائنا، وبجهلنا وبلا وعينا لغدر الحياة الممكن، ولخطأ حساباتنا.

ونحن في العشرين، عمر العقل والادراك، كما علمتني « الفلسفة » لا « السفسطة » ياصديقي البعيد الحبيب الغارق في الضباب، ونحن في العشرين لم يعلمنا أحد كيف نتجاوز الخطأ، ونتمتع بين العشرين والأربعين بفكر الاربعين، وحب الاربعين وتجربة الاربعين. ان العمر غال جدا جدا وهام جدا جدا بين الرقمين، العشرين، والاربعين، وانه لايجوز ان نطلق على أية دقيقة حياتية فيه، أية رصاصة طائشة بلا صوت تصيب منها مقتلا، سنحس بوجعه ابتداء من الاربعين، لم يعلمنا أحد في العشرين كيف نتحاشى اخطاء العشرين ونحمي خط عمرنا من الازمنة الميتة.

في مدارسنا الثانوية حيث نبلغ سنّ الرشد، علّمنا أساتذة الرياضيات مسائل الجبر والهندسة. وغاب عنهم وعن كلّ أساتذة الحساب في كلّ صفوف الطفولة والمراهقة والشباب أنّنا كنّا بحاجة لعلم حساب « قيمة الزمن » في حياة الانسان، لعلم يفتح عقولنا السعيدة المرحة على أصول حساب قيمة الخطأ والصواب في العلاقات البشرية العملية والعاطفية والفكرية والاقتصادية والسياسية.

لم يعلّمنا أحد كيف نخطّط لسير خطّ حياتنا بأقلّ نسبة ممكنة من الأخطاء، أعني من « الأزمنة الميّتة » لو صحّ التشبيه.

الأخطاء الفردية، أزمنة ميّتة من عمر الانسان.
الأخطاء التاريخية، أزمنة ميّتة من أعمار الشعوب والأمم.
الأخطاء السياسية، أزمنة ميّتة من حياة الدول.

تخلّف الأمة العربية مثلا سياسيا وفكريا وحضاريا عن التطوّر الحضاري المعاصر شرقا وغربا، مرحلة من الزمن تعادل خمسمائة سنة ــ تواضعا ــ هو زمن ميّت من عمر الأمة العربية ذات الحضارة العربية الذهبية الغابرة.

تخلّف الفرد العربي عن ركب التطوّر العلمي المتسارع نحو الغد، زمن ميّت، يجب أن نعمل بتسارع أكبر على تجاوزه والتخطيط للقضاء على مضاعفاته في المستقبل.

فلنعترف كانسان عربي وكشعب عربي وكأمّة عربية بأخطائنا. فلنواجه بفكر علمي مادي أزمنتنا الميتة لا بالندب والبكاء والرثاء والوقوف على الأطلال ووضع أكاليل الزهر، بل بالوقوف والتمعّن والتفكير والعمل للقضاء على مايمكن أن يقع منها في مستقبل خريطتنا العربية، وقد آن لنا أن نزرعه بأفكار تؤدي الى عواطف حيّة، لابعواطف محدودة تؤدي الى أزمنة ميتة، آن لنا أن ننقذ خطّ عمر الأمة العربية المقبل.

من العامّ في حياتنا العربية أعود الى الخاص.

من الأمة الى الفرد، لأقول وأقرّر وقائع أكيدة. لنأت معا بأمثلة.

الاختيار الخاطىء في الحب زمن ميّت. زواج المنفعة زمن ميّت. الأرق زمن ميّت. النوم زمن ميّت ــ حي. الانتظار زمن ميّت. المرض زمن ميّت. البكاء زمن ميّت. الضيف الثقيل زمن ميّت. الزوج الغيور زمن ميّت. الحوار العقيم زمن ميّت. الزوجة الثرثارة زمن ميّت. الحب الفاشل زمن ميّت. الحب المحرّم زمن ميّت. شجرة تين البعل زمن ميّت. والمواقف التي لاتثمر تينا عسليا أزمنة ميّتة تأخذ مساحات من عمرنا الغالي وتقصّره وتقرفه كعود يابس.

ولايبقى من العود الأخضر الطري لعمر الانسان الاّ صحوة الفكر على أهمّية ماتبقى من خضار العود وعلى أهمية ماسنقدّم لهذا العود من رعاية وسقاية حتى تنتهي دورة حياته بسلام، دون أن نشوّه ماتبقى من الحياة القصيرة بأخطاء تنفي عنها صفة الحياة، والانسانية الحقّة السعيدة.

اكتشافنا للزمن الميّت في حياتنا السابقة، ناقوس يدقّ معلنا أهمية العودة للصلاة في معبد الحياة حيث تتفجّر ينابيع الحياة فتعطي نهرا صافي المياه من كلّ شوائب الخطأ الانساني.

أنا أقرع الأجراس.
ياأبناء وبنات العشرين.
ياأبناء وبنات الثلاثين والأربعين.
تذكّروا كلمتي.
دقائق العمر هامّة وحلوة وثمينة.

فلاتقتلوها بالأخطاء الصغيرة الكبيرة .
لاتقصّروا أعماركم بأيديكم .
عيشوا أعماركم بأقل نسبة ممكنة من الأزمنة الميّتة .
فالهمّ منشار العمر .
فلاتقتلوا أنفسكم بأيديكم .
وتحايلوا على الهمّ ، وعلى الدور
واقتلوه وعيا قبل أن يقتلكم غدرا
لاتنتحروا على شريط الدور انتظارا .
اقرأوا ، وأنتم تنتظرون .
غنّوا ، وأنتم تنتظرون .

دعوة الى الحياة أنادي بها كي أنقذ مستقبل عمركم من ندم أليم يعانيه جيلي ، جيل الأربعين لأنه لم تتح له فرصة التمتّع بالحياة مثلكم ، ولم يقل له «المعلم» يوما : يا ابني هكذا تحسب قيمة الزمن في عمر الانسان السعيد .

**من أوراق الشتاء ١٩٧٦**

# أنا ... راكبة
# مسافرة في عربة الجدلية

في مثل هذه الأيام من كلّ عام، وعلى عتبة تفصل بين عامين. يتفتّح عقلي كالزهرة الشتائية النضرة في ربى الريف الانكليزي والريف الفنلندي والريف الألماني، لاستقبال الحياة ونفنفة المطر وارتماء الثلج في أحضان الأرض العطشى.

ويتورّد قلبي كالورقة الخريفية القرميدية المدمآة بعصير الحب والحنين والشوق، ونبيذ المحبّة المسيحية الخالصة.

وترتدي المخلوقات البشرية والحيوانية والنباتية، والمواقف، والأزمنة، عندي أردية نقيّة بيضاء نقاء الثلج وبياض القلب الانساني الطيّب.

وأخرج من هذا العالم المفعم بالسحر لأدخل في أعماق الذات



المتأثرة المشبوبة بهوى الطبيعة الخاضعة لأهواء الرياح والأمطار والثلوج والغيوم والشموس والأقمار والأفراح والأحزان والآمال والهموم ... و ... و ...

أخرج من عالم الطبيعة المتحرّك، الثائر الهادىء، الغائم المشمس، الحي الميّت، المسافر من فصل الى فصل. من خريف الى شتاء ومن شتاء الى صيف، ومن صيف الى ربيع، ومن زهرة متلاشية الى زهرة وليدة، ومن ورقة شجر يابسة الى ثمرة تفرز العسل.

أخرج من الطبيعة الأم، من الكون والكينونة، لأدخل الى الذات المفكّرة الفانية، بنت الطبيعة والمساهمة الأولى في استمرار كينونتها مع قافلة القطيع العام المسافر على درب الحياة، تدفعه برفق مرّة وبضعف مرّة عصا خفيّة في يد راعي الكون، الوجود، الحياة.

في مثل هذه الأيام التي تجعلني أصوات الرياح فيها أسهر حتى الفجر، أغرق بنشوة روحية لامثيل لها في سيمفونية الطبيعة. أخرج من نفسي وأدخل الى عناصر الطبيعة الثائرة لأفنى بها، ثمّ أخرج من فوهة بركان الطبيعة وقد انصهرت وزالت كلّ شوائبي، وعدّت نقيّة الروح نقاء روح النعجة الصغيرة، البريئة الراكضة وراء أمّها في قلب القطيع.

أخرج من الطبيعة وأعود الى الذات وأبدأ بالتأمّل الخالص. وأجلس على كرسي الاعتراف أمام ذاتي الداخلية الحكيمة الصادقة العادلة عدالة قاض نزيه، المؤمنة ايمان راهب كنيسة محترم شبه قدّيس، ايمان شيخ جامع شبه صوفي.

وأتحوّل من الحركة المطلقة الى السكون المطلق، تتمرّد فيه ذرات العقل غير المرئية على سلطان ذرّات الارادة البشرية، فتتوقّف ظاهريا حركات اللسان واليد والقدم والساعة. وأستمتع بشكل لامثيل له بقدرتي على مراقبة حركة ذرّات السكون المطلق البادي لعين لاتعرف أين تكمن حقيقة الحركة، أين تكمن حقيقة السكون.

أهرب بفعل قرار الارادة من عالم حركة الحياة المجنونة، من عالم الصخب والضجّة وجنون السرعة ومقصلة الزمن الأنيقة تفرم مع مرور كلّ ثانية، رقبة ثانية وليدة بضّة حلوة، وأتحوّل الى وضع أشبه بوضع تمثال بوذا. أدخل مع الذات في اتحاد كلّي في نيرفانا أساسها الرغبة في أن أمنع الحركة بكلّ أشكالها لأتمكن من فهم سكون حركة العقل وحده، وجنون حركة الروح وحدها، وثورة حركة الجسد وحده، لأتوصّل الى فهم هذا التركيب الانساني العجيب « العقل والروح والجسد ».

ربّما ساعدتني التجربة على الوقوف على أعتاب حقيقة النفس البشرية وحدي دون مساعدة الفلاسفة وعلماء النفس.

وأسمع العقل يقرّر حقيقة مرّة هي:

انّنا بشر نسهم في كلّ عام، وعند منعطف يفصل بين جبلين، بين عامين، بين عمرين، نسهم في صنع دورة الحياة الانسانية، ونسكبْ من رحيق أعمارنا الى كأس الخلود قطرات لؤلؤية جديدة يزدهر بها عمر الكأس، وتفنى بغيابها ذرات جوهرية من ذواتنا المادية والروحية، وتنحدر بسرعة تعادل سرعة الصوت نحو وادي العدم، دون أن ندري، بل ونحن

نضحك ونلبس الطراطير وقبّعات الورق الملوّن، بل ونحن نغنّي ونرقص ونصفّر بالزمامير، ونطيّر بالونات ونتبادل نخب كؤوس الصحة والسعادة. ونسفح من قوانا المادية والمعنوية على مائدة سهرة العام الجديد مبالغ خيالية وأرقاما عالية نشتري بها سعادة آنية مفتعلة، نعلّقها في رقابنا وعلى صدورنا كرقية تجلب التفاؤل والحظ طيلة عام قادم. سعادة تمتد لحظات أولها يبدأ قبل الساعة الثانية عشرة للعام الراحل، وآخرها يبدأ عند منتصف الليل وقد يمتد حتى فجر العام القادم. نفرح بعام جديد، وننسى أنّه سقط من عمرنا.

نحارب العام القديم بالعام الجديد. نحارب هموم الأمس بأحلام الغد. نتجاوز خسارات الروح والمادة على درب العمر بآمال المستقبل الغامض على ماتبقّى من درب العمر.

مشاريعنا رغباتنا لم تتحقق نحوّلها باصرار الى مشاريع وأهداف جديدة لابّد وأن تتحقق، تتناسب مع حجوم أمنياتنا وطموحاتنا في هذه الحياة ومع تقديراتنا لما يجب أن تستحقّه ذواتنا الجيّدة الطيّبة النشيطة ــ حسب تقديراتنا ــ في هذه الحياة.

أمّا أنا... فلا أفعل كما يفعل الآخرون في ليلة رأس السنة.

في هذه الأيام التي تسبق اللحظة الفاصلة، ومنتصف ليل العمر، أهرب من الضجة الى السكون. من الآخرين الى الأنا. من حفلات رأس السنة الى بيتي. من ممارسة غشّ النفس الى معايشة الصدق مع النفس.

أهرب الى منقذي، الى التأمل ومحاسبة الذات، وفتح حصّالة العمر.

أسهر مع أخطائي في عام مرّ، ومع مايجب أن أكونه في عام آت. أعاني الحسرة على عام رحل من عمري، وأعايش الفرح على عام قادم على عمري.

لحظة التأمّل ووقفة الحساب على عتبة عام جديد، لحظة صارمة جدّية لابد منها لكلّ انسان يحب أن يكبر نحو عمر أفضل أقلّ همّا.

هي لحظة تعادل الحقيقة بعظمتها وجمالها وأناقتها الطبيعية. هي لحظة عذراء ليس على رأسها قبّعة ملونة من ورق هش مزيّنة بالريش الملون. وهي ليست حورية تمايل بثوب سهرة برّاق يبرز فتنة القوام، وهي ليست لحظة عابثة لامبالية تقهقه بلاحياء على مائدة العام الجديد، سكرى بنشوة خمرة اللامبالاة « الخيامية » بسعادة الغد، وقوفا عند آنية اللحظة وحدها.

هي لحظة مفكّرة. يحلو لها أن تخلو الى ذاتها بعيدا عن كلّ الأسماء والأصوات والوجوه عندما يمرّ قطار العمر عند محطة فاصلة، كي تكون هي هي أمام المرآة دون أن تخفي بشاعة الحقيقة بكحل عيون أسود وحمرة شفاه قرمزية، وظلال جفون خضراء، ورموش صناعية وباروكة اصطناعية. المهم أن يقال الصدق. معنا أو ضدّنا، لايهمّ.

ومن منسياتي الفلسفية يبرز عنق الجدلية ـــ الديالكتيك، كعنق زرافة جميلة. وأقف أمامه مأخوذة بقوّة وجوده.

يجب أن نتعامل مع أمور الحياة بمنطق جدلي.
يجب ان نتذكر أهمية الثنائية والتضاد.

يجب أن تسكن فينا النعم الى جانب اللا .
يجب أن نتوقّع الشر والخير في كلّ موقف وكلّ عمل وكلّ انسان .
لكلّ موقف وجهان .
ولكلّ موقف احتمالان .

ومن تلازم النقيضين تخرج النتيجة دائما ..

الحياة .. حبّ وكره، ولادة وموت، نجاح وفشل، لذّة وألم، ارتفاع وسقوط، حضارة وسقوط حضارة، سجن وحرّية، رجل وامرأة .

في الحب .. خير وشرّ، نعم ولا .

عندما يفترق في الحبّ اثنان، رجل وامرأة، يجب أن تكون هي المسؤولة أولا وهو المسؤول ثانيا أو هو أولا وهي ثانيا .. والنتيجة الحتمية انفصال، ونهاية للحب .

قد تقول هو السبب، وقد يكون هو السبب فعلا . وحتى ترتاح يجب أن تقول المرأة التي أخفقت في الحب : لابدّ وأنّ السبب كامن فيّ أنا، وأنّ الخطأ يسكنني أولا، حتى وصلنا الى هذه النتيجة المريرة . وانّني لابدّ كنت عاملا أساسيا أسهم في صنع هذه النتيجة التي آلت إليها قصّة حبّنا العظيمة، دون أن اقصد، دون ان أدري .

في الحرب ...

عندما تنتصر دولة على دولة وجيش على جيش معاد، يبرز

الديالكتيك ليقرّر أنّ نتيجة المعركة كانت لأن الجيش المنكسر لم يضع في حسابه احتمالات الخسارة والربح واللا والنعم قبل البدء في المعركة.

في السياسة ..

عندما نحاول أن نصل الى تعريف صحيح منطلقين من فكر جدلي... نكتشف أنّ علينا أن نقول ونؤمن في ذواتنا: أنّ السياسة هي العنوان الكبير في الحياة، السياسة هي الحياة، ولاسياسة معزولة عن الحياة. السياسة هي المادة النوعية التي تدخل في كلّ أنماط حياتنا ومستويات حياتنا، كما عرّفها لي صديق أستطيع أن أؤكّد أنّه سياسي تمتلىء حياته بالسياسة، وتمتلىء السياسة بوجوده، بممارسته النظرية والعملية، حياة وتوهّجا وأصالة وقربا من حقيقة الهدف.

ولتطبيق الجدلية في السياسة لابدّ من مناقشة عناصر أساسية ثلاثة:

١ ــ الذات الفاعلة أو الذات المتحرّكة أو الذات القائدة، من حيث تركيبها، موقعها من العمل السياسي والتأهيل الذي تتمتّع به من حيث وضوح الرؤية والطاقة العقلية المتوفّرة لها.

في هذا المنحى تبدو الحركة والقيادة من الصفات الأساسية للعمل السياسي..

٢ ــ الهدف من حيث علاقته بالذات الفاعلة. وفي المستوى الحضاري للجماهير، هل هو هدف ايجابي كبير دسم؟، أم هو حدث عادي، وتدخل فيه ظروف الهدف ذاته من حيث امكانية التحقيق الكامل أو الجزئي، ومن حيث تحقيقه مرحليًا أم دفعة واحدة.

٣ ـ عملية الاستثمار، هي النقطة الأساسية. عندما تحدث معنا النتائج لابدّ من تصحيحها، يجب أن نقيس النتائج بالهدف وبالطاقة التي أعطتها الذات الفاعلة.

نقيس النتائج بالنسبة الى:

الهدف والطاقة المقدّمة في سبيل انجاز الهدف ثمّ نناقش مسألة الاستفادة من الجوانب الايجابية للنتائج الى أقصى حدّ، ومدى تقدّمنا بعد ذلك لممارسة عملية النقد الذاتي في الجوانب الضعيفة أو السلبية أو غير المتوقّعة.

في الحياة...

عندما نمشي ونحن نضع على رؤوسنا نظّارات حصان نقع في حفرة المفاجآت.

أمّا عندما نضع في حساباتنا أن كلّ انسان، كلّ ظاهرة، كلّ موقف، كلّ مشكلة، كلّ مستقبل، يتطلّب منّا نظرة عميقة ووقفة جادّة لرؤية السلب والايجاب معا، فلابدّ أن نصل حتما الى نتيجة أقرب الى الطبيعة الى المعقولية الى الواقع دون أن تصعقنا المفاجآت، ودون أن نندب معركتنا ونبكي طيبتنا بدموع اللاجدوى، ودون أن ننتقم من لاوعينا ولاجدّيتنا، باللجوء الى عملية الانتحار السخيفة.

وأكاد أصل الى قناعة نهائية بأهمّية العلاقة الجدّية بالحدث من حيث تشكّل الحدث ونتائجه، وحتى تكون العلاقة جدّية في الحياة، في الحب،

في الحرب، في السياسة، يجب أن يكون التفاعل حارّا، ومتلازما بحضور العقل والاندفاع والاستدراك والاستنتاج.

في خطّ العمر المقبل، وحتى لانبكي كثيرا، يجب أن نردّد عند منتصف ليلة تفصل بين رقمين ١٩٧٦ ــ ١٩٧٧ أنّ العربة يجب أن يجرّها حصانان: ( واحد أبيض للعقل. وواحد أسود للرغبة ).

والحوذي.. رجل حكيم قرأ وفهم وطبّق بعمق فلسفة الجدلية، فعاش عمرا مديدا وهو يضحك بسخرية من هموم الحياة ومن مفاجآت الحياة غير المتوقّعة وغير السارّة.

في يدي الآن تذكرة، تسمح لي بالسفر بهدوء وفي قلب العاصفة التي تلفّ الحياة، على عربة « الجدلية ». أسلّم قدري الجديد الى حوذي العربة يجرّها حصانان أحدهما أبيض والآخر أسود. وعلى وقع حوافر الحصانين أنام في حضن العربة بسلام أشمّ عطر غابات الحياة الآسر على الطرفين ورائحة طين الأرض وهي تستقبل أمطار الشتاء. وأتجاوز بلا خوف غابات الضباب الكثيف يحجب عنّي رؤية المستقبل والشمس.

قال سارتر مرّة مامعناه: أنا لست هنا، أنا عند الآخر.

وأقول معه:

أنا لست هنا، أنا عنده.

أنا لست في الشام، أنا في مدينة الضباب.

ومن نافذة عربة الجدلية، أظلّ. أمسح صدى أنفاسي الحارّة عن زجّاج النافذة، وأرى الأمور بوضوح.

الشمس والضباب معا...

الشمس هنا والضباب هناك...

والشمس مسؤولة والضباب مسؤول عن قصّة الفراق الأبدي بين الشمس والضباب.

ولابد أن أقبل النتيجة بصمت لأني قبلت أن أسافر بعربة الجدلية.

أنا أركب عربة الجدلية.

وأسلم نفسي للصيرورة.

أركب عربة ديالكتيك الفيلسوف هيجل، وأنا قانعة تماما وعن تجربة عملية بعربة هيجل وأهمّية السفر بها.

النعم واللاّ يولّدان الحياة.

الفكرة والنقيض يولّدان الصيرورة. والصيرورة فكرة ثالثة جديدة يتولّد نقيضها مباشرة، ويبدأ التناقض من جديد، وتستمرّ عملية الجدل، وتتولّد صيرورة جديدة. وهكذا حتى الفكرة المطلقة الشاملة، الاله.

وأركب عربة الجدلية...

وأنا أتمتّع بوعي تام واشراق روحي متوقّد بايقاع عجلات العربة، وبالتوازن الكامل بين الحصان الأسود والحصان الأبيض وحوذي العربة يأخذني نحو المطلق بكليتي.

**من أوراق الشتاء كانون الأول / ١٩٧٦**


١٩٧٧

« الفصل الخامس »

# بقلم شجرة تسلى بالمطر

الزمان : صباح الأربعاء ٢١ كانون الأول ١٩٧٧

المكان : غرفتي التي تقف أبدا في محطّة وداع الغوطة المسافرة الى الصحراء.

المناسبة : المطر ، المطر ، المطر يدقّ بعنف على زجاج نافذتي وزجاج نفسي. تمرّ سنة كاملة ، ومازال يتذكّر.

يتذكّر أني كنت في محطّة وداع عام ١٩٧٦ . « راكبة مسافرة في عربة الجدلية » المنطلقة أبدا بين نقطتين ، تاريخين صغيرين من التاريخ الكبير لعمر الانسان . تاريخ يتوارى ، يرتمي بتعب السفر ، فوق تراكمات السنين ، فوق جبل العمر المتنامي نحو « قمة النهاية » . وتاريخ يقبل بكلّ غموض ، يضحك ليلة ميلاده ، ليلة رأس السنة كزرادشت ، لا ككل الأطفال .


A. Naël

ويبكي ليلة الرحيل، كما العجائز بدموع تهمي على الكون وتسقي فرح العام الوليد. الحياة من الموت، والفرح من الحزن، والعام القادم من العام الماضي. هكذا الحياة، وهذا هو سرّ الجدلية، سرّ الصيرورة. أدركها عقل « الطبيعة »، قبل أن يدركها عقل الانسان. وان كانت « غريزة » الطبيعة هي المثيل لعقل الانسان. فأنا أمجّد « غريزة » الطبيعة في ليلة تفصل بين عامين، بين تاريخين صغيرين، كلّ تاريخ عمره سنة. ومن علاقة التاريخين يصير الانسان. يصير الانسان أكثر انسانية.

شرد ذهني، ثمّ عدت أقول له: أنت « كبابانويل »، أتيت لي بلعبة الفرح من كيس المفاجآت تحمله على ظهرك الطيّب. أتيت لي بالفرح، عبر سؤالك، في زمن يصعب فيه الفرح. أعطيتني « مطلبا » ملحّا، منحتني رغبتك في أن تقرأ كلماتي عن الشتاء، عن العام الجديد، رغم أنّها ذاتية صغيرة لاتعطي حلولا لأسئلة الآخرين. لاتعطي طعاما لأفواه الجائعين. لاتعطي عقابا لغدر الآخرين. فأيامنا الماضية أيام الناس كلّ الناس، سجّلت عنها في النفوس أشرطة مليئة بصور الحزن والأسى والقهر واليأس، وكانت صور الفرح نادرة ندرة زهرة البنفسج، في أرض تحلم بالمطر.

اذن مازلت تذكر كلمة مخلصة قيلت منذ عام وكنت بالصدفة أنا بطلتها. غريب تذكّرك « لخواطري الذاتية » تؤكّد حتمية علاقتي بالطبيعة في الشتاء!. مع أنك رجل يعيش بموضوعية، للعموميّات. يفكّر بالكلّ دون الجزء، بالمواطنين دون الفرد، بامكانية رفاه الأجساد الفقيرة الصغيرة بدفء حرارة الحطب، لابرفاه « الذات » المرفّهة بدفء حرارة التدفئة

المركزية، الغارقة في الشتاء بأحلام دفء المترفين غزلاً بصوت المطر ولون الثلج شتاء...!!!؟

غريب جدّا هذا الزمن...!!؟

غريب تذكّرك لصورتي الماضية وأنا أحمل حقيبة السفر نحو غد أصبح اليوم أمسا.

انتظارك لما سأكتب أعطاني فرحا. والفرح أصبح متواضعا يقبل بأقلّ شروط حياته. يقبل بأن يتذكّر أحدنا للآخر كلمة صادقة كتبت في لحظة صدق مع الذات، ومع الآخرين منذ عام، ولو كانت كلمة انسان لايعاني الجوع في زمن مازال فيه جياع.

قلت لك: لاأدري من أين ومتى ستأتيني هذه الكتابة الأسطورية الطبع، قد أكون أبدعت يوما، وقد لا أملك إبداعا متفوّقا أو مماثلا. وأنا أفضّل الصمت على الهبوط. وأفضّل السكون على الحركة بلا طحن. وصرت أنسى « فرحي بالمطر » خوفا من دموع الآخرين بسبب البرد والمطر.

وقلت لي: صارت كتابتك على عتبة بين عامين من « عمر الانسان » من خلال عمرك، تقليدا في مجلّتنا، نطالب به، ننتظره. مرّ الربيع ومرّ الصيف ومرّ الخريف ونحن ننتظر أوراقك وماسيفيض به قلمك شتاء.

لاشكّ أنّنا نغرق في الكتابات الجدّية المصيرية جذوة شبابنا، ونحترق. ونحن نرقب الأحداث الكبرى. ونظلّ بشراً بحاجة لزخّات المطر

تهمي على نفوسنا تنعشنا، توقظ فينا حسّ الحياة وحبّ الأرض، فنعاود بقوّة الأشياء الصغيرة الجميلة الحالمة في وطننا، الصراع بحثا عن الوطن، ودفعا لكل مايسلبنا الوطن، الذات الكبرى. ومن ذاتك الصغرى وذوات الآخرين الصغيرة، من تأملنا فيها تتشكل الذات الكبرى. هذه قناعتي.! لهذا أنا أسأل. سؤالي لاعودة الى الذات الصغرى وأحلامها الرومانتيكية، بل الى منابع « الذات الكبرى ».

وصحوت على الكلمة الكبيرة وأحسست أنّ جبلا من الماضي قد حطّ كالنسر على كتفي الأيمن، وجبلا من المستقبل كالصقر قد حطّ على كتفي الأيسر، وعليّ أن أتحمّل عبء الحمل الكبير وأحمل القلم بشجاعة سيزيف وأصعد بالجبلين: الماضي والمستقبل نحو قمة الجبل الثالث، « الصيرورة، الحياة ». أكثّفها بكلمة، الكلمة التقليد، الكلمة البيضاء الصادقة، الحقيقة عارية كما خلقها الله تحت المطر. المطر ينزل على أرض البشر. وأحبّ الله وأحبّ المطر حبّا صوفيّا. صوت المطر يطربني يسكرني.

فأكتب على سكر صوفي أيّ كلام أيّ كلام. فالسكران إنسان بين بين، بين الحقيقة والوهم، بين الأنا واللاّ أنا، أسكر، وتهطل الكلمات المتفاهمة المتناقضة على سكر. أمدّ الكأس الكريستال الشفّافة الى السماء أملؤها « بالنبيذ الالهي » أشرب أعبّ شرابا غريبا يسكرني، يطلق روحي من الأسر، يخلقني، يخلّصني، يعيد ولادتي، يزرعني بالخصب والمحبة كعشتار، يمنحني عطاء فريدا، يتيح لي ممارسة أمومتي كحوّاء، يعدني، يعد « رحم الروح » عندي بالحمل والولادة العظيمة لاثراء الطبيعة بأطفال يملؤون الأرض بالمتع الروحية والذهنية الراقية، كتباً تحمل صورة الانسان العربي، مرايا

تعكس وجوه الحياة في العصر العربي الراهن، آثاراً تقدمني شاهدة على عصري.

ماأسعدني إمرأة « بالمطر »، وماأسعدني إنسانة « بالمتع الروحية ».

الشتاء، الضباب، المطر، الريح، البرد، الجوع، الثلج، القهر، الزمن، العدم، الخلود، الأنت، الأنا، اليأس، الأمل، الموت، الحياة، الأسر، الحرية، الصمت، الصوت، اللاحب، الحب، الاسمنت، الطين، الصحراء، الغوطة، الشجرة، الحجر، الانسان، القطة، العجوز، الطفل، السعادة، الحزن، الغياب، الحضور، المادة، الروح، الليل، النهار، القلب، العقل، الأرض، الهجرة، الوطن، كلمات تشكّلني، تسكّنني، كلمات، كلمات، يهزّها الريح، يسقيها المطر، يداعبها ندف الثلج.

كلّ كلمة، ورقة من أوراق الشتاء، أخذت كامل أبعادها في نفسي في الفصول الثلاثة، ثمّ برزت عارية أمامي في الشتاء بلاخوف من برد الشتاء، شتائي أنا. الأوراق، الكلمات الخضر والبيض والحمر والسود، تشكّلني. تشكّل غصنا من أغصان شجرة غريبة لاتورق الاّ في هذا الزمن الفاصل بين عامين في حديقة « محطة » قطارها يصفّر، يدعو المسافرين أن أسرعوا. يأخذ معه كلّ الناس، وأنا بينهم، ولكن ياقطار الى أين الى أين ..!!؟

الغصن تهزّه الريح، أوراقه مبلّلة بدموع نديّة، فروعه مهيّأة لارتداء ثوب العرس الأبيض الطاهر الواعد بدفء الحب. فمن دفء الحب حرارة الثلج تمتصّ الحياة، شمس الحياة. وفي حرارة الصفر تكمن حرارة حركة

ذرّات العقل والروح في جسد هذه الشجرة العجيبة التي تبعث بجذورها نحو طين الطبيعة الأحمر بعشق صوفي، وترسل أزهارها وطيورها وأوراقها البيض بكبرياء نحو السماء الرمادية العبقة بغيوم « الفصل الخامس »، الفصل الحقيقي الذي تتحرك فيه عندي غريزة الفرح، وغريزة الكتابة وغريزة الحب وغريزة البقاء. فينزل المطر ويرتوي الغصن، وأفرح وتفرح شجرتي وأزهارها وأوراقها وطيورها، وأنفض ريشي، وأطير من ذاتي في باطن الأرض من عمق الطين وأحطّ على غصن « الشجرة الغريبة » في فصل الربيع الحقيقي للنفس، الواقع بين فصلين من فصول العمر، فصل خامس، لم نتعلّمه على اللوح الأسود في المدرسة مع الفصول الأربعة، لاهو شتاء ولاهو ربيع ولاهو صيف ولاهو خريف، وأكاد أنكر الفصول الأربعة وأؤمن بفصل خامس هو « فصل الحقيقة » وأكاد أنكر الجهات الأربع، شرق وغرب وشمال وجنوب، وأكاد أؤمن بجهة خامسة هي « جهة الحقيقة ».

وينبت الغصن، وأنبت أنا من ضلع شجرة أكاد أسمّيها « شجرة الحقيقة » تقع في أرض تفصل بين عام وعام، وتورق وتزهر في زمن يفصل بين ثانية من عام رحل وثانية من عام يأتي. ثمرها، كثير كثير، طيّب طيّب، مثير الشكل والطعم والرائحة واللون والملمس.

الثمر منك أنت، مني أنا، منه هو، منها هي، الثمر يتغذّى من شريان الروح، الثمر من الشجرة والى الشجرة يعود. الثمر نحن والأكلة نحن.

وينزل الثلج، وتدقّ الأجراس، وتغمرني محبة المسيح والمسيحيين من

أصدقائي وأقرب الناس الى قلبي، وترتدي الدنيا « ثوب الفرح ». في هذا الفصل بالذات، كتب المسيح عليه السلام، رجل السلام الحقيقي أعظم الكلام. انّ هذا الفصل الخامس هو المحرّك الأول للكلمة. والفعل كلمة في البدء. وبين ولادة المسيح وولادة عام جديد أيام، ويرتجف عقرب الساعة رجفة النشوة معلنا قمّة الحب لعام أعطى أقصى ماعنده. وفجأة تذوب الأسطورة، ويصحو السكارى من نشوتهم بالمطر. ويذوب الثلج. وتذوب الشجرة التي تسكر بالمطر، وتهرّ أوراقها على أوراقي البيض، كلمات كحلية اللون، أللمها بحنان، بدهشة، بتوق، بقدسية. أرتّبها في حقيبة السفر، أحملها بكلّ ثقلها وعظمتها. أحتمل وزنها النوعي، يصفّر القطار بحدّة، أصعد درجات القطار بوثبة نشطة إثر وثبة، أدخل العربة رقم / ١ /، أجلس بفرح على المقعد الوثير لقطار المجهول، أبتسم. لقد سبقني رفيق السفر. راكب تقليدي، حجز بطاقته قبلي، لايرحل الاّ معي، ولا أرحل الاّ معه، يأخذ عنّي بأدب جمّ حملي، كنزي، ثروتي، عمري، حقيبة الأيام.

ويضعها على رفّ القطار بتؤدة وعناية، هو يعرف أنّها ملأى بالأوراق العظيمة الملونة بالأبيض والأخضر والأحمر والأسود. هو وأنا نحبّ اللونين الأبيض والأخضر. أنظر في عينيه. ترى هل يملك — مثلي — غير العينين الخضراوين، عينا ثالثة سحرية كعلاء الدين، تدرك وحدها أنّ أصل الحقيبة شجرة وأنّ أصل الشجرة مطر وريح وثلج وليل ونهار وأمس وغد وعقل وقلب وحب ولاحب وموت وحياة ورجل وامرأة وطبيعة وطفل وطين ونجوم وقطة وبنفسج، وقلم وورقة وسؤال وجواب ...!!؟؟

ربّما ... ربّما .. أنا لاأدري ؟

اسألوه . اسألوا رفيقي في رحلة قطار العمر .
اسألوا الأمل .

أنت يامن وجهّت السؤال !! أجيبك : اسأل الأمل . انّه وحده القوّة السحرية التي تلغي عنف اليأس في حياتنا المقبلة ، وعنف التناقضات . الأمل هو الديمومة .

الأمل ، هو الشمس المشرقة في ــ الفصل الخامس ــ من مشرق الذات البشرية . وهو وحده القوّة الدافعة الى الأمام بعيدا عن هوّة اليأس والملل .

هو العربة المجنّحة تحملني هذا العام من مطار ــ الفصل الخامس ــ نحو الكينونة . يجرّها نحو الغيوم والذرى طائر أبيض للروح والتفكير ، وطائر أسود للمادّة والرغبة . والحوذي هذه المرّة ياصديقي انسان مجنّح بجناحين :
جناح الحكمة وجناح المحبة .

المطر قالت لي :
كي تمرّ العربة بسلام عند بوّابة عام ١٩٧٨ ، على الحوذي الماهر الطيب أن ينفض جناحيه ممّا علق بهما من غبار العام الذي رحل .

**من أوراق الشتاء كانون الأول ١٩٧٧ .**

۱۹۷۸

# السنوات السبع

في ربيع الشام والزهر يعطر الغوطة ونفسي. في ٢٤ نيسان ١٩٧٨، بدأت قصة العشق الخطير، «عشق السنوات السبع»، وكانت «الأوراق الرومانسية»، اتّحد فيها الحبيب بالذات بالوطن بالطبيعة بالكون بالمصير، فكان هو بطل الآه.. يا أنا..!! هو النبع والنهر والبحر. هو تيار العشق وسعادة الوعي. هو البدء وهو اللانهاية.

الشام في ربيع ١٩٧٨

سهام

# أنا... في مهب الريح بلاخيمة

أنا في مهبّ الريح بلاخيمة ..!!
أنا تحت زخّ المطر بلامظلّة ..!!
أنا أغادر السكون، أرحل الى مواطن الخطر ..!!
أنا مصوّرة للطبيعة الثائرة .. بلا كاميرا بلاورقة مهمة ..!!

كيف يحدث هذا ونحن في عزّ الربيع ..!!؟

كلّ شيء كان ساكنا وفجأة غضبت الطبيعة. من قلب الربيع وعمق غابة الزهر الفتي جاء الشتاء العنيف متوّجا كالملك بالريح والمطر، ليطيح بصولجانه بأطفال الزهر الملوّن وهي تتأرجح على قمم أغصان الشجر بفرح غامر. خاف الآخرون على موسم الزهر والثمر، لم أعاني معاناتهم، لأن أزهار المطر والريح بدأت تتفتّح على أشجاري الأسطورية.



ولكلّ زهرته، ولكلّ ربيعه الذي يحرّك فيه حسّ الحياة وغريزة البقاء وعطر زهرة لقاء المطر بالتراب هو عطري الأكثر نفاذا الى صدري ورئتي، عطر زهرتي الغريبة، التي تبعث في عروقي ثورة الحب والحنين الى الحياة.

تعاملني الطبيعة بشكل مختلف، علاقتي بالطبيعة في فصلي الخريف والشتاء، حقيقة ماديّة ثابتة لافائدة من نكرانها وإلغائها بتهمة الرومانتيكية في عصر المادية.

عندما يأتي التاسع من أيّار موعد نشر اعترافاتي، قد يسود الربيع، وتسيطر السماء الزرقاء، ويحكم الطبيعة قانونا الشمس والبلادة، وقد يصبح كلامي عن الريح والمطر جزءا من الماضي، ولونا من المذكّرات.

الاّ أنّ الحاضر الماطر البارد العاصف الغائم الثائر قد سيطر عليّ وساد، إنه من لحم ودم.

وعندما سحبت ورقة من أوراق الربيع البيضاء لأكتب عليها اعترافاتي أمام كاهن الشتاء عن حالتي في يومي ٢٤ و٢٥ نيسان، الهاربين من كوانين، كانت كلماتي تصوّر الطبيعة الهائجة الباردة بحرارة متوهجة.

دخلت من باب الادارة صباح ٢٤ نيسان ووقّعت على دفتر الدوام، ودخلت مكتبي ببراءة، وأنا أجهل ماينتظرني من مفاجأة تختبىء خلف الجدار المجهول فتحيل سكوني وسكينتي الى ثورة لاهبة وقلق مشتعل.

بعد أن شربت القهوة المرّة، وقعت في حضن الطبيعة المجنونة، استسلمت لها كالمنومة مغناطيسيا بلا أدنى مقاومة.

وبكلّ هدوء مجنون هربت من النافذة العالية دون أن يراني « الحرس »، فالمطر قد أتى يناديني بلين ويأمرني بعنف أن أخرج اليه، لأتّحد به وأنزل معه الى الأرض وأتحوّل الى طين أحمر طري وأطعم من حبّات قلبي أطفال الشجر، وأستحيل نسغا يصعد في عروقها، وأمتدّ داخل قاماتها، أعاني معاناتها وهي تتعرض بوجع ممتع لعبث الرياح، أشاركها الطرب لموسيقى وأناشيد الريح وأوراق الصفصاف، أشاركها فرح الرقص يدا بيد مع بنات الحور والنخيل.

حفلة عظيمة كنت إحدى مدعوّاتها، كلّ شجرة مثلي، تتمايل تنثني تطيع، ثمّ تعود لتستقيم بكبرياء. تنادي الريح وتستعصي على الريح، تخاف تهديد القوّة المفاجئة الغامضة، تردّ التهديد بقوّة من قوتها الذاتية، تشكو من فرط قوّتها الذاتية، وتمدّ عنقها العاجي للريح، علّه يخفّف بعنف جوهره، من تفجّر قوّتها، علّه يتمكّن من تعديل عناصر الصراع في الذات الناعمة الرقيقة الصلبة العنيدة.

الاثنين ٢٤ نيسان.. غادرت المكتب خلسة، وتمّ اتّحادي بالمطر، وصورت ذاتي ذاتها عندما صارت المرأة مطرا وطينا وزهرة نديّة شتائية خرافية ذات عطر ترابي آسر.

الثلاثاء ٢٥ نيسان.. غادرت المكتب مررت من زجاج النافذة، وتمّ اتّحادي بالريح وصارت العاصفة عاصفتين، وسجّلت ذاتي صوت ذاتها الهادر كالرعد، المهدّد كالقدر، وأخذت ذاتي دور الريح. دقّت بعنف أبواب ونوافذ ونفوس الآخرين، أخذت تلوي بلا رحمة قامات الشجر، وتقلق

بلاشعور بالذنب سكينة النيام في المدينة النائمة في عزّ النهار ، تحرّك مشاعرهم الراضية المستسلمة لموكب الربيع الهادىء المبشّر ببلادة وسكون حركة الطبيعة في الصيف المقبل .

الأربعاء ٢٦ نيسان .. عدت الى مكتبي كالشبح ، مررت من زجاج النافذة دون أن ينكسر ، مبلّلة بالمطر ، مسحوقة بعنف العاصفة ، مذهولة بحقيقة التجربة . تسللت عائدة الى كهفي الرطب ، فأنا من الزواحف المنقرضة التي تختبىء في الصيف وتنام ، وتظهر في الشتاء وتتوالد وتتكاثر .

قوية أنا .. أحبّ الشتاء لأنه أقوى مني . هو الوحيد الذي يعيدني الى مكاني الطبيعي وموقعي الأول في حديقة الضعف والرقّة جارية بين الجواري في قصر القوة والجاه والرجولة والذكورة .

ضعيفة أنا .. أحب الشتاء لأنه فارس حقيقي يطير بي على ظهر جواده الأشقر عابرا صحراء القلق الى واحة السلام .

منذ طفولتي الأولى العفوية وأنا في حوار مع الشتاء .

أمي قالت لي مرة : ولدتك في الشتاء والثلج ينزل يغطي الشام . ولدتك ياأمي في الشام في حي « العمارة » في قاعة بيت عربي بارد قرب الطاحونة !!

ربّما كان لقائي مع الحياة في اللحظة الأولى هو سرّ علاقة التوأم بيني وبين الشتاء .

ومرّ العمر ، ومازلت أمدّ رأسي من نافذة عربة الحياة ، أعرض وجهي

وشعري وعقلي للريح بارادتي ، أتحدّى زجرة الطبيعة لأتحرّر من هدير الذات . فارس لفارس .

أقارن الصورتين ، صورة الطفلة المتميّزة المتمرّدة ، وصورة المرأة المختلفة المتمرّدة ، وتدهشني المطابقة .

الطفلة الصغيرة ، تلميذة مدرسة زبيدة الابتدائية في طريق الصالحية ، ترتدي الصدرية السوداء والياقة البيضاء ، في منتصف رأسها تهتزّ شريطة حمراء تمسك شعرها كعرف الديك . في يدها حقيبة تضمّ الدفتر والقراءة والحساب والسفينة واللوح الأسود والطباشير الملوّنة والقلم الرصاص والمحّاية والمسطرة . في جيبها المنفوخ خليط من الحبلاس والقضامة والزعبوب . في رأسها مجموعة أوامر وتهديدات الأهل والكبار والمعلّمات ، وتعليمات التقاليد وآداب السلوك في البيت والمدرسة والطريق . في قلبها فرح غامض ، لأن جرس الانصراف ذلك اليوم سيحمل الصغيرات الى البيوت تحت مطرة خيّرة لم تعرف دمشق لها مثيلا منذ سنين .

الصغيرة القويّة من الداخل ، الضعيفة من الخارج ، تقرّر أن تعلن ذلك اليوم وحدة الشخصية بين الاثنتين ، تصل الى اللحظة التي تذوب معها كلّ مخاوفها من تهديد الأم وتهديد المعلّمة بالضرب والحبس في « بيت الفيران » ، مدهون جسمها بالدبس !!

لامفرّ من التحدّي .

تحت « المزراب » الشهير الملاصق لمدخل المدرسة ، النازل من

أساطيح الجيران كشلاّل بلون الطين على الرصيف، المهدّد ثياب المارّة بالبلل العظيم.

تحته تماما تقف الصغيرة أنا بكلّ هدوء القرار، تفني القوة بالقوّة، تقتل الحرارة الداخلية للطفلة بالبرودة الخارجية للطبيعة، تقضي على الخوف بمجابهة أقوى قوى الطبيعة، المطر. مزراب المطر.!!

وينتهي الأمر، وترتاح الصغيرة لشعرها المبلول الملتصق برأسها المتعب، لملابسها المبلولة الملتصقة على جسدها الثائر، وتتأكّد العلاقة الحتمية الجدلية. بين القوّتين العظيمتين، قوة الانسان وقوة الطبيعة، حركة الحياة في الانسان وحركة الحياة في الطبيعة.

وتدهشني المطابقة !!

الطفلة المتمرّدة، هي هي نفسها المرأة المختلفة، هما أبدا في حوار دائم مع الشتاء.. مع الطبيعة تحت البرد والثلج والمطر والريح.

في شهر نيسان ١٩٧٨ ... المرأة المختلفة تكتب:

هربت نفسي من نفسي الأولى من الدوام ومن الكرسي والمكتب لترصد الحقيقة في حضن الأرض قرب النهر، نهر بردى حين كان نهراً عظيماً يوماً في طفولتي.

وهربت نفسي الثانية من الزيف والمدينة الى قمّة الجبل والى عمق الغابة والى حلكة الليل والى صومعة الانفراد، كي ترى الحقيقة في عزّ النهار، لحظة لقاء حبال المطر بالأرض. المطر الواصلة أبدا بين السماء

والأرض بين الله والانسان. بعيدا عن مواطن الضياع، في قمّة من الصوفية تشرف على البحر اللامتناهي. عاشت نفسي الثانية لحظة القرار. قرار الارتماء في أرض الحقيقة.

بحث ديوجين عن الانسان في عزّ النهار وفي يده قنديل.
وبحثت نفسي عن الانسان في عزّ الشتاء وفي يدها قنديل.

والجنون هو الاسم الحتمي لديوجين ولي. وتقلّب الطبيعة صفحة من كتابها الخالد. وينحسر الغيم الرمادي الواقع بين الأسود والأبيض، وتطلّ الشمس ضاحكة، وينتشر الأزرق، ويسافر الريح، ويرحل المطر، ويستحيل الطين ترابا، وأتبخّر من نقطة مطر وموجة بحر، وأعود لأحمل شكل إنسان، ويتحوّل انشادي من صفير الريح الى صمت الانسان، وأمتطي ظهر موجة الريح أطير ببطء كسلحفاة بجناحين. من زهرة على رأس شجرة أنتقل الى ماضي، أعود أحمل شكل امرأة، جوهر امرأة، أدخل عبر الذاكرة الى كهفي الرطب بعيدا عن الصيف الجاف. أنام ستّة أشهر وأنا أجترّ ذاتي النديّة على أمل قوي بحتمية العودة والظهور في عمر مقبل، في أرض ما، في زمن ما، على صورة الريح ومثال المطر.

أعترف.
لم أطلب إذن مهمّة بالخروج والتصوير. فماذا أقول:
هل أقول أريد أن أخرج من النافذة لتصوير الذات تحت المطر بلا مظلة، ولأطير كريشة في مهبّ الريح بلاخيمة..!!؟

**من أوراق الربيع ٢٤ نيسان ١٩٧٨**

# الوردة السوداء

عندما يرحل النهار، وتأوي الشمس الى سريرها الذهبي لتلتقي بنفسها وتستعيد وحدتها وانفرادها بذاتها، وتمارس مع نفسها لقاء رائعا كلقاء الانسان بذاته، بعد نهار من الفراق، شعّ فيه على الآخرين، وآن له كالشمس، أن يشعّ من نفسه على نفسه.

أصحو من نوم النهار، من ليل النهار، مشرقة الأسارير، نضرة شاعر، لأستقبل صديقي الليل بمحبّة بفرح بلهفة، استقبالا يليق بمقدمه، بزيارته، باختياره.

من منّا يختار الآخر مسكنا له، لست متأكّدة.

الليل هذا الكائن العظيم المنتشر في أبعاد الوجود وفي أعماقي يسكنني بعناصره الرائعة بوحشية آسرة، يتخذني كوخا له بالقوة، وأستسلم له بطاعة



لانهاية لها، وأمنحه كلّ ضعفي وكلّ قوّتي، وكلّ انتباهي وكلّ ذهولي. تنتشر ملائكة الليل في كلّ زاوية منّي. في الليل أرى اللامرئي، وفي الليل أطرب لسيمفونية الصمت، وأنعم بنوم الآخرين وغياب الآخرين، وسكون وسكينة المدينة والآخرين. ويبقى الليل لي وحدي وربّما لقلّة من أمثالي من طيور الليل النادرة في الطبيعة.

في داخلي يرفرف طير الليل الأسود الشفّاف المنقرض من عصور سحيقة، يحلّق من أعماقي الى سماء العصر المشعّة، محاولا الطيران في سماء المستحيل.

دائما على نقيض الآخرين أعيش وأحسّ وأحبّ وأفكّر وأتصرّف، وعلى شاطىء النقيض، الليل، ألقى سعادتي وأنصب خيمتي. وفي كلّ ليلة أعيش عمرا متميّزا متكاملا، ومامرّ من الليالي هو عمري الحقيقي، لو أراد أحد أن يسألني عن عمري، الليل هو عقلي المتفتّح، هو فكري المتألّق، هو ضميري المتأجّج، هو الوجد الموجع. هو سطوري المكتوبة. أمّا النهارات التي مرّت فلم تفعل الاّ أن تضيّعني في دروب الضوء والحرّ والضجيج والثرثرة والأكل والشرب والبلادة والسطحية، والسفسطة. أمّا النهارات التي مرّت فلم تفعل الاّ أن تحرمني من المعرفة بوضوح. وفضل النهار عليّ أنّه عرّفني بقيمة الليل.

على النقيض أعيش.

ليلي هو الحقيقة.

نهاري هو الليل .

ربيعي هو الشتاء .

زهرتي المفضّلة زهرة الثلج .

مع هبوط الليل ، يبدأ صحو الفكر عندي ، وأرى ذاتي . وجوهر الأشياء ، وحقيقة المواقف والناس أدركها ، أراها عارية على حقيقتها رغم ظلام المرايا ، وعتمة الجدران ، وغياب الأشياء المحسوسة ونوم الأصوات الاّ صوت الفكر .

في نيسان .. تتفتّح الحرّية ، ويتفتّح الزهر الأصفر والأحمر والأبيض ، وتخضرّ الأوراق في ربيع الغوطة ، وتزداد السماء زرقة ، والبحر يصير أمواجا من الفضّة الخالصة ، وقاسيون قطعة من الشمس الذهبية ، وبردى يستحيل دواة جارية من الحبر الطيني ، نهرا بلون دم الأرض ، تغري الأقلام الجافّة العطشى بالأخذ والعطاء .

ويظلّ قلمي طفلا متمرّدا رافضا عنيدا لأملك السيطرة عليه . يرفع كتفيه أمام هذا الجمال الربيعي الصاخب النازل على الأرض من قوس قزح يرفض الكتابة عن الزهرة البيضاء الزهرة المتوفّرة ، فهو يحلم بزهرة بلون الليل .

لاشيء . لاشيء يشدّني الى ساحة المعرفة ، وراحة اليقين ، وسكون القناعة ، واشراقة الابداع ، ولحظة المتعة الروحية وذروة النشوة الفكرية الانسانية ، الاّ المستحيل .

لاشيء في يدي يرضيني.
أريد المستحيل.
أهرب من النهار الى الليل.
أهرب من الأنس الى الجنّ.
مازالت حدائق الليل.
مازالت سهوب الليل.
مازالت جبال الليل.
مازالت وديان الليل.
مازالت غابات الليل.
مازالت محيطات الليل.
مازالت أفلاك الليل.

مازالت كلّها تستقبل خطواتي المتعثّرة وخطوات العصا في يدي بحثا عن زهرتي الضائعة، عن قمّتي المستحيلة، وعن وردتي السوداء، ولن أشمّ بنهم حتى الموت الاّ عطر الوردة السوداء.

الوردة السوداء...!!؟ نعم. ومالغرابة !! تقول الأساطير، وتقول أخبار الرحالة، أنّها ليست وردة مستحيلة، ومثالا لاصورة له على الأرض. انّها ممكنة. انّها زهرة طبيعية موجودة فعلا في القارّة السوداء ميزتها الأساسية الندرة لا الكثرة.

في مجاهل غابات قارّة أفريقيا السوداء ذات القلب الأبيض في تشرين، أبحث عنها ياأنت تحت عوامل الخطر المميت، تجدها رائعة

الجمال، مذهلة السحر، تنساب الى وجدانك كصوت زنجيّ دافىء دفء الدماء الحارّة في الشرايين الفتيّة. يغنّي لك أنشودة الحرّية. وردة الليل أبحث عنها بحذر حتى تصل إليها وتقطفها بمتعة جديدة. لابدّ أن تتعرض لخطر النباتات الأفريقية الوحشية التي قد تمتصّ دماءك من بشرتك بلارحمة، ولسموم الحيّات الضارية القاتلة المختبئة بين حشائش الغابات العملاقة وفروع أشجارها الكثيفة..!! وقد تلتفّ حولك وتقضي على آمالك في الوصول!! وقد يساعدك الحظ المطلي بشجاعة الفارس فيك، وفضول الرحالة، وصبر الباحث، وطيبة الانسان، وتصميم العاشق، وترفع بلمسة يد حذرة أوراقا ضخمة لنباتات غريبة. وتحدث المفاجأة، وتسعدك حتى الاغماء شهقة الجمال الوحشي النادر الآسر للوردة السوداء، في مكان ما من قلب الليل الأفريقي الأخضر الحار الرطب، تشرئبّ بكلّ مافي الورد من كبرياء. نضرة متوثّبة متفتّحة بعنف وشهوة وتمرد وعظمة وعلوّ، تعادل كلّ ماقد بذلته في طريق العمر، كعلاء الدين، من عناء الانتظار، والبحث والأخطار في عمق الليل على ضوء فانوسك السحري.

هل تصدّق يا أنت..!!؟
أمنيتي أن أعيش هذه التجربة.
ولاأكاد أصدّق أنّها ممكنة.

وأتمنّى لو أتحوّل الى طائر من طيور الشمال القطبي الثلجي، يشترك في رحلة الشتاء مع بقية أفراد القافلة المسافرة المهاجرة الى موطن الشمس، الى خطّ الاستواء الملتهب، كي أغيب وأنصهر في حمى البحث، في ليل الصيف الأفريقي الحار بحثا عن رمز المستحيل، هربا من صورة الممكن

المتحقّق المتوفّر، شوقا الى سكون القناعة الانسانية المتمثل في الوردة السوداء الممكنة المستحيلة، يصعد النسغ الحار الأسود الى شرايينها يغذّيها بشراب الليل، يمنحها التفرّد والتميّز والديمومة والأبدية، في ذات بشرية ضعيفة قدّر لها قدر معاكس، أن تعشق الليل دون النهار، والشتاء دون الربيع، والجنّ دون الإنس.

أعيش على شاطىء النقيض.
وأسبح في بحيرة الليل.
وأسامر ملك الجان تحت الأرض.
وأعيد تركيب الموازين السابقة على طريقتي.
وأحبّ مالايحبّ. وأقف في غير المحطّات الرسمية على أرصفة قطار العمر..!!

هذه مسألة تنبع من حرّيتي، من انسانيتي المطلقة.

يا أنت.. هذه نقطة هامة يجب أن تتعرّف عليّ من خلالها.. قبل أن تسأل هل يقع بيتك في الشام القديمة أم في الشام الحديثة !! هل أنت رجعية أم تقدّمية !! هل أنت مع الشعر القديم أم مع الشعر الحديث !! هل أنت معي.. أم أنت مع المجهول !!

بيتي يقع في الشام. والشام شام. لاقديمة ولاحديثة. وقلبي يسكن الطبيعة والطبيعة بشرية، لاجبل ولاانسان. انّها عندي انسان وجبل معا. وأنا مع الانسان، لامع المعلوم ولامع المجهول. لامع الأسود ولا مع الأبيض. من حبّي العظيم للانسان أحبّ الله والحرّية والأرض والشعر والزهر والنغم.

ومن حبّي العظيم للّه للحرّية للأرض للشعر للزهر للنغم، أحبّ الانسان. مفهوم ! ويظلّ لي تفرّدي. ويظلّ لي طبعي. آخذ في النهار لأعطي الورق في الليل.

وأنا أصحو في الليل لأكشف عورة النهار.

ويظلّ قنديل الزيت في يدي بحثا عن الوردة السوداء، التي سأصعد من أجلها الجبال، وأجتاز البحار والغابات، وأقهر الوحوش والحيتان والغيلان والساحرات، وأنير بفانوسي السحري ظلمات الكهوف، وأجتاز عظام هياكل الضحايا قبلي بلاخوف، وسأقطف الوردة السوداء وأزرعها ثانية في بيتي.

قال: ...

قالت: على هذه الأرض الممتدة بيننا، ومنذ عصور سحيقة. نبتت أول وردة سوداء، ونبت عشقنا لمبدأ الورد الأسود النادر، ومبدأ الشعر، ومبدأ الحرية، ومبدأ الانسان. ونبت شوقنا ووجدنا لصور المستحيل والمتعب.

قال: ...

قالت: ياأنت.. الفولكلور أنا وأنت..

الشعر أنت وأنا. الحرب أنت وأنا. السلم أنا وأنت. وأنت وأنا فينا يكمن الليل والنهار، القديم والحديث، السلب والايجاب، النعم واللا، الماضي والغد. ومن أرض علاقتنا التاريخية سوف ينبت برعم الوردة المستحيلة الوردة السوداء. وتستمرّ الأشياء وتستمرّ الرموز.

قال : من أنت . . .!؟

قالت : أنا جنّية الليل .

قال : شيء غريب يشدّني اليك . أعترف يجب أن تموتي . سأحفر قبرك بيدي ربّما أرتاح منك . فأنت امرأة غير طبيعية . وغير الطبيعي يجب أن يموت .

قالت : أنا نصف انسية ونصف جنّية . طبيعتي ليست خالصة !. يختلط فيها المستحيل بالممكن ، الليل بالنهار ، والروح بالمادّة ، والماضي بالحاضر ، والوهم بالحقيقة ، والغناء بالبكاء ، والابتسامة بالدمعة ، والحياة بالموت ، والفناء بالخلود . في داخلي دخان كغاز المناطيد يرفعني الى السماء ، وأحجار من الصوان تشدّني الى قاع الكرة الأرضية ، الى لبّ الأرض .

والى جانب شرايين الدم ، تسري بشكل سرّي أقنية الروح عندي . فهل يمكنك أن تتصوّر . .؟!!

أهرب من هذه الجزيرة العجيبة الى أقاصي الدنيا ، وعد كاوديسيوس الشجاع الى « ايتاكا » الى مملكتك الأصلية . عد الى حبيبتك الأولى « بينيلوبي » عد الى جواري « ايتاكا » الحسان . فهنّ طوع بنانك ، وهنّ جوهر النعم . وأنا ابنة المستحيل وجوهر اللاّ . واياك اياك أن تبحر باتجاه شواطيء جزيرتي .

ايّاك ايّاك أن تعبر الجسر الممتد بين أرضك وأرضي ، ولسوف تندم إن تفعل ، ولن تعود بشرا ذا طبيعة خالصة .

ولسوف تنتقل بعد أن تشرب من « كأسي السحري » الى شاطيء

النقيض إن تفعل. ولسوف تندم لو قطعت الجسر الخشبي المنحني المغطّى بشجر الدفلي المقطوف من « وادي جهنّم » المتفتّح بجنون بين عينيك وعيني. ولسوف تعيش مشاعر محيّرة إن تفعل.

يخنقك غيابي، إن غبت. ويحرّرك حضوري، إن حضرت. تمسكني، فتمسك الرمال. وتتركني، يرتدّ إليك المحال. أولادك، الحلم، منّي لن يكونوا إنسا ولا جنّا. أولادنا الحلم !! أتركهم يلعبون في حدائق عروقك وعروقي.

قال : ...
قالت : أنت إنسان حر.. فلاتعبث بحرّيتك معي.
قال : من أنت.. !!؟
قالت : اقرأ العنوان والتوقيع.

**من اوراق الربيع أيار ١٩٧٨**

# أنا في الجنة..
# أنا في النار.. !!

هي أبدا القصة الأبدية الأزلية .

قصة آدم وحوّاء، قصة الجنة والأرض، قصة الجنة والجحيم، فالحياة الأرضية للمحبّين هي حياة الشقاء الروحي المدمّر، وهي حياة الجحيم الروحي لمن يطلب الجنة الرَوحية وهو على الأرض. فالحبّ المعاصر، أرقام، لاقبل .!!

هي في العشرين من عمرها، وتطلّ عليه بوجه ابنة الأربعين، لأنّها تحمل قلبا ناضجا وفكرا مضيئا .

هو في الأربعين من عمره، ويطلّ عليها بوجه ابن العشرين لأنّه يحمل قلبا عاشقا وحرمانا عاطفيا .



ولمّا انصهرا في بوتقة الحب اللاهب، زالت الشوائب في الاثنين، وأحرقت ألسنة النار كلّ مافي الذاتين من عناصر الحياة المزيّفة الماضية في عمريهما، واختلط معدنها بمعدنه، وتعانق الذهب والفضّة، الاّ أنّ بعض شوائب الحياة السابقة ظلّت عالقة بمعدنه الأصيل ووقعا معاً في جحيم المستقبل المجهول.

الأعمار مختلفة، الظروف معقّدة، العلاقة أسطورية، الاّ أنّ المستقبل أصبح في قبضة الريح والمستحيل.

وبدأت تكتب في مفكّرتها، كلاما هامّا يلقي الأضواء على حالتها، ويجعلها حالة هامّة، تحوّلت فيها العاشقة الى كاتبة جديدة عبقرية. هي في العشرين، وتكتب كلاما وكأنّها في الأربعين.

كتبت في مفكّرتها تحت عنوان النار:

احترقت أناملي حرقا موجعا عندما أمسكت قطعة من الحديد لم أكن أعرف أنّ النار مشتعلة تحتها منذ ساعات.

ذهبت الى صديقتي في الليل، كالتائهة الهاربة من حريق كبير، وصلت اليها كتمثال من رماد يكاد يسقط، يوشك أن ينهار. أرفع أصابعي الثلاثة المحروقة المشوية. أنشد الراحة، البلسم المستحيل. أعطتني دواء نادرا يبرّد الحرق ويشفي الحروق بسرعة، ودهنت حروقي وأرجعت لها الدواء، وأصرّت أن أحتفظ به وأكرّر المعالجة حتى تشفى أناملي !!..

نظرت اليها، والنفس تائهة، والقلب واقع من مكانه وأعضاء الجسم

مفرغة من محتواها، والروح خاوية، وابتسمت بعين سوادها بلون الليل وبياضها بلون الدم ودمعتها تسبح دون أن تجرؤ على الانحدار بعامل كبرياء الارادة. قلت لها:

ياصديقتي: الدواء، دواؤك لن يعود اليك. لن يبقى منه شيء. المرهم سيطلي كلّ بشرة النفس المحترقة فأنا آتية لتوّي من قلب الحريق الكبير. ألا ترين بأنّ نفسي المحترقة قد خرجت لتوّها من الفرن، تائهة في الشوارع هاربة من ألسنة النار المشتعلة فيها وحولها..!!؟

الدواء لن يعود.

الحريق شامل. بيتي يحترق. نفسي تحترق. بشرتي تحترق. قلبي يحترق. عقلي يحترق. الصيف كلّه يحترق، والغد كلّه قد احترق في شمس صيف لاترحم ولاأحبّها ولن أحبّها، ولاأحبّ من يحبّها. مشكلتي أنّني أحببت عجوزا بعمر مدينتي اسمه نيسان. عتبي على نيسان الذي سلّمني الى حزيران. يالك من نيسان ربيعي رطب أتيت وغادرت في زمن أسطوري ليحلّ بي بعدك الخراب.

يانيسان لن أغفر لك رحيلك.

لن أغفر لك قدرتك على ممارسة العدل وقدرتك الكاملة على ممارسة الظلم، فقد رميتني في الحريق الكبير بدل أن تدفعني الى بحيرة باردة حولها غابة مظلّة رطبة، وفوقها سماء رحيمة منها ينبع المطر ويهب الريح.

يانيسان أنت النار وأنت الماء. أنت التناقض وأنت التكامل.

يانيسان، انظر جيّدا مافعلت بي، بنفسك الثانية، انظر جيّدا مافعلت بنفسك الأولى. انظر انظر جيّدا. انّ النار بدأت تشتعل الآن فيك وحولك، في مستقبلك كلّه لا في مستقبلي وحده. ألسنة النار سوف تلتهم كلّ أشجار بساتينك العبقة بالورود، وسوف يمتدّ الحريق، ويجتاح الاعصار كلّ ربيعك المغرور المقنّع بوجه انسان عجوز.

لاتلعب بالنار ثانية. ولتكبر دفعة واحدة منذ الآن وتصبح في عمر مئة ربيع، وليكن هذا الحريق الذي سيصهر كلّ الشوائب فيك سببا لشيخوخة رصينة مبكرة حقيقية تطلّ من وجه فتي يتمتّع بالحكمة والأتزان والرجولة قبل البدء بأيّة خطوة تجاه الحياة.

النار ... موجعة يانيسان.
بين نيسان وأيّار.
وحزيران وتمّوز..
هوّة تعادل الجحيم..

ولقد سقطت الأنا التي تحبّ الربيع من قمّة نيسان الى قاع حزيران بدفعة من يد الريح النيسانية العابثة، يدك العظيمة يانيسان التي تحمل شكل وردة بيضاء تنام بين شفتي كالملاك.

ويدك هي وسام معلّق على جسدك ونفسك. فلماذا حرقت الوسام بالنار؟..

انّي راحلة.. منك اليك. من ظلمك الى عدلك.

ولن تعطي رياحك الهوج بعدي مطرا ولاغيما ولاظلالا ولاأزهارا معطّرة مادمت أنا، مادامت الأرض التي تهطل عليها قد غادرت حياتك كالرمال المتحرّكة، مادمت قد سلّمت قدرك لوهج اللعب بالنار ولقانون الاحتمال.

قلت لن أكتب. وامتدّ الاعصار داخلي، واشتدّت الريح عصفا بي، وطارت ألسنة النار تلتهم الأخضر واليابس في حاضري ومستقبلي. وتزايد الدخان الأسود ورميت نفسي من نافذة النفس المحترقة على أرض الورق، وسالت كلماتي وحدها وبدأت أكتب وأنا لاأريد أن أكتب، وأخذت أكتب لأنقذ ماتبقّى منّي وهو رماد حار.

كان لابدّ أن أكتب حتى لاأختنق كلّيا بالصمت على حوادث الحريق، وحتى لاأختنق كلّيا بدخان الجحيم الذي وقعت تحت تأثير خدره باستسلامي الميتافيزيكي الرومانتيكي الساذج لجمالات الربيع الذي مرّ دون أن أتوقّع جحيم الصيف المقبل، دون أن أسمح لفلسفة الشك أن تستولي على عفويتي وفرحي بالريح البدوية القادمة من الصحراء العربية، الرحم الذي يأتي بالرجال. عندما دقّت يد الريح القادمة من صحراء الرجولة باب خيمتي في نيسان، فتحت لها خيمتي بلا ذرّة شك.

وقالت لي الريح:

هذا هو الخطأ البشري الأزلي ياصغيرتي. كان عليك أن تستندي الى مبدأ الشك حتى معي أنا.

وسقطت عفويتي وطفولتي وطيبتي في زيف العصر تعتمد فيه الفصول الأربعة مبدأ اللعب بالانسان.

عجوز ويلهو بقدر فتاة شابة. لم ؟ لم ؟ ويغور الجواب في الرمال المتحرّكة.

بين حجري الرحى تدور القصّة دائما.

بين حجري طاحونة الحياة تنسحق الذات البشرية الحسّاسة ببطء وصمت، وتتحوّل حبّات القمح تحت وطأة عناد الحركة الدائرية الدائبة الأبدية الى ذرّات صغيرة مستعصية على الرؤية مستحيلة على الملمس، منفلتة من ارادة القبض عليها، كالريح تفرّ بين شقوق الحياة، كالزئبق يهرب من انفراجات الأصابع، كالرمال تنهار تحت وطأة القدم، كالمستحيل يطير في فراغ العدم.

كالطحين تصير الذات البشرية الحساسة الطيّبة تحت وطأة قسوة الحياة ومفاجآتها.

لافائدة.

الحياة بين فكّي الحرب والسلام، فكي البعد والتواصل، فكّي الغضب والفرح، فكّي الكره والحب.

من حبة قمح الى ذرّات من الطحين يمر طريق التحوّل.

قبل حبّة القمح كانت هنالك سنبلة خضراء مشرئبّة العنق لمطر الشتاء والربيع.

وقبل السنبلة كانت الحبّة تسكن الأرض في عمق الطين الأحمر الرطب تتغذّى ببطء وسعادة داخل رحم الأرض، وترضع من أثداء الأرض حليب الطين الأحمر، تستعدّ للصعود الى سطح الأرض في عروق ساق السنبلة الأخضر، بسعادة كامنة غامضة كسعادة الجنين في رحم أمّه، وبرغبة كرغبته اللاشعورية في النزول الى سطح الأرض.

وحبّة القمح مثل الجنين تستعدّ للخروج سنبلة الى سطح الأرض.

وبين الطفل الانسان وسنبلة القمح موعد لقاء على سطح الأرض، أخضر. والعلاقة المصيرية للاثنين مع الحياة واحدة.

السنبلة ستصير حبّات من القمح، ثمّ ستحني رأسها لعاصفة قدرها، وتدخل بين حجري الرحى، لتتحوّل الى طحين ناعم ناعم. بعضه يصبح رغيفا ساخنا وبعضه يصبح غبارا يغطّي ثياب الطحان ووجهه ورموشه وأجواء المطحنة ويطير مسافرا بلاهدف بلاوعي في عدم المستقبل.

والطفل سيصير شابّا ثمّ رجلا ثمّ ذاتاً حسّاسة تمدّ عنقها لقدرها، وتنعصر بين فكّي رحى الحياة ببطء وصمت، ويصير رغيفا ساخنا شهيّا يأكله في كثير من الأحيان فم لايستحقّه، ولم يتعب في الوصول اليه، إغتصبه اغتصابا. يفتقده وينحرم منه فم جائع، وبحاجة قاتلة إليه.

تنطحن الذات البشرية الحسّاسة بين نقطتين قاسيتين وبين قوّتين غير متعادلتين، نقطة قاسية تضع علينا ثقلها كلّه وتجبرنا على الرضوخ لثقلها النوعي والكمّي وحقيقتها المرفوضة، ونقطة قاسية المعدن طيّبة الجوهر

تستقبل وجودنا بحنان وتضمّنا إلى صدرها بأسى ، الاّ أنّها دون أن ندري تسهم في عملية طحننا والقضاء على شكلنا الأصلي ، على أمل أن نغفر وأن ننسى أنّ جوهر القمح يظلّ في الطحين وأنّ جوهر الطحين في رغيف الخبز .

فلتطحن رحى الحياة ذواتنا الحساسة المحبّة الطيبة ، ولتمارس مهمة التحول ماشاء لها قدرها ، فنحن بين نقطتين : أن نريد مالاتريده لنا الحياة ، أن نحبّ ونمتنع عن الحبّ بارادتنا وكرامتنا ، أن نشتاق لمن نحب ونمتنع عن الشوق في لحظة زمنية واحدة ، هنا تصبح الأنا طحينا . تتوزّع فجأة بين قدرين ، أن تحب وتمنع نفسها عن العطاء .

وتضحك الحياة وتدور المطحنة ، تطحنني كما تطحن الجميع ، وهي تضحك . تطحنني وأتحوّل من حبّة قمح الى ذرّات من الطحين ، وأنا أبكي بعين وأضحك بعين . أنا انسانة تعيش الزمن الكاذب ، الزمن المضحك المبكي ، فالانسان فيه هو القمح ، هو الطحين ، هو الخبز ، وهو قد وجد لكي يؤكل ويتلاشى بين فكّي وحش الحياة الكاسر . يتقدّم الوحش من حبّة القمح ، وهو يبتسم . تبتسم له حبّة القمح ، بطيبة ، تعطيه نفسها يأكلها وهي تبتسم ، وتبكي بين حجري الرحى وهي تضحك ضحكا لو أنصتنا اليه جيّدا لاكتشفنا أنّه بكاء مرير ، تتردّد أصداؤه في أقصى البادية ، الرحم الذي يلد الرجال الذين لايكذبون ، والذين تطحنهم رحى الحياة فيضطرّون للكذب .

ياللزمن الكاذب ..!!

معادلة رياضية ثابتة : الكذب هو الجبن عن قول الحقيقة ، والكذب نقيض الرجولة ونقيض الأنوثة ، الكذب نقيض الانسان .

الكذب يعطينا متعة سريعة آنية صغيرة بالنصر ، ويحرمنا من متعة الديمومة الشاملة للسعادة .

الكذب أسود ..!!

الكذب أبيض ..!!

والكذب الأبيض موقف مؤقّت ، لمن لايجرؤ على قول الحقيقة المرّة الكاملة في وجه من يرفضها ويرفض صاحبها ويمنعه من دخول دائرة حياته . الكذب الأبيض يعادل سعادة لحظة لاسعادة عمر .

قد نتهم انسانا نحبّه ونثق به بالكذب ، وتحرمنا عواطف الغضب وخيبة الأمل فيه ، من التفسير الموضوعي لموقفه . قد يكون سكوته عن قول الحقيقة لحكمة في رأسه لاندرك أبعادها ، ولصالحنا ، الاّ أنّ النفس البشرية لاتحب الأمور المرسومة في العلاقات الانسانية ، بحيث تظلّ العلاقة بين اثنين ، علاقة أكبر وأصغر ، علاقة أغنى وأفقر ، علاقة أعلى وأدنى ، علاقة أجمل وأقلّ جمالا ، علاقة أذكى وأقلّ ذكاء ، علاقة ذكر وأنثى ، علاقة انسان غامض بانسانة سطحية . هو يعرف ، وسيمكنها ان تعرف عندما يسمح لها ان تعرف ، عندما يقرر ان تعرف مصيرها معه .

القوة يجب أن تكون في الطرفين واحدة ، وكذا الضعف .

السكوت عن قول الحقيقة يوقع الطيب المخدوع في براثن الهزيمة .

يندهش، يصعق، يرتبط لسانه، يتوقّف تفكيره، يهرب الدم من عروقه، تنهار القوّة من جسده، يسقط وجوده كلّه في هوّة الشعور باللاوجود، ان كان قد وضع كلّ نفسه الأولى في حضن آخر، اعتبره كلّ نفسه الثانية، كل جنته وسلام روحه وضمان مستقبله.

وعندما يسطع نور مفاجىء للحقيقة من قلب الطيّبة المقهورة، تبدأ أحجار البناء الكاذب بالتساقط والتداعي، حجر إثر حجر، ينهار البناء الأسطوري المزيّف فوق بعضه على الاثنين معا، الذي كذّب والذي إنطلى عليه الكذب، الذي سكت عن الحقيقة والذي رأى الحقيقة المرّة حقيقة حلوة خضراء كالخروف الجائع يرى الصحراء بستانا أخضر، ويرى السراب بحيرة ماء.

ويموت الذئب والحمل معا تحت أنقاض ثقل أحجار الحقيقة التي لايمكن أن تختفي الى الأبد، كلّ يوم ينهار حجر، وينكشف سر، وتظهر حقيقة جديدة، تضرب العين الطيّبة الدامعة بجدار كأنّه جدار الآخرة.

وتبدأ مأساة دامية داخل جسدين، داخل ذاتين، داخل قلبين، داخل مستقبلين، مستقبل رجل ادّعى أنّه قد أحبّ لأول مرّة في عمره حبّا متميّزا واضطّر للسكوت عن قول الحقيقة حتى لايفقد حبيبته، ومستقبل امرأة وقعت فريسة حبّ مختلف، لرجل أحبّها بعنف وفرض وجوده في حياتها، في زمن عزّ فيه الرجال، في حياته حقيقة مريرة وسرّ. أخفى عنها السر وأجل الاعتراف بالحقيقة، ووقعت هي في فم وحش الصمت الكاسر في الزمن الكاذب. كانت تعتقد، ببلاهة لا بطيبة، أنّ الدنيا مازالت بخير، وأنّ الأرحام تلد الرجال، انتظرته طويلا، عمرا..!!

وأتى ...
نزل عليها كالمطر، وعصف بها كالريح.
أتى كالخضر ليقتل التنّين الجاثم على خطّ حياتها..

هكذا رأته، وليس الذنب ذنبه، انّها نظرتها إليه أسقطتها عليه.

كانت تحلم به رجلا صادقا، فارسا كالقدر، رجلا بكلمة واحدة لاكلمتين، واحدة ظاهرة، وواحدة خفية، واحدة بيضاء وواحدة سوداء، رجل يعطي المستقبل ويسحب المستقبل في لحظة واحدة.

وفجأة يسمع السكان في الزمن الكاذب صوت انهيار كالرعد.

وتسمع صوت الانهيار داخليا وتفزع وتركض. تفرّ بين الأنقاض، تهرب من نفسها المردومة به الى صدره المبني بها، تهرب من الدمار الى العمار تتصوّره العمار ولكنّه الدمار.

هو الزمن الكاذب يسود.
هو زمن متعة اللحظة يسود.
وينقرض زمن الصدق كالديناصور.
وينقرض زمن الحب الكلّي.

هو الزمن الكاذب يسود كلّ السكان وكلّ الأفعال وكلّ المواقف وكلّ الكلمات، ويبقى الذين يحلمون بالصدق المطلق هم حيوانات العصر النادرة

التي يجب أن تنقرض فورا، حتى لاتربك قبيلة الكاذبين، لكونها كائنات كسيحة معطوبة الأعضاء دامعة العيون، مهزوزة الوجدان، مشدوهة الوجوه، لها أفواه مفتوحة عن آخرها كأنها تصرخ من مفاجآت الحياة بلاصوت.

المفاجأة قد تقتل صاحبها أحيانا بسكتة قلبية أو دماغية، وقد لاتتمكّن من قتله. والحياة هنا أصعب، أقسى، أمر.

انّها الموت ألف ألف مرة، انّها الموت حياة أو الحياة موتا.

الوقوع في فكّ الهزيمة بسبب الصدق العفوي المنقرض من عصور سحيقة، قد يسحب الصوت العذب من الحنجرة الى الداخل، وقد يصير الصوت نزيفا داخليا، دما ينسحب من الجسم، أحمر قانيا، يعادل كلّ الخسارة فيما تبقّى من فرح العمر.

قال لي: أنا أذكى منك ؟؟...
قلت له: صحيح، ولكنّني أكثر منك طيبة..؟
قال: صحيح..!!
قلت: لماذا كذبت عليّ..؟

قال: لم أكذب..!! لم أكن أتصوّر أنّك لاتعلمين تفاصيل الماضي في حياتي، وعندما اكتشفت مدى ذهولك وجهلك بي، انعقد لساني.

قلت: كم كنت مغرورة، تصوّرت أنّني كنت أعرفك وأعرف كلّ شيء عنك قبل أن تظهر في حياتي فجأة...!!

قال : أعترف الآن عرفت مدى براءة نفسك ، لاأصدّق . لاأصدّق أنّ واحدة مثلك موجودة في هذا الزمن ..؟؟!! من أنت ؟؟.. من أنت ؟؟..

قلت : أنا الأنثى الحقيقية التي ستضع رجولتك في الحياة أمام الامتحان العسير . أستعيد كلماتك كلمة كلمة ، منذ اليوم الأول بيننا حتى الأخير .

أنا الآن على مقاعد المتفرّجين في المدرج ولست كرة في الملعب ، قلبي الطفل العنيد يضرب يوميا بقسوة حتى ينام في سريره ويشرب زجاجة الرضاعة ، أضربه بيدي وأنا أبكي عليه ، فهو يسهر معي .. لايريد أن ينام . صوت العقل يسود . التناقضات تملأ كلماتك منذ أول يوم حتى آخر يوم . أفكّر ، أحلّل ، أبحث عن حل . الخط البياني لتطوّر حالتك النفسية ومواقفك معي في هبوط مفاجيء .. كيف !!؟.. لماذا ..؟؟

ما الذي يجعل الخضر تنّينا في هذا العصر ؟... لست أدري .. لست أفهم ..؟

عقلي يسأل ، يسهر ، يسأل . قلبي يبكي ، يسأل ، يسهر ، يسأل . عقلي وقلبي مواطنان يجب أن ينقرضا في الزمن الكاذب .

لقد تجاوز الزمن الكاذب هذه المخلوقات العجيبة التي تفرح بسرعة وتصدّق ببراءة وتحبّ بعفوية .

البراءة قتيل العصر النموذجي ..
يجب أن نعترف ونتوارى ..

أدور في الشوارع العريضة الحديثة . أنادي ...!!
أبيع عمري وأشتري لحظة صدق واحدة .
فمن يبيع .... من يبادل ...؟؟؟ ..!!!

**رسالة منه :**

حبيبتي ...

لاتحرقي دفاتر الذكريات ..
انّ فيها كلماتي الأولى ..
أنت بذرة الميلاد ...

شفاهي جفّت ... ودموعي ...

وسنابل القمح ..
جميلة مدينتك ..
وجميلة أنت ....

فمنذ التقينا نمت الأزهار .. بيننا ..

قلبي ... دمي .. بيت لك ...

عيناي ضياء لدربك ..
فأنت النازف من شرياني ...

ياوطني .. أنت .. ياوطن الانسان ...

يامدينة قبل المدن .. ياشاما قبل الشام ..
فالقسوة تمتدّ .. ويمتدّ الاعصار ..
حولنا ..
ورحلتان لي .. وأنت مع الرحيل ..
أحبّك أحبّك أحبّك

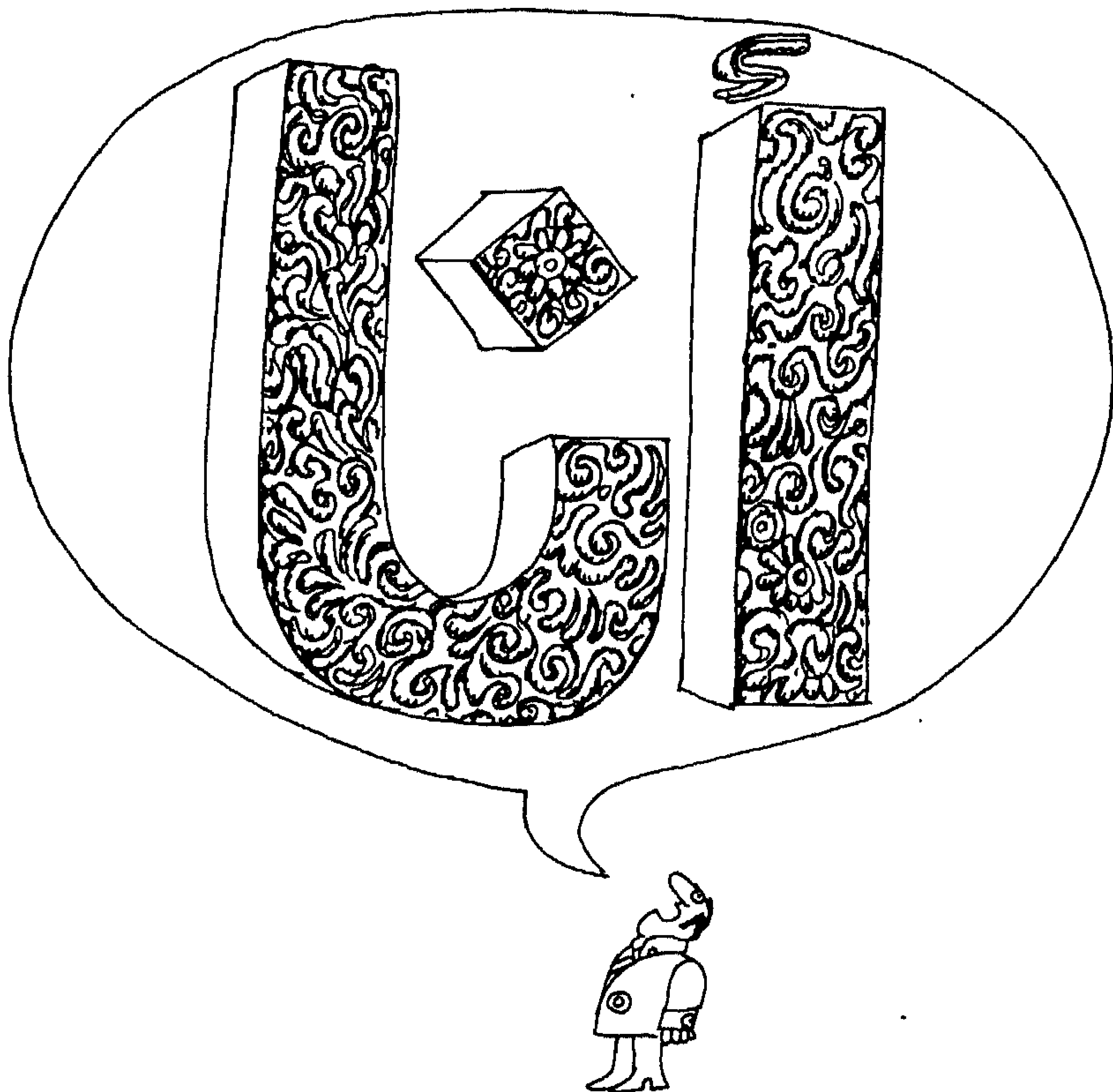
**من أوراق الصيف آب ١٩٧٨**

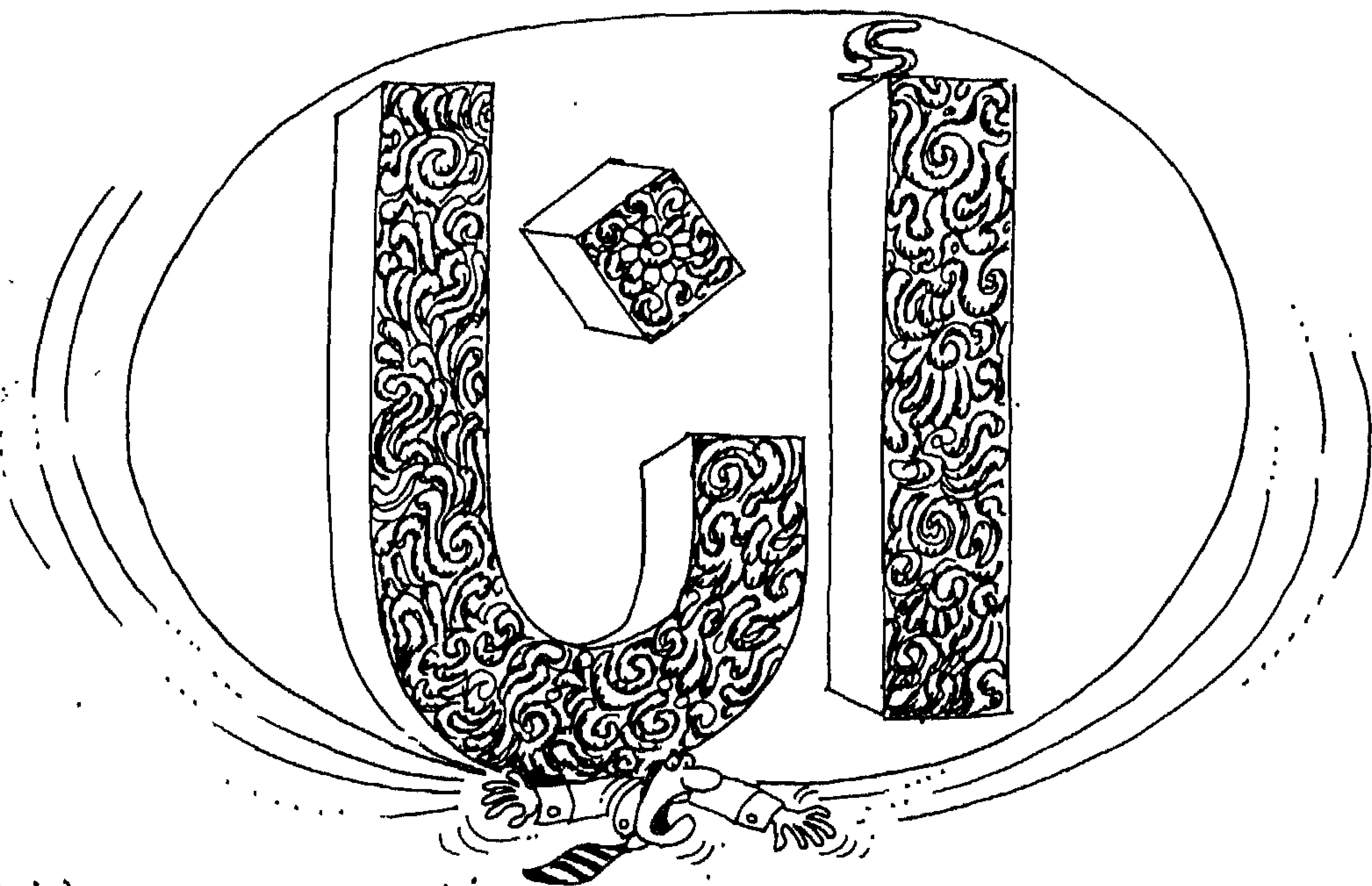
# أنا أضحك في هذا الصيف

أكتب لكم من خط الاستواء وأنا على وشك الاغماء. عفوا.. أكتب لكم من دمشق الشام.

أكتب من ــ طنجرة ــ الاستواء !!. النار تحت الطنجرة وحولها وفوقها. الشمس تحيط بي من كلّ مكان. أنا في ــ الطنجرة ــ والماء يغلي. أسمع دقّ الطبول وشياطين الصيف ترقص حولي طربا وفرحا وعلى رؤوسها قبّعات من الريش استعدادا للوليمة. أنا بحاجة الى طرزان وصديقته ــ شيتّا ــ الذكية، لانقاذي من هذا المغطس الحامي. عيناي زائغتان من الفزع والنار كعيني ــ ميكي ماوس ــ

أكتب من دمشق، عفوا أنا أكتب من أبو ظبي، لا، الحقيقة أقصد أن أقول أنا أبعث برسالتي المشتعلة من القاهرة، معذرة. الحقيقة أنا أكتب


أنا


أنا

من الكويت ، آسفة ، أكتب لكم من نيويورك في شهر آب . أف .. أنا أكتب من الشام .

يا له من صيف أكّد لي حقيقة الوحدة العربية ، مناخيا .

وكرّ شريط الذكريات وأعيده على طريقة ـــ البلاي باك ـــ ، وتذكّرت أول صورة للأرض التقطت من سفينة فضاء . لفت نظري زميلي الفنان الراحل نعيم اسماعيل لظاهرة أرضية مذهلة . أنظري .! وحدة الوطن العربي جغرافيا من الفضاء !!. الأرض كلّها مغطاة بالغيوم ، وخريطة الوطن العربي المعلّقة في المدارس والدوائر الرسمية بلون أخضر ، قد ظهرت هي نفسها من الفضاء بلون واحد « وردي » بسبب أنفتاح السماء العربية الواحدة للشمس . وكانت وحدة الأرض العربية في كاميرا عالم الفضاء الأمريكي وعالم الفضاء الروسي ، جوابا مادّيا علميا على حقّ القضية العربية في الوحدة العربية .

وجاء صيف ١٩٧٨ ليثبت الصورة على ميزان الحرارة وأجهزة الرصد الجوي . نحن في تموز ١٩٧٨ .

أشعر أنّي أكتب لكم رسالتي من خطّ الاستواء وقد غافل علماء الجغرافية ، وحمل أمتعته الساخنة ، وقرّر أن يصيّف في ربوعنا العربية عامة والسورية خاصة ، لأنّه أحبّ أن يأخذ الجنسية العربية هذا الصيف ، وأن يغادر الى حين الأراضي الأمريكية الجنوبية والافريقية والأندونيسية .

أمور لاتفسير لها تحدث للانسان أحيانا. يضحك في مناسبات الموت والحزن، وكان المفروض فيه أن يبكي مع أهل الميت..!!

يحلو له الوشوشة والثرثرة والضحك والكركرة في مكتبة عامة أو مكتبة جامعية يسودها الهدوء التام، ومن الأصول أن يكون جدّيا هادئا !!.

ومع أنّي على وشك البكاء من الحرارة التي وصلت في دمشق حتى ـ الخمسين ـ كما أظن، الاّ أنّ مارأيته وماسمعته قد جعلني أعالج الحرّ الشديد بالضحك. وكان الضحك طبيعيا عفويا لاباراديتي. كان صيفا مضحكا مبكيا بجد. وكانت في داخلي آلة تصوير تصوّر بدقّة. تصوّرني وتصوّر الآخرين. وأمسح الدموع والعرق وأضحك من كلّ قلبي.

انسلقنا وانشوينا واختنقت أنفاسنا وأرواحنا. بعضنا قاوم وكان عمره طويلا وانكتب له عمر جديد. وبعضنا كما يقول المثل الشعبي ـ سقطت ورقته ـ في حمّى تموز ١٩٧٨. وتضاعف عدد الموتى في دمشق، وسبّب ارباكا مسلكيا لموظّفي مكتب دفن الموتى فصرخوا مولولين في وجوه الأهل الحزانى:

ـ بالدور.. بالدور ياشباب !!

لاتكتبوا على النعوات ساعة التشييع فلانعرف متى نصل اليكم. غسّلوا الميت وحضّروه ومتى صار لدينا سيارة سنأتي لنأخذه..!!!

ـ ولكن ـ ياأخونا ـ الحرارة عالية جدا.. نخاف أن تطلع رائحة الميت.. أرجوك !!.

ـــ آسف .. هذا آخر كلام .

ولعبت ـــ الواسطة ـــ دورها ، ولعبت الرشوى لعبتها ، ودفن ميّت قبل آخر ، وقبل دوره .

وربطت رأسي .. ـــ ولي ـــ !!

ما الذي نسمعه !!! اللهمّ عافينا ، وأمتّنا في فصل الشتاء يارب العالمين !!!

وهزّ الناس المراوح : ـــ شوب شوب .. دخيل الله .. شو هالشوب .؟؟!!

والمراوح أنواع : مكيّفات ، مراوح كهربائية ، مراوح يد نسائية أنيقة من العاج والريش والخيزران ، مراوح يد شعبية من القش ، مراوح كرتون من العلب الفارغة ، مراوح من ورق الصحف والمجلات ، مراوح من بطاقات الدخول للمحاضرات والحفلات الرسمية كحفلة افتتاح معرض دمشق الدولي مثلا ، والفيلم الوثائقي في أرشيف التلفزيون يؤكّد صلاحية وفوائد المراوح الأخيرة للجمهور المدعو من الضيوف العرب والأجانب !!

من خلال العرق والدموع والعطش والأرق والسخط وترديد كلمة شوب ألف مرة ليلا نهارا فقط ، ولدت صور شعبية فولكلورية معاصرة ضاحكة تحمل أساليب ومخترعات الشعب بكافة فئاته لمقاومة الحر المرعب .

الحاجة أم الاختراع، واخترع شعبنا طرقا جديدة لتكييف الهواء، اهتزّت لها أوساط تجّار المكيّفات رعبا لأنها ضربت سوق البيع.

أبدأ بنفسي. المخترعة رقم ـــ ١ ـــ موظفة وكاتبة وست بيت.

في مكتبي. كنت تفتح الباب عليّ في تموز الماضي فترى التالي:
الأباجورات مغلقة، الستائر مسدلة، الأضواء مطفأة، الأرض تسوح بالماء. ولو كنت شديد الملاحظة لأدركت أنّ ساقية من الماء تخرج من تحت باب غرفة مكتبي الى الممر الذي يمرّ منها جيئة وذهابا زملاء وزميلات العمل.

المكتب في صدر الغرفة. أنا وراء المكتب كالشبح أكتب بكلّ جديّة. الى يميني على الأرض سطل ماء كبير. وظيفتي أثناء الدوام، بالاضافة الى التخطيط والتحرير والاذاعة، أن أرشّ الماء يمينا ويسارا. أسلّم عليك في يدي الواحدة سطل ماء، وفي اليد الأخرى قلم. تحاول أن تصافحني أمدّ لك يدي المبلولة. لأعتذر.

في البيت أغرق الأرض والجدران بسطول من الماء الساخن القادم من البراميل على السطح اللاهب. لاأستفيد. تجفّ الارض ـــ بلمحة، يزداد البخار الساخن. أمسك باب البرّاد لأخرج زجاجة ماء بارد يلدغني كبصّة نار. أمسك كتابا لأقرأ وأنام، لاأقرأ ولاأنام. أقدح ذهني المغلق لأخترع طريقة أهرب فيها من النار. أتخيّل مطر الشتاء الحبيب، أبتسم وأنام في خط الاستواء وكأني في الجنة.

جارنا نصحني أن أفعل مثلهم هو وزوجته وأولاده. يسدّون ــ بلاليع ــ البيت، ويعوّمون الأرض بالمياه فتصل حتى أرجل الكراسي ــ الستيل الذهبية ــ لايهم. الطراريح والفرش والمخدّات يسقسقونها بالماء وينامون بارتياح وبرودة أو بوهم البرودة !!

في مكتبه الرصين في الوظيفة. اخترع جارنا الظريف طريقة جديدة أنشرها للتعميم لفائدتها.

ركّب جارنا فوق جهاز التكييف قطعة من التنك تعبّأ بالماء. ثمّ أتى بممسحة جديدة نظيفة طبعا، مثقوبة القماش بثقوب صغيرة كثيرة، وغرس طرفها الأعلى بالماء فشربته، وتدلّى طرفها الأسفل فوق وجه الجهاز. اشتغل الجهاز. الممسحة المبلولة تتحرّك، تطير مع هواء المكيّف، يشيع في الغرفة هواء بارد رطب.

صديقة عزيزة صيدلانية خابرتها زميلتها الصيدلانية الثانية تطلب النجدة. الحقيني سآتي إليك في الحال والاّ نفقت روحي من الحر !!. لايمكن. مستحيل. لاأملك القدرة على العمل !! تعالي تفضّلي. وتفضّلت. وجلست في مكتب زميلة ذات مرتبة أعلى، عندها مروحة في السقف. كانت تشدّ الى حضنها شنطة يد نسائية ضخمة !! تعانقها بشدة !!

ــ ضعيها جانبا حتى تنتهي الزيارة .!

ــ مستحيل.. لاأستطيع !!.

ــ غريب لماذا.. لماذا.. فيها مال !! أخائفة عليها !؟

وفتحت الشنطة لتردّ التهمة. وكانت مؤلفة من دروج معبّأة بقطع الثلج والفواكه المبرّدة.

وطقّت صديقتي ضحكا على أسلوب زميلتها في مكافحة الحر.

حلاّقة نسائية شابّة مرحة خفيفة الظل. تشاجرت مع شقيقها لأنّه يتّهمها بتوقّف البراد في بيتهم عن التبريد.

ــ وهل التهمة صحيحة ياليلى ؟؟

ــ صحيحة لأني كنت أفتح باب البراد وأضع رأسي داخله لعدّة دقائق، ثمّ أمدّ عنقي الى ــ بيت البوظ ــ لأتنفّس. رح موت من الشوب.. !! شو أعمل ؟..

صديقة ثانية ــ نقعت ــ شراشف أسرّة غرف النوم بالماء وعلّقتها على شبابيك البيت لترطيب الجو.

صديقة ثالثة أقسمت أيمانا معظّمة أنّها لن تفتح فمها بكلمة ضدّ برد الشتاء بعد هذا الصيف المزعج. التوبة !!

صديقة رابعة اخترعت طريقة لطيفة. كانت تبلّل خرقة كبيرة بالماء وتعانق بها المروحة الكهربائية. ثمّ تعانق هي الخرقة والمروحة، أوخ الحمد لله، ياعيني.. إجا هوا بارد !!

صديقة روت لي أن أسرة في دير الزور اخترعت طريقة عظيمة. لكلّ فرد في الأسرة داخل البيت برميل كبير. وفي كلّ برميل ماء وداخل الماء لوح

بوظ . وينزل كلّ فرد الأم والأب والأولاد كلّ منهم في برميله ويظلّ جالسا فيه لايظهر منه الاّ رأسه وابتسامته .

زميل صحفي من رجال المطابع يكره الحر، نام الليل والمروحة الكهربائية مسلّطة على وجهه، أفاق الى المستشفى رأسا بعد أن انشكل رأسه مع رقبته الى جهة اليمين .

أطفال الأحياء الشعبية الفقيرة وضعوا رؤوسهم تحت حنفيات الفيجة في الحارات والحدائق العامة، وسبحوا في بردى وبحيرات الحدائق بحرية مطلقة دون خوف من حراس الحدائق .

بائع متجوّل غطّى رأسه ببشكير مبلول وسار مناديا على بضاعته دون مبالاة بالشمس الوقحة .!

موظف محترم خلع حذاءه وجواربه وغطس رجليه في سطل ماء مخفي تحت المكتب وأخذ يمضي المعاملات الرسمية للمراجعين بكلّ وقار وارتياح .!!

رجل مثّقف يسكن ملحقا كأنّه جهنم الحمراء، سكن الحمام في البانيو تحت الدوش المفتوح فوق رأسه بلا توقّف طيلة بعد الظهر . في حضنه المبلول كيس من النايلون الشفّاف . داخل الكيس كتاب يقلّب صفحاته دون أن يتعرّض للماء . الى جانبه في طشت الغسيل المعبّأ بالماء، ابنه الصغير يلعب بالماء عاريا .

زميلة رقيقة حسّاسة تحبّ الصيف وتكره الشتاء. كانت ضدّي في نقطة واحدة . هي أنّي أحبّ الشتاء وأكره الصيف .

مررت على مكتب الزميلات. مددت رأسي ووجهي يحمل بالاضافة الى التحدّي اشارات تنبيء أنّي على وشك الاغماء.

سألت الصبايا ذوات الوجوه الشاحبة وراء الآلات الكاتبة:

ـــ من يحبّ الصيف..! من.! فليرفع اصبعه.؟؟

لم يرفع أحد اصبعه.

لم ترفع زميلتي صاحبة الصيف وصديقته اصبعها. ابتسمت وأخفت وجهها وعينيها وراء الآلة الكاتبة.

وزاد عدد الذين يحبون الشتاء ويفضّلونه على الصيف واحدة، ان لم أقل آلافا.

كانوا يقولون عن حزيران في الشام قديما بأنّه ـــ طبّاخ المشمش ـــ وأقول عن تموز حديثا بأنّه ـــ طبّاخ الناس ـــ.

عمري كلّه وأنا أكتب عن الشتاء والخريف أمجد الشتاء وأغازل الخريف، ففيهما يرتع شيطان الوحي والابداع عندي، وفيهما يتألق كيوبيد إله الحب ويتجدد.

وكانت وظيفتي في تموّز أن أبربر وأسوّد سمعة الصيف.

وكانت مهمّتي هذا الصيف الحار أن أستغل الموقف وأنشر الاشاعات ضدّ الصيف وغلاظة شمسه التي تبلد الحس والفكر وتشلّ الحركة. مؤيّدة كلامي بأنّ المطر والثلج والخضرة الدائمة والأنهار والبحيرات

هي سرّ تفوّق الغرب وسرعة نموّه عن ركب الشرق ، واضعة في حسابي احتجاجات من يملكون ورقة رابحة بأن أصل الحضارات من أرضنا العربية وصحرائنا العربية المغطّاة بالشمس .

وان لقيتني صدفة هذا الصيف الحامي المجنون وقلت لي مرحبا !! فعوضا عن أن أردّ فأقول لك أهلين مرحبا . أقول ردّا على التحية بصورة عفوية : يخرب بيت الصيف !!!؟؟ شوب . شو هالشوب .!!

سيدة محترمة مثقّفة وأم وجدّة من حماه تسكن دمشق قالت لي :
ــ لو كان للصيف أم وأب « لبكيوا » عليه .

أعوذ بالله . بدأت أبتسم وأنا أشعر بأنّ الحرارة بدأت تنزل وأنّ موجة الحر بدأت تنحسر ، وأنّ الصيف بدأ يجمع أمتعته ويستعدّ للرحيل في أيلول .

أمّا الذين يملكون المال والعزّ والجاه ، فقد هربوا الى ربوع أوروبا وعواصمها .

لحقت بهم الشمس العربية الى هناك ، رفضت أن تنزل عن خطّ الأربعين .

وضحك الفقراء .. لأنّ الشمس رغم ظلمها فهي عادلة .

**من أوراق الصيف تموز ١٩٧٨**


١٩٧٩

# المستحيل

نسيت قانون الجاذبية.

أحاول أن أتذكّر مسألة علاقة القمر بالمدّ والجزر. أحاول ايجاد معادلة رياضية بين القمر والمدّ والجزر على امتداد السنة، وبين قمر شهر نيسان وارتفاع البحر الى الحالة العظمى على شواطىء نفسي..!!

علماء الجغرافية يقولون لي: المدّ والجزر حركة يومية يرتفع فيها البحر وينخفض، وعند ظهور القمر يبلغ المدّ الحالة العظمى. وعند ترافق جاذبية الشمس مع جاذبية القمر يصل المدّ الى الأوج. في البحار المغلقة كالبحر الأبيض المتوسّط يصل المدّ في النهار حتى أربعين سنتمترا، وفي المحيطات كالأطلسي، والهادي يصل المدّ حتى ستّة أمتار.

ماذا يقول علماء النفس لو أخبرتهم عن المدّ والجزر في البحر الذي يحيط بي من الجهات الأربع..!؟



ماذا يقولون لو سألتهم قياسا رياضيا علميا عن الظاهرة النفسية الغريبة التي بلغ فيها المد، ذروة الأوج عند ترافق شمس النهار وقمر الليل والنهار، في شهر الربيع الذي يحمل كلّ تناقضات الطبيعة وكلّ مزايا الفصول، ويقدّم نفسه لي سفيرا فوق العادة عن الشتاء والربيع والصيف والخريف معا، فهو تارة بارد وتارة دافىء، تارة ساكن وتارة هائج، وتارة مورد معطّر الأنفاس، وتارة مغبّر مكفهرّ الوجه، انّه نيسان، وفيه بدأت أبحث عن السر الكامن فيه، سرّ الكمال النابع من التناقض، سرّ الشباب المتفجّر من قلب الشيخوخة، وسرّ الشيخوخة الكامنة في قلب الشباب.

أنظر الى نيسان. ألتفت اليه بعمق. أتأمّله بحكمة. أحاوره بصمت: أدخل محاولة تفسيره.

قمر نيسان، شهر التفجّر العاطفي في خلايا الطبيعة في الليل وفي النهار، أحسّه يسيطر على البحار البعيدة، وعلى شواطىء البحر المتلاطم داخل ذاتي. يشدّ بعنف الموجة إثر الموجة من أعماقي، يسحبها من قاع النبع، من سويداء القلب ومركز الروح. يرميها بعنف على الرمال الناعمة من نفسي، ويلطمها بقسوة، على الصخور القاسية المطلّة على العالم. قمر نيسان يحوّل صمتي الى كلمات.

الانسان، هذه الجزيرة الصغيرة الخضراء المحاطة بالرمال العطشى، يتعرّض في نيسان الى جاذبية قويّة مركزها قمر الذكريات. وتأتي الذكرى شمساً لاسعة وقمراً بارداً، لتسحب الموجة إثر الموجة من أعماق النفس البشرية، وترميها على الشواطىء العطشى. تغبّها النفس بصمت، تقبّلها

بشفاه عطشى شقّقها العطش، تشربها بنهم البدوي الراحل الضارب في هجير صحراء العمر. تنحسر الموجة قبل أن يرتوي، يشدّها قمر نيسان يعود بها الى محيط النفس، الى تيّارات العمق الهادرة بصمت نحو المجهول.

تعاود الذكرى عملية المدّ والجزر، والعلاقة الجدلية بين القمر والشاطىء والبحر تؤكّد عندي قناعتي بوجود قانون الاستحالة في العلاقات الانسانية.

لست أذكر من قال: لامستحيل تحت الشمس.

كانت تجربته الحياتية ناقصة كما أعتقد. المستحيل كامن في الطبيعة يؤكّده رفض الطبيعة لانصهار ـــ النقيض بالنقيض، يؤكّده رفض الطبيعة لذوبان الاثنين في واحد.

في الحب، عندما نقع في فخّ المستحيل تكتوي الروح البشرية، رغم كلّ مقوّماتها العظيمة، بجمر المستحيل، هذه النار الكامنة البطيئة التي تقضي على كلّ من يمسكها، وأيضا ببطء شديد. عندما يصل المحبّ الحقيقي الى جدار المستحيل العالي الصلب المسدود والمطلق، ترتمي النفس المعتدة القوية المتفجّرة بكبرياء الشجاعة والصدق، باكية خائرة القوى عند عتبة المستحيل، ويستحيل قدرها الى احتراق.. صامت، لن تنتهي فيه جمرة الشعور بالخيبة والأسى القاتل الاّ عند عتبة الحياة، عندما يصبح كلّ شيء رمادا ترابيا ناعما مسحوقا لجسد سابق متوهّج بالحياة وروح بشرية توّاقة للحب الممكن.

رجل وامرأة قدّر لهما قدر المستحيل هما خطّان متوازيان لايلتقيان أبدا. ويبدو أنّ اللقاء العادل بين نقطتين كاملتين متعادلتين كمّا ونوعا وشكلا وجوهرا، مادة وروحا، هو أمر مستحيل حتما.

عندما ألتقي بمن يعادلني مادة وروحا، شكلا وجوهرا، أكتشف أنّ درجة الكمال في كلّ منّا هي العامل الحاسم في الفصل بين القطبين.

المستحيل، هو وحده القاتل الحقيقي للنفس البشرية تختال كبرياء بتدرّجها الحتمي نحو الكمال الانساني.

المستحيل! من يقبض على المستحيل؟ من يحاكمه من يسجنه من يحكم عليه بعقوبة الاعدام..؟ لا أحد، فهو أقوى الأقوياء، وهو حكيم الحكماء، وعدله ظلم كامل، وظلمه مذبحة مستترة.

المستحيل! كالموت تماما، مع شدّة الوعي. بل الموت أكثر رحمة، فمع الموت تنتهي القدرة على وعي المأساة ومعاناة المأساة. ومع المستحيل نموت في كلّ لحظة، لأنّنا أضعف من أن نتمرّد على قوّة خارقة، كانت لنا بالمرصاد خلف شجرة الايام، حتى قبل أن نولد.

في الحب، في الحياة، المستحيل هو الملك الذي لايقهر ولاينزل عن العرش.

قال لي:
الحب هو الحياة:

وكان عليه أن يقول لي: الحب هو المستحيل، والمعادلة التي تكاد

تكون قانونا في علم النفس، والتي اكتشفتها في تجربة الحياة في مختبر التجربة عندي وعند الآخرين هي المعادلة التالية:

الحب يساوي المستحيل.

وعندما نغادر مقاعدنا ونتمرّد على هذه القاعدة، ونتحرّك باتجاه الممكن، يفرّ الحبّ كالغزال الشارد في بادية الشام قبل مئة سنة هربا من بندقية صياد. ينساب الحب كسمكة ملوّنة جميلة الى البحر العربي السوري بعيدا عن شباك مراكب الصيّادين.

الحب مهرة مجنونة التوق للسباق في حقول خضراء لانهاية لها. ولاحدود.

الحبّ طائر متكبّر يحلّق في سماء الحرّية بعيدا عن الأقفاص الذهبية واللوز والسكر.

الحب كائن أسطوري يموت عندما يأكل، ويحيا عندما يجوع.

الحب، هل هو الانسان ؟
وهل الانسان هو المستحيل..؟
وهل المستحيل هو الحرية..؟
وهل الحرية هي الممكن..؟

الحرّية هي الممكن. هذه مسلّمة تاريخية. فاذا كان الانسان هو الحرّية فهو اذن الاختيار، والاختيار بالضرورة هو « الممكن ».

واذا كانت الحرية ممكنة، والانسان ممكنا، فالحب هو الممكن. انّها

نتيجة حتمية. فما هو الحب الممكن..؟ انّه الحياة بين رجل وامرأة يمسك كلّ منهما بيد الآخر، يسير أحدهما بحذر فوق شريط السكّة الحديدية خطوة ويتبعها بخطوة، محاولا الاحتفاظ بتوازنه حتّى لايسقط يمينا ولايسارا، يسير الآخر بحذر مماثل فوق شريط السكة الحديدية الآخر، ويشكّلان معا جسم القطار الواحد الراحل باتّجاه الحياة النامية، باتجاه محطة المستقبل الذي لاينتهي بينهما أبدا. كلّ منهما عند نفسه لايتّحد بالآخر، ولايصير عنده، ولا يصير هو، ولايذوب فيه. يتوق اليه، يحتمي به، يحلم به أملا لايتحقّق. المرأة والرجل في حالة حمى من الحب، هما دائرتان مغلقتان، نقطتان مضيئتان تشعّان من مادة في الجوهر في العمق في الروح في الجسد، حرارة ونورا. كلّ منهما نقطة في ظلام ظاهري، تستمدّ نورها ودفأها من نور ووهج النقطة الأخرى عن بعد، وفي النتيجة، هما نقطتان مضيئتان كنجمين قطبيين لايلتقيان.

ان لقاء الدوائر أمر مستحيل.

واذا كانت دائرة الرجل أكبر من دائرة المرأة، قد تستوعب الكبرى الصغرى، الاّ أنّها لن تتحد بها لن تعادلها لن تلتصق بها الى الأبد في دائرة واحدة أبدية، تؤكد لمن يراها أنّ وحدة الرجل والمرأة في كيان واحد على شريط الحياة نحو مصير واحد، أمر لم يحدث لأنه ضرب من المستحيل. ويظلّ كلّ انسان كلّ رجل وكلّ امرأة رغم مظاهر الاتحاد الجسدية والاجتماعية، يظلّ كلّ منهما وحدة قائمة بذاتها من لحظة الولادة الى لحظة الموت، ويظلّ الوادي قائما سحيقا بين جبلين، بين قمّتين، رغم النهر المسافر بينهما، النهر الخدعة توحي بالوحدة لا الانفصال.

فليس المهم التصاق الجسدين، المهم وحدة الروحين، الأمر المستحيل.

نيسان يأتي ...

نيسان يذهب ..

نيسان يعود ..

يحرّك تناقضه مكامن الوجع عندي، تنفخ الريح فيه إعصارا حول شواطىء ذاتي، يظهر قمر نيسان، تسيطر قوّة جاذبيّته على صمت القلم، تسحب الموجة إثر الموجة من عمق البحر المحيط بي، تكتب الموجة على الرمال في النهار، وتنحسر في الليل، وترتمي الحروف باعياء.

بين نيسانين أنا، واقفة أتأمل ماذا حدث.

في الأول من عام مضى، ظهر القمر على شاطىء البحر، وارتفع المدّ، وهجم البحر واستسلمت الرمال.

في الثاني، ولد قمر المستحيل، ارتفع بحر الوعي، بلغ الوجدان الحالة العظمى، انحسر مدّ الحب، سقطت رمال الشواطىء المحيطة بي في ليل العطش، وضمّتها قوّة خيرة قاهرة نابعة من الضمير الى مملكة المستحيل، وصارت شواطىء الذات بما فيها الجزيرة الخضراء، مستعمرة من مستعمرات امبراطورية المستحيل التي لاتغرب عنها الشمس.

نظرت الى المفكّرة في الليل. كان الظلام المقبل عميقا ومرعبا يعادل القبر. انحسر الموج، هدأ الريح، انتصر المستحيل.

ضعيفة أنا. حملتني موجة المستحيل معها بلا رحمة، الى أعماق أليم. ضعيفة أنا من شدّة قوّتي، من كبر نفسي، من عظمة الخير في ذاتي. أنا القاتلة وأنا المقتولة. غرقت في بحر المستحيل قطّة دمشقية ساذجة تصوّرت نفسها سمكة بحرية، وأجبرت على الحياة باختناق بفعل دهاء الحياة.

عام مرّ يعادل العمر كلّه، وماذا بعد..؟؟ سأحكي قصّتي مع المستحيل ومعه، الرجل الذي أحب، الرجل المستحيل.

يمتدّ المستحيل بيني وبينه كامتداد المحيط بين قارة وقارة.

يتطاول القدر المستحيل بين حدودي وحدوده، بين عالمي وعالمه، بين زماني وزمانه، إمتداد رمال الصحراء المحرقة بين بحيرة وبحر، إمتداد السهوب الثلجية بين غابة وقطب، إمتداد المجهول بين حاضر ومستقبل.

معه.. عرفت كيف تصبح الكلمة بلامعنى، كيف يصبح الحاضر بلا غد، كيف تغدو اللحظة فراغا، كيف يتحوّل الأمل الى موت، كيف تصبح الطبيعة أسطورة، كيف تتحوّل الأشياء والوجوه والكلمات والمواقف والأهداف والحقائق، الى مخلوقات هلامية سديمية عدمية لست بقادرة على الاعتراف بها حقيقة ثابتة.

معه.. لاشيء نهائي. معه تلتقي النعم واللا في لحظة واحدة. بوجوده، عليّ أن أبذل جهدا إنسانيا جبّارا كي أعترف به كلّيا وأنكره كلّيا في لحظة واحدة، كي أقبل به وأرفضه معا، كي أحاربه وأحبّه معا، كي أقترب منه وأبتعد، كي أقبّله وأصفعه معا.

معه، منه، تعلّمت كيف أكون أنا ولا أنا معا، كيف أثور وأرضى معا، كيف أصمت وأتكلّم معا، كيف أطالب بحقّي وأتنازل عن حقّي معا . معه تعلّمت كيف أطلب كلّ شيء وأتنازل عن كلّ شيء معا، كيف أحترمه وأحتقره معا، كيف أقف ضدّه وأقف معه معا، كيف أخاف عليه وأخاف منه معا. معه تعلّمت كيف أقسو ومتى وكيف أرحم ومتى، معه مع نقيضي ومكملي في الحياة، مع الخير والشر المتجسد في شيطان رجل وضمير رجل، تعلّمت كيف أقبل أن أكون اثنتين لا واحدة، معه قدّر لي أن أدخل تجربة المستحيل، تجربة القدر الصعب. معه آثرت أن أنتحر بصمت وكبرياء على أن يمرّ هو في هذه الحياة دون أن تلامسه تجربة الحب الحقيقي، ودون أن يحرقه بركان الحب الانساني النقي، ليصهره ويذيب فيه شوائب الشر الانساني. آثرت أن أموت كي يحيا الحقيقة ويقف وقفة الفارس أمام إمرأة تفجّر فيه ينابيع الفكر والخير والجمال والايثار والصدق والرجولة الحقّة النابعة من قوّة الرجولة لا من دم الشباب، من قوّة الديمومة لا من، ضعف اللحظة.

آثرت أن أموت أنا ويحيا هو مقابل امرأة تحترم نفسها، وتحترم قيم الحياة، تعرف أين تبدأ حدودها وأين تنتهي، أين تبدأ حقوقها وأين تنتهي، وأين تبدأ حدود الرجل وحقوق الرجل وأين تنتهي.

معه، صرت ضائعة، ومعي وجد نفسه. معه تجسّدت أسطورة تاييس، ومعي صار راهبا للفكر.

معه تعلّمت أن أكون المعلّمة والتلميذة معا، ومعي تعلّم أن يكون المعلّم والتلميذ معا.

معه ، تعلّمت أن لاأصدّق أحدا في الحَياة ، ومعي تعلّم قيمة الصدق في الحياة .

معه ، تعلّمت أن أفهم كلّ شيء دون أن يقول لي شيئا ، ومعي تعلم أن يمارس الصمت ويجيب على الصمت بالصمت ، وعلى ثورة الكلمة بثورة الكلمة .

معه ، تعلّمت سرّ دوام الحب ، ومعي تعلّم كيف يمكن للحب أن يكون امتدادا لانهائيا يخترق البشرة حتى العظام ، كالريح الباردة في ليل نيسان ، تعصف بسكّان المدينة استسلموا أياما لخدعة شمس نيسان الدافئة .

معه تعلّمت أن أغيب وأصمت وأحتمل عناء الشوق ، حتى أداويه من مرض الملل والنزوع الى الحرّية بعيدا عن الأسر اليومي لحبّ المرأة العاشقة بغباء .

معه ، تعلّمت أن ارتفع الى مستوى الاسطورة والى مصاف آلهات الاغريق ، دون أن أسمح لعواطفي الجامحة ، ورغباتي الآنية ، أن تنحدر بي الى قاع النساء العاديّات الغارقات في وحل الجسد بعيدا عن غيوم الروح .

قال لي مرّة : كلّما لقيتك أحسست أنّك امرأة جديدة . لاشكّ عندي أنّك مقولة الجدلية .

معي وقف وجها لوجه أمام امرأة مختلفة ، قدمها واقفة بصلابة فوق أرض الواقع ، هامتها مرفوعة بكبرياء نحو سماء الفكر . جنية بحر الشمال أنا . سمكة بحر الحب أنا ، نصفي امرأة ونصفي سمكة ، وعملية الحصول عليّ

بشكل كلّي، وعملية تصفيتي بشكل جذري مسألة مستحيلة. ومن هنا بدأت خيوط قصّة الحب الحقيقي تنسج وشاح المستحيل. هذه الحروف لملمتها في سلّتي مع أزهار الربيع البرّية الزرقاء والصفراء والحمراء والبيضاء من شواطىء جزيرة الانسان، من شواطىء الذاكرة.

فلو قرأها أحد بعمق، فهل يقرأ ذاتي أم ذاته..؟ حياتي أم حياته..؟

الحبّ هذا المستحيل، هل هو قدري وحدي أم قدر الآخرين كلّ الآخرين..؟ وهل تمكّن الآخرون منذ « أوليس وبينولوبي » وحتى أيامنا من أن يكتشفوا منفذا يخترقون به جدار المستحيل الى حقول الحبّ الممكن..؟

لامستحيل تحت الشمس...
لامستحيل في الحب...

نظريّات معاصرة، تنتظر من يحوّلها الى قوانين في العصور المقبلة. ومن يدري..؟! قد تخضع المادة لارادة الانسان كلّياً، وتظلّ الروح مستعصية، شاردة، نافرة، متمرّدة، مهرة شقراء تستعصي على الفارس الشجاع.

في الربيع.. يتدفّق الحب، وتتجدّد الذكريات، ويتفجّر العطر، وفي الربيع نحب، ونفكّر، نكتب.

**من اوراق الربيع ٢٤ نيسان ١٩٧٩**


١٩٨٧

# أحمل الوطن في ضلوعي وأمضي

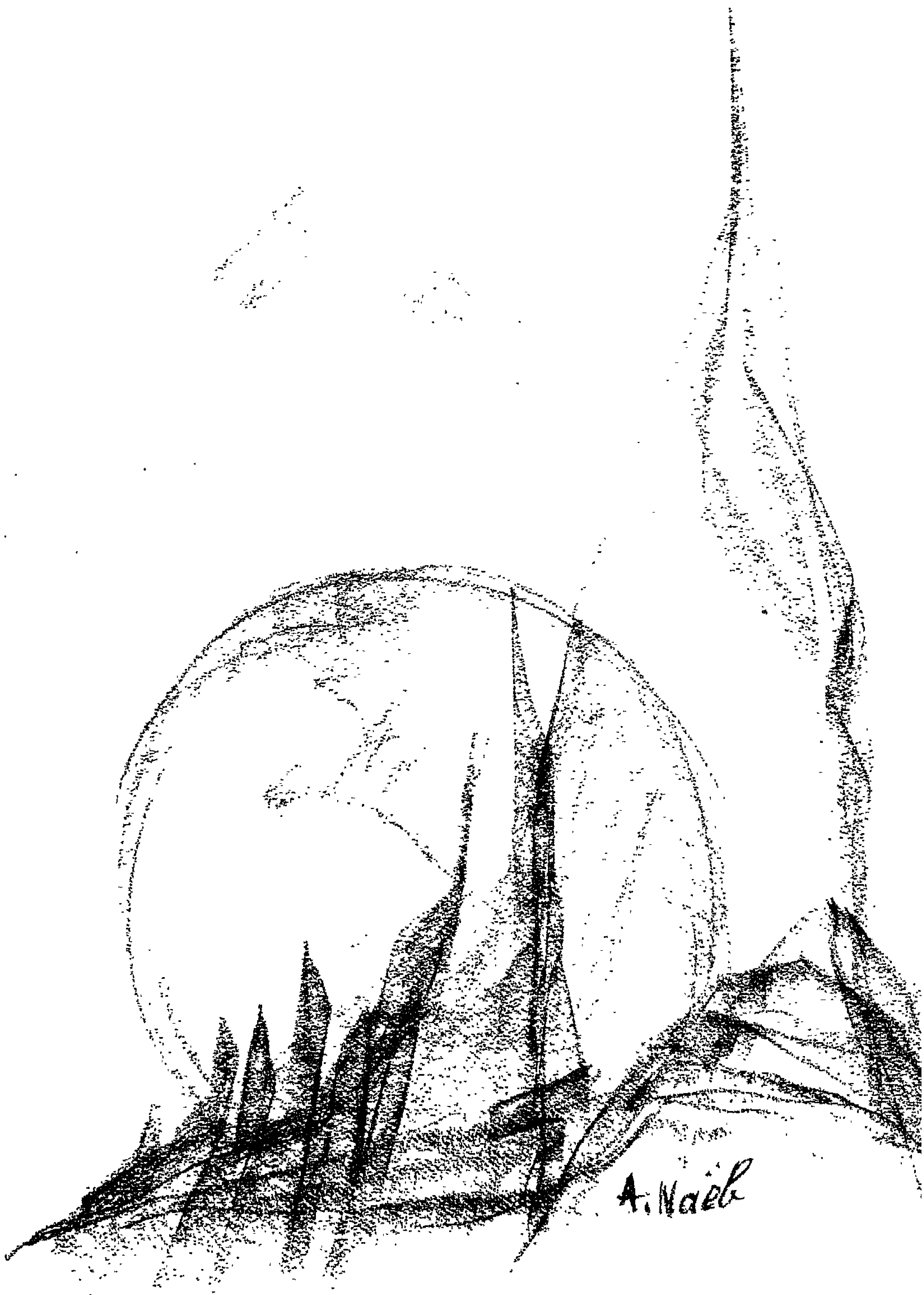
ماهو الوطن..!!؟

عرفي لي الوطن ياسهام..!!

وقفت بأدب وتهيب وشجاعة.

قلت لمعلمتي المحبوبة المحترمة وصال خانم، بلهجة انشائية خطابية حماسية استظهارية، وبصوت عال رفيع ونغم متواتر رتيب وأنفاس متقطعة:

« معلمة خانم.. نعم. الوطن معلمة خانم: هو الأرض التي نعيش عليها ونحتمي بسمائها، ونشرب ماءها، ونستظل بظل أشجارها، ونأكل من ثمارها، وندافع عنها، وتكون مصالحنا عليها مشتركة، تجمعنا لغة واحدة وعرق واحد وتاريخ مشترك ومشيئة حرة. ».


A. Naïeb

قالت لي معلمتي :

ـــ مرحى .. عفاك .. اجلسي .

جلست .

ومرت الأيام والأشهر والأعوام .

ماهو الوطن ..!؟

عرفي لي الوطن ياسهام ..!!

وقفت باحترام وتمهل وحذر .

قلت لمعلمتي الكبيرة المقدسة « الحياة » بصوت هادىء خفيض يكاد يبلغ درجة الهمس ، قد بحّ من عمق التجربة وتراكم الأيام الحلوة والمرّة وتتالي الأحداث الصغرى والكبرى :

« نعم .. الوطن يامعلمتي .. الوطن هو العلاقة التاريخية « الجدلية » بين الأزمنة الثلاثة ، بين الماضي والحاضر باتجاه المستقبل الحتمي الأفضل ، الوطن هو العلاقة الجدلية بين المواطن وتيار التاريخ الوطني .

الوطن ، هو الذكريات السعيدة والحزينة والدرب المزروعة بالشوك والورد ، والقمة المحاطة بالصخور الخطرة الصعبة ، حيث طمر لنا أجدادنا العرب « الكنز العربي » وحيث يرتفع هناك علم الحرية والاستقلال .

.الوطن ، هو الحب الكبير ينعقد بين قلب وآخر ، يغدقه بكرم كل مواطن على الآخر وكل المواطنين على الوطن .

الوطن، هو أن تستغيث إمرأة بشهامة رجل عابر فيستجيب بقوة وبلا تردد وخوف ولامبالاة، وهو أن يرد مواطن لهفة جريح مصاب بحادث سيارة فيحمله الى المستشفى بسيارته الخاصة، ليتلقى شكر رجال الشرطة وأطباء الاسعاف، دون أن يتعرض للتحقيق والتهمة الباطلة والتوقيف الظالم وضياع الوقت الثمين.

الوطن، يامعلمتي، هو المكان الذي لاتأكلنا فيه مشاعر الغيظ والسخط والتمزق المرير ونحن داخل السيارات الواقفة عند الضوء الأحمر، لأن واحدة من السيارات قد تحدت مشاعر جميع المواطنين الجيدين المتحضرين، وتجاوزت هيبة وسلطة قانون المرور والنظام الوطني وإشارة الخطر، دون أن تخشى حتى صفارة شرطي المرور التي لن تصفر ..!!

الوطن، هو الخطأ والصواب. هو البشاعة والجمال.

الوطن، هو أزهار البرية الصفراء والبيضاء والزرقاء والبنفسجية والحمراء المنتشرة بجنون بين الأحجار السود في الجولان وجبل العرب، وهو حقول شقائق النعمان وزهر الربيع الأصفر على امتداد طرقات الوطن، وهو حقول القمح الحبلى بالسنابل الذهبية الطالعة في أرياف حوران والشام وحمص وحماه ودير الزور وحلب والرقة والبوكمال والحسكة والقامشلي وجرابلس، وهو أشجار الزيتون الباقية في غوطة الشام والتي تحارب بصمت الفناء والابادة في عفرين وجبال اللاذقية وعلى امتداد الساحل السوري بدءا من بانياس، طرطوس، اللاذقية، وحتى كسب.

الوطن يامعلمتي، هو المراكب تتراقص في عرض البحر بين طرطوس وأرواد،

وهو السمك السعيد يلعب بفرح قرب شباك صيادي أرواد، وهو أطفال جزيرة أرواد يسبحون في البحر كالسمك مع السمك، انهم أبناء الحرية وأحفاد الأبطال الذين حققوا الحرية للوطن. الوطن هو اطلالة سورية على البحر الأبيض المتوسط حضارة كنعانية عربية انسانية تشع على الدنيا منذ أبجدية أوغاريت في رأس شمره قرب اللاذقية.

الوطن، هو أزهار البرتقال والليمون والنارنج تعطر أجواء الشواطىء السورية وبساتين غوطة الشام وحدائق بيوتها منذ فجر النضال وحتى زمن الحرية. الوطن هو وحدة هذا العطر في طبيعة الأرض وفي طبيعة الانسان.

الوطن هو فصول الوطن الأربعة، هو صيفنا وشتاؤنا وربيعنا وخريفنا.

الوطن عندي يامعلمتي، هو اللوحة الانسانية العربية السورية الفائقة الجمال الرائعة الأثر التي نرسمها بقلوبنا منذ الصغر حتى الشيخوخة على خارطة سورية العربية من شرقها الى غربها من شمالها الى جنوبها. لوحة وجدانية نرسمها كل سنة كل شتاء خير كريم بأرواحنا الطيبة المرحة. هي لوحة بريشة الحب القومي العربي على خارطة الوطن الحبيب الصغير ــ الكبير. فيها يلعب المواطنون جميعا بمحبة مابعدها محبة، رجالا نساء أطفالا شيوخا شبابا. هي « لعبة الثلج » تعبر عن منتهى الحب للحياة للوطن للآخرين للطبيعة، تعبر عن منتهى النقاء والصفاء والرغبة بدوام الفرح وديمومة الحب وفيض الخير السماوي.

نزل الثلج بسخاء بين نهاية شتاء ومطلع ربيع.

بدأوا برسم اللوحة.

لعبوا كلهم تحت الثلج فوق الثلج بالثلج في الشوارع والساحات والأزقة والحارات والأسواق، في الحدائق والمدارس والجامعات والثكنات، في الشرفات والسطوح، في الجبال والوديان، في المدن والأرياف، على الطرقات الدولية بين مدينة ومدينة، وفي الحارات الضيقة بين بيت وبيت وسطح ونافذة. لعبوا ضحكوا تحرروا من الرسميات والتصنع والبروتوكولات، من القهر والهم والكبت والتقاليد المحافظة والمظاهر التقليدية الكلاسيكية المهيبة. عاشوا فرح الانسان الأول بنعمة السماء. تضاربوا بكرات الثلج الهشة النظيفة وضحكوا حتى شبعوا. غازلوا بعضهم بعضا علنا « وبشرعية ثلجية مطلقة » لايطالها قانونِ الآداب العامة، ولم تصمد أمامها كلمة، الغزل ممنوع في الشوارع. عبروا عن منتهى الحب بحركة خادعة تشير الى منتهى « الحقد العاطفي ». تبادلوا إطلاق النار العاطفية الانسانية من أسلحة ثلجية هشة غاية في الرقة والنعومة والصفاء والنقاء تذوب في يد القاتل بفعل حرارة يده وقلبه، قبل أن تصل القتيل الذي يخفي رأسه بين كتفيه ويضحك فرحا بهذا الموت الحلو، في يده رد عاطفي أشد قوة، كرة ثلجية أكثر شوقا وحرارة وعاطفة ورغبة في تبادل الغزل البريء والمزاح اللطيف. ويضحك الطرفان القاتل والقتيل، وتتورد الخدود وتتصفى الضمائر من شوائب الكآبة والقلق في الحياة، وتسقط الأحقاد كل الأحقاد.

تضاربوا بالثلج، ابتسموا، عرفوا الفرح، ذهبوا الى العمل والدراسة والتدريب، تتحرك في عروقهم دماء فوارة بحب هذا الوطن الغالي تحت الشمس وتحت الثلج، مع أن أحدهم لايعرف الآخر، لكنه يعرفه جيدا، أليس هو شريكه في الوطن، في ثروة الحب والحضارة والثلج والخير والحرية.

الوطن يامعلمتي، هو وجه الطفلة الشقراء والطفل الأسمر، الراعيين الصغيرين الفقيرين اللاهثين وراء قطعان الغنم في الربى، يبتسمان لك يبادرانك التحية: مرحبا... وأنت تعبر قريتهما بسيارتك الفارهة صدفة.

الوطن، هو بائع الحليب ذو الوجه الصباحي البشوش، ينادي الكريم، ياكريم!! يصبحك قبل الشمس، يحمل الحليب الى بيت جيراننا وبيتنا مبكرا رغم سنوات الشيخوخة، يزرع صحة الريف في جسد المدينة بكل محبة، ينتظر أن ترد له المدينة هذا الجميل بمحبة أكثر بعرفان أكبر.

الوطن، هو بائع الصحف المجهول، يقذف بالصحف الصباحية الى شرفة بيت أهلي قبل السادسة.

الوطن يامعلمتي، هو وجه ذلك الانسان الطيب الصابر المجهول يستيقظ قبل المدينة ليحمل عن سكانها بعيدا «أكياس النايلون السود» لتظل الشوارع مزهرة بالأطفال والأزهار والنظافة والفن والجمال والهواء المنعش المعطر بأريج أزهار الليلك والنارنج والياسمين والزنزرخت والمنوليا والكاردينيا.

الوطن، هو راديو بائع أشرطة التسجيل في ساحة المرجة أو شارع النصر أو في طريق الصالحية في الشام، وربما في دير الزور وحلب واللاذقية ودرعا، يقلق الدكاكين والسكان في البيوت بصوته العالي الذي غدا جزءا من شخصية السوق بعد اختراع أجهزة التسجيل.

الوطن.. يامعلمتي الحياة، هو الذكريات تغني وتبكي داخلنا، وهو الآمال والأهداف والأحلام تزغرد وتنادي وتلوح لنا من سماء الزمن المقبل من تاريخنا.

الوطن، هو صيرورتنا، هو وجودنا.

الوطن، هو كل من دفع حياته ثمنا للحرية ورحل بشرف من أجل الوطن. والوطن هو كل من يبذل حياته الآن بشرف ويفدي الآخرين بنفسه حفاظا على الأرض تحتنا والسلام فوقنا والسلام في نفوسنا والحرية داخلنا وداخل حدود الوطن.

الوطن، عندي وعندك يامعلمتي وعندكم ياأبناء وطني هو يوسف العظمة وعبد الرحمن الشهبندر وابراهيم هنانو والدكتور صالح قنباز وفوزي القاوقجي وحسن الخراط وصالح العلي ورزق سلوم ورشدي الشمعة وحمد الدبور وشكري القوتلي وسعد الله الجابري وفارس الخوري وفخري البارودي ونسيب البكري وسعيد القهوجي وعدنان المالكي وجول جمال وسعيد يونس وفايز منصور وفؤاد محفوظ وأحمد خليل وعمر الأبرش وكمال نصر والدكتور محمد الفاضل والدكتور عدنان غانم والدكتور ابراهيم نعامه وعبد الكريم رزق والدكتور محمود شحادة خليل وكل الأسماء اللامعة في قوافل الشهداء الذين يجسدون وحدة الوطن العضوية. عطاءاتهم للوطن واحدة، وتعددت أسباب رحيلهم عن الوطن واستشهادهم من أجله. والشهادة واحدة والوطن بهم واحد.

هم كلهم وطني لأنهم النخبة القدوة.

ورفاقهم على درب النضال والعطاء والفداء والشهادة في السلم والحرب من عدو في الداخل وعدو في الخارج، كل الأبطال، أبطال الحرية والمعرفة، هم وطني ...

الوطن، يامعلمتي الفاضلة هو « العلم العربي السوري » هو « العلم العربي » وهو النشيد الوطني تعلمناه في الصغر وصار كالنقش في الحجر، ملتصقاً بوجودنا بأرواحنا ننشده في ضمائرنا قبل شفاهنا وحناجرنا لرجالات الوطن ومحرريه من الاستعمار. هو أعظم لحن وجداني علمني الكبرياء بالوطن ورجالاته:

حماة الديار عليكم سلام
أبت أن تذل النفوس الكرام
عرين العروبة بيت حرام
وعرش الشموس حمى لايضام

الوطن، هو كل وجه أعرفه وكل وجه لاأعرفه، ويحمل هوية كهويتي العربية.

الوطن، هو الأطفال رجال المستقبل، هو الشيوخ أطفال ورجال الماضي، هو الشبان رجال الحاضر، هو الموتى يرقدون في تربة الوطن المقدس، هو الأجنة في أرحام نساء الوطن، هو النطف في دماء رجال الوطن.

الوطن، هو آثار تدمر وسد الفرات، والوطن هو أبجدية أوغاريت والمحاضرات العلمية على مدرجات جامعات اللاذقية وحلب وحمص ودمشق، الوطن هو الجامع الأموي، والكليات والمعاهد العلمية العسكرية والفنية.

الوطن، هو النهر هو البحر هو البحيرة هو الصحراء، هو الغابة، هو الجبل هو الوادي هو المدينة هو الريف.

هو الجواد العربي الأصيل يحمل فارسا صغيرا يتدرب في ملعب الفروسية، هو الجندي يتدرب على دبابة، على ظهر مركب حربي بحري، على جناح طائرة مقاتلة، في غرفة قيادة طائرة مدنية تدعم أسطول الملاحة الجوية، الوطن هو الراعي البدوي الأسمر، هو ثغاء الخرفان في ربيع بادية الشام، هو صفير القطار العجوز العتيق يحملنا بسعادة مطلقة بين دمشق والزبداني صيفا، وكان هو هو نفسه يحملنا بسعادة لاتوصف بين دمشق والحمة شتاء، قبل أن يغتصبها قرصان العصر، العدو الاسرائيلي.

والوطن هو القطار الشاب العصري يسافر بنا بين دير الزور والرقة وحلب، تحمل عرباته الخلفية غلة القمح والقطن ذهب الوطن الأصفر وذهب الوطن الأبيض. والوطن هو أنابيب البترول تحمل البترول، ذهب الوطن الأسود، ثروة الوطن الى العالم.

الوطن، هو ذكرى العذاب في قاع الذاكرة، تعانيه طفولة أطفال ريف الوطن الفقراء بالانطلاق الى المدرسة البعيدة سيرا على الأقدام شتاء في الوحل والطين والثلج والشوك. في الغابات والجبال والوديان الموحشة مع رفيقين اثنين وحيدين: الفقر والخوف من الذئب.

والوطن هو ذكرى معاناة الطفولة المعذبة بالفقر في المدن حتى في العاصمة المدللة، طفولة موشاة بالهم، هم الفقر، وهم المدرسة. وحتى أطفال الشام الفقراء كان لهم ذئبهم. الوطن هو ذكرى النزول من البيوت العربية في حارات الشام العتيقة الى «المسكية» آخر سوق الحميدية، لصق الجامع الأموي، مع موسم افتتاح المدارس الابتدائية لشراء الكتب العتيقة المهترئة المستعملة من تلاميذ الصف الأعلى.

والوطن، هو الفرح الحالي يحمل التلميذ الطفل السعيد الى المدرسة في القرية والمدينة لايبكي جوعا، ولايخجل فقرا، ولايلتفت بقلق خوفا من الذئب أن يأكله.

الوطن هو الغيمة البيضاء في عز الربيع والصيف تغازل سماءنا الزرقاء، وهو الغيمة السوداء تحملها الريح، ومعها الوعد بالخصب والمطر والسعادة.

الوطن، هو جنة دفء الطفولة البريئة الفقيرة في ليلة جليدية، بلهيب نار الحطب وجمر الفحم وحضن الأم الحنون، وهو أيضا جنة الطفولة المعاصرة المحظوظة بوهج مدفأة المازوت أو الكهرباء أو الغاز أو التدفئة المركزية.

الوطن، هو الفسيفساء والموزاييك والخشب المرصع بالصدف والعاج، وهو رقص السماح والدبكة ورقص الديسكو.

الوطن، هو مواطن يركب حمارا ومواطن يركب سيارة، وآخر يعتلي مركبا شراعيا بحريا أو مركب صيد، أو يقود باخرة سياحية. هو طائرة وجمل، وهو صاروخ وبندقية وعصا وزهرة وآلة عود. هو أزيز رصاص ضد العدو، وهو لحن شرقي يعزفه تخت موسيقي عربي من أجل الحبيب.

الوطن، هو الفرح الحقيقي الضمني اننا ورثنا الوطن عن الآباء والأجداد، واننا نملك الوطن.

والوطن، هو الخوف الحقيقي أن يضيع الوطن.

الوطن هو لحن شرقي عربي من الناي والعود والدف والقانون في حفلة

على المسرح، وهو لحن من المدفع والبندقية والدبابة والطائرة والطوربيد في مناورة حربية.

الوطن، هو الخوف الحقيقي أن ننام نوما عميقا ونترك العدو الذئب الصهيوني المعاصر، يفترس الوطن الكبير الغالي من « الفرات الى النيل ».

خفنا في طفولتنا الذئب الحيواني..!!

وكبرنا ليطلع لنا الذئب ـــ الانساني المعاصر من اسرائيل ومن رحم الصهيونية.

الوطن، هو أن نخفف من وطأة الأخطاء الصغيرة لبعض الأفراد منا، وأن نضبط أعصابنا، وأن نفكر بالوجود، بالوطن، قبل التفكير بالأنا بالذات.

الوطن، هو « نحن » جميعا بكل عيوبنا ومزايانا بكل شرورنا وفضائلنا.

الوطن، أن أقول لك صباح الخير وأنا أشعر أنك الوطن كل الوطن. جارا كنت أو زميلا أو صديقا أو قريبا أو زوجا أو حبيبا، بكل محاسنك وعيوبك.

ياأهلي، ياأهل الوطن.

ياأهلي، ياأهل وطني العربي الصغير سورية،
ويا أهل وطني العربي الكبير من المحيط الاطلسي الى الخليج العربي..!!

عندما تدق طبول الخطر، مطلوب من فرقة الوطن الموسيقية أن تعزف النشيد الوطني، وترفع العلم، وتأخذ التحية.

مطلوب أن نحب بعضنا بقوة، وأن نفكر بمصائرنا بعمق وبعد نظر.

لنغني كلنا نشيد حب الوطن من الايمان، وشعبنا العربي هو شعب الايمان، وأرضنا العربية هي أرض الأديان السماوية المقدسة.

ومن لايغني مع المجموعة فسوف يعرض حجرا من أحجار الوطن، للتداعي والسقوط. هذا البناء الشامخ بالعلم والايمان والمعرفة والحرية والحب والقوة والرغبة بالسلام، بحاجة لأصغر حجر فيه وأكبر حجر.

لنكن أحجارا ثابتة، قيمتها بذاتها، أقدارنا بأيدينا، لا أحجار شطرنج متحركة أقدارها بأيدي اللاعبين الطامعين في وطننا.

الوطن، هو نحن، هو صيرورتنا هو وجودنا الممتد، هو أزمنتنا العربية الثلاثة الماضي والحاضر والمستقبل.

قالت لي معلمتي الفيلسوفة الحكيمة الرصينة « الحياة » فجأة:
كفى .. كفى. ماهذا !؟ كنت صغيرة فأوجزت وأجدت وأديت تعريفا كاملا محكما، صرت كبيرة، فأطنبت وأطلت، وأكثرت من التفاصيل والشرح، ولم تأت بجديد.

قلت:

« نعم .. يامعلمتي الفاضلة. في الصغر عرفنا الوطن بكلمات وضعتها حكمة الآباء والجدود والمعلمين الأول، وفي الكبر، عرفت الوطن

بكلمات تنبع من قلبي أنا، وعقلي أنا، وحياتي أنا، وزمني أنا، مضافا اليها زمن وتجربة وحكمة الذين وضعوا حجر الأساس، ولاتنسي قلق الذين يحملون المسؤولية التاريخية من أبناء الجيل العربي المعاصر، من احتمال سقوط البناء الحي.

كثرة الكلام دليل القلق ورغبة في إثبات الذات.

وأنا قلقة جدا يامعلمتي.

أضم الوطن الغالي الى صدري وأخفيه في ضلوعي التي تفكر وعقلي الذي يحب. أخاف على وطني من الذئب الصهيوني أن يأكله على مراحل أو في لحة. أخاف أن يأكله الحقد الفردي الصغير.

أنا أحمل الوطن في ضلوعي وأمضي.

أبحث عن حكيم عربي معاصر يتكلم أقل، يحمي الوطن أكثر».

**من أوراق الشتاء دمشق ١ نيسان ١٩٨٠**

# ذكرى ثلاجة روحي

أهلا ... نيسان ... شهري ... وشهر الحب والحرية والربيع والجمال والفصح وانبعاث الأمة العربية .

وصلت عربة نيسان الضاحكة المحملة بالزهور الملونة وقوارير العطر العربية وبطاقات المعايدة المزخرفة وهدايا الاعياد الملفوفة بالأوراق الذهبية والفضية ، تبعث في قلوبنا الفرح الغامض بالالحان الموسيقية العذبة تنبعث من رنين الأجراس النحاسية الصغيرة المعلقة في رقبة جواديها العربيين الطائرين نحو المستقبل الآتي من الزمن العربي .

عربة نيسان يجرها حصانان مجنحان هما الحرية والبعث .

أسير في شوارع نيسان ، تهب رياح الربيع الخماسينية لاتعرف الرحمة ، تعصف بأزهار الشجر المعطر ، تتناثر أوراق الزهر الابيض على



الأرض والناس، تعلق بشعري. عطر غبار الطلع يعصف بروحي، أتحد مع الطبيعة في الربيع وتتجدد دورتي الدموية مع دورة النسغ في قامات الشجر.

أتى نيسان... بدأ بكذبة بيضاء صغيرة ولست أدري كيف سينتهي...!!؟

ضحكة كذبة نيسان، وعطر أزهار نيسان لم يتمكنا من ذاكرتي كليا. مازلت أذكر انفعالاتي الفكرية والعاطفية مع الأيام الأولى من شهر آذار.

حكمة الشعب الذهبية، « خبي فحماتك الكبار لعمك آدار »، ثبت أنها حكمة أبدية. وعندما أتى عمي آذار... أتت معه مفاجأة لامعقولة. تركت وهج الفحم في منقل ستي النحاسي وخرجت.

كنت أسير في شوارع آذار... أتأمل الطبيعة بذهول وأنا لا أكاد أصدق ماأرى.

الوطن... والشام عاصمة هذا الوطن، تعرضت في الأول من آذار لعاصفة ثلجية هائلة غطت أرضنا وشجرنا بالبياض، وينابيعنا فجرتها بالثراء.

وقفت بذهول أمام شجرتين... واحدة مزهرة بزهر التفاح وواحدة مزهرة بزهر الثلج... !! ياإلهي! ماأعظم القدرة الالهية.

في ذلك اليوم عشت بذهول.

في تلك الليلة كتبت ورقة، كلماتها متناقضة متكاملة، كلمة معطرة، وكلمة هشة، كلمة حارة الدماء موردة الخدين، وكلمة باردة الأنامل دافئة القلب.

لكن العاصفة الثلجية المجنونة التي لفت الشام وأشجار الغوطة المزهرة بشالها المطرز زهرات ثلجية بيضاء، ماتزال حية في القلب والعين والذاكرة، ماتزال تعصف بي حتى اليوم لاتفارقني لحظة.

عصف الثلج بي وأشعل حرائق الشوق التي أهدهدها في أرجوحة النوم وأسقيها نبتة الخشخاش كي تفقد الوعي وتنام وتتركني لأنام لانسى صحوة العذاب، وأغيب في طيّات الاغماء، النوم، الموت الصغير الحنون الذي يسحب البشر من عذاباتهم في حياة اليقظة.

الشمس طالعة أعرف.
نحن في نيسان أعرف.

لكن ذاكرتي وفية لاتنسى، تمدني بغذاء روحي أجترّه كبقرة هندية أسطورية تعيش أرضا تقدّس البقرة تختزن طعامها في ذاتها أيام الخير، كي تقتات به أيام المحل والجفاف وسنوات الجمر.

ذاكرتي «ثلاجة» روحي لايموت فيها طعام القلب والفكر والجسد، ذاكرتي ثروتي العظيمة، ولم أرثها عن أحد، هي كصندوق جدتي العتيق المرصع بالصدف الدمشقي والعظم والعاج وخيوط الفضة يخبىء أسرارها وكنوزها ليوم الشدة.

هبت العاصفة الثلجية من الغرب على زجاج نافذتي يحملها الريح العنيف، فهبت النار على قلبي واشتعلت الحرائق في أعواد وأغصان الذكريات اليابسة.

وأكلت النار قلبي كما الثلج.

ياهذه الطبيعة المجنونة تركب أرجوحة تتحرك بين نقطتين عاليتين على وادي العشق الأخضر السحيق بين قمتي جبلي الثلج والنار، مالها لاتتركني أنسى قليلا مابي....؟

الثلج الهش يطير يطير كالفراشات البيض يضرب زجاج نافذتي بيد ملائكية، يعزف سيمفونية ثلجية هادئة عذبة على أوتار القلب وأعصاب الجسد، يضربني على وجهي فلا يوجعني، يقتلني فيبعث في الحياة، يبردني فيدفئني.

يالك من ثلج عظيم، محرك للنار البشرية مطفىء للنار الحقيقية.

ـ آلو... آلو... هل لك أن ترفع صوتك قليلا حتى أسمع غناء حنجرتك الذهبية.. أريد أن أربط بين صوت العمق الانساني فيك، وصوت هدير عاصفة الثلج وهي تعانق أزهار الربيع في وطني !!

قل.. آلو.. قل.. أهلا... وسيتحد صوتك في ذاكرتي مع تناقضات الطبيعة ولوحاتها المبهرة. فأنا كالنملة المجتهدة أجمع غذائي أيام عطاء السماء والأرض والانسان، للأيام التي تنساني فيها رحمة السماء، وتبخل علي الأرض ويغدرني الانسان ويرحل الى قارة الصمت.

الطبيعة تغني ... وهو بعيد وصامت .

التوتر انتقل من الطبيعة الي . أكاد أشهد موتي وفنائي بفعل هذه اللوحة المتعددة العناصر ، هو وزهرة الثلج وزهرة التفاح !!... هذا كثير علي .

لابد أن أكتب . لايمكن الاّ أن أكتب .

أناملي تمتد الى القلم وتكتب قبل أن تكتب .

لافائدة . لاقوة معاصرة على الأرض تتمكن من الغاء العلاقة العضوية بيني وبين الطبيعة .. رومانسية .. !! فليقولوا رومانسية حتى يشبعوا . لابد أن يعود العصر الرومانسي مادام الانسان يستبدل الطين بالاسمنت والحديد ، ويستبدل الشجرة بالورد الاصطناعي ، ويستبدل حرية الانسان بالسجون ، ويستبدل الياسمين والزنبق والفل بالقنبلة الذرية .

كلهم يسألني عن الثلج ..

كلّهم مثلي رومانسي ولايدري .

كلّهم يطالبني باعلان أسرار علاقتي العاطفية مع الطبيعة بفصولها الأربعة .. كلهم يهرب من المادة الى الروح .

هند ونخلة كلاّس ، أم أيهم وأبو أيهم ، صديقان حمويان يعيشان في دمشق ، ويعشقان شتاء الشام مثلي وربما أكثر . هما زوجان مثاليان يتفجران حباً وثقافة وحنانا وأبوة وأمومة ، يشربان قهوة الصباح الباكر على منظر

عاصفة الثلج على الشام. يتساءلان عما سوف أكتبه هذا اليوم عن الثلج الربيعي ...

ربما هي تكتب ... !! حتما انها تكتب الآن ...

ترى ماذا تكتب ..!!؟

ابنتهما المثقفة الناعمة الرومانسية تفهمني، تحبني، « رود » تتوقعني.

هاتف من صديقة عمري دلال. ومع صباح الخير « وإن شاء الله السنة بيضا » تمطرني بسؤال أبيض كالثلج ولون قلبها تسألني أخبار سعادتي الحتمية بنزول الثلج.. تتوقع سعادة روحي المتفجرة عبر صوتي الموشى بجرح الفرح. أقرأ لها مقطعا مما كتبت حتى لحظة رنين هاتفها، يتعلق بأمي « عزيزة » رحمها الله وبهذا اليوم، دلال تصمت صمتا مرعبا يخلعني من جذوري أعرف أنها تبكي بلاصوت كعادتها تبكي أمها الغالية « فايزة » رحمها الله. كلانا تفتقد صوت وكلمات أمها في مثل هذا اليوم الثلجي.

« كل سنة وانت سالمة يابنتي.. نزل الثلج.. ان شاء الله السنة بيضا وأيامك كلها خير وبركة ». أقرأ ماكتبت بصوت يبكي. أطلب من دلال أن لا تبكي. رحم الله أهلنا، فقد كانوا لنا الخير والبركة والرضى والطمأنينة والفرح. كانوا ملتصقين بالطبيعة في الوطن بمواسم الخير والبركة، ورحلوا وتركوا لنا عاداتهم وتقاليدهم، وجروح ذكريات طفولتنا، عصرنا الذهبي معهم.

نزل الثلج.. خرجت مبكرة الى الشرفة أرقب اللوحة الالهية. كنت

وحدي. قلت بصوت عال يشوبه الفرح العفوي: «يي .. نزل الثلج» .. كل سنة وانت سالمة ياأمي .. ان شاء الله السنة بيضا ...!!! ».

وأفقت على نفسي .. وهرّت على هذا الخد دمعة حارّة وعلى هذا الخد دمعة ثلجية باردة.

نسيت أن أمي قد ماتت وأنها ليست سالمة من الموت، لكني سأظلّ أقول كلما نزل الثلج والمطر كل سنة وأنت سالمة ياأمي !! أمي سالمة حية ولن تموت أبدا أبدا.

وسأظلّ أكتب كل سنة وأقول كل سنة وأنت سالم ياوطني ..

زميل ضابط هادىء ومثقف في الادارة السياسية تكلّم ونادرا مايتكلم، التقى بي في المصعد صباح ليلة عاصفة الثلج، أصبح يصبح. قال بوجه مشرق:

— ستكتبين اليوم حتما ..!!

قلت:

— كتبت عن المطر منذ أسابيع ...

قال:

— لا .. الثلج غير المطر. لابد أن يوحي لك هذا النهار الثلجي المفاجىء بكتابات جديدة. ننتظر ..!!

دخل مكتبي الصديق والزميل الصحفي سكرتير التحرير يسأل عن الموضوع ...!!

ـــ أي موضوع ياهاني ...؟ موضوع المرايا ...!؟

ـــ لا .. موضوع الثلج .. لابد أنك ستكتبين . أنا أنتظر ..!

زميل آخر ضابط كبير بهدوئه وبثقافته ، بتفاعله مع أحداث الوطن وأحداث الطبيعة طالبني بهاتف مفاجىء، وشجعني على مزيد من الكتابات العاطفية وعلى تسجيل أوراق الشتاء !!! والربيع والصيف والخريف ... وكأنها أوراقه هو .

قال لي :

ـــ أنا وكل الناس .. نبحث عن الكتابات الوجدانية بالحرارة نفسها التي نقرأ بها تحليلا سياسيا هاما لموقف عربي أو دولي .

وقال :

ـــ انظري الثلج مأجمله ... اكتبي .. هذا هو يومك . لاأدري لم أشعر مثلك بفرح كفرح الأطفال بنزول الثلج على الوطن ...!!

وأغيب خارج النافذة ... أطير على أجنحة قطع الثلج وهي تحط على سطوح بيوت الشام ، وعلى أغصان أشجارها ووجوه سكانها كطيور بيضاء صغيرة .. لاأملك اجابات فورية .

ما لهم كلهم أصدقائي ...!! ماهم يفكرون بي عندما تهب الريح عندما يهطل المطر عندما ينزل الثلج .. يحثونني على الكتابة في عز البرد والشتاء ... يهيبون بعواطفي وبأفكاري أن تصعد الى النور ، يطالبونني بستجيل أفراحي بعرس الطبيعة ليقرأوا أفراحهم في أوراقي أنا ، ياهم من كتاب مبدعين كسالى ...!؟

أما هو ... فلم يتصل. لم يظهر. لم يطلب مني أن أكتب. لم يحاول أن يرى الفرح على وجهي، وأن يسمع الغناء من حنجرتي. وكأني به يتعمد أن يغيب ويصمت كي أنجرح وأكتب !!

نزل الثلج على الشام ... وهو غائب. هو في سفر قسري يقطع الأوصال والعروق. لكنه سيعود. أنا متأكدة. سيعود ليقول لي أنه سمع سيمفونية الريح ورأى لوحة عاصفة الثلج « على الوطن وعلى الحبيبة » رغم الزمان والمكان. طول عمره مهما غاب يعود، أبداً يغيب ويعود.

قال لي مرة ولن أنسى: لن أتركك لو صار عمرك مئة سنة.

عصامية أنا صنعت حبي بنفسي.

أنا أنتمي لانساني.. اذن أنا موجودة.

عندما ينتمي انسان لأرض يشعر بالأمان.

عندما ينتمي انسان لانسان يشعر بالسلام بالوجود. أنا أنتمي لانساني اذن أنا موجودة.

عندما ينتفي الانتماء بين انسان وانسان، تمد أشواك الغربة أعناقها ويصير الوجود لاوجودا. وتنتشر الصحراء بين قلبين.. بين نقطتين خضراوين.. وتتسع وتسود الفرقة السوداء، ويستطيل البحر الميت يجتاح جسد الأرض الى جسد الانسان.

عندما ينتمي رجل لامرأة يحبها، يسير وفي داخله قوّة خفية تبعث فيه طاقة روحية هائلة تشع على زوايا الحياة، يسير بقدمين ثابتتين، رافع الرأس عظيم الكبرياء، واثق الخطا ينظر الى الأفق بنظرات تتحدى الأبعاد ومكامن

المجهول والخطر وماهو متوقع من أذى الآخرين. يمشي على رصيف ساحة الحياة بخطوات رجل متكامل، خطوات رصينة تحمل ايقاع موسيقى الانسجام الكلي والحب الحقيقي، موسيقى التوازن الروحي بين الرغبة وتحققها.

يسير هادئا وقورا يدب الرهبة في القلوب، لكنه في أعماقه يغني. يغني. يسير برصانة لكنه يغني. يقود سيارته بادي التجهم لكنه يغني يغني. يشعر بأنه أسعد رجل بين الرجال لأنه متوحد مع نفسه، مع المرأة التي أعطاها نفسه وارتاح من عناء حمل النفس الضائعة.

أتى الربيع... وتفتح زهر الحب في قلوب الناس، وتجاوبت القلوب مع المطربة نازك وهي تغني عبر الراديو أغنيتها خفقات قلب.

وشدني الشعر المغنى، وكان « القلب » هو بطل الشعر والاغنية..:

ليته يعرف الملل
دائم الخفق لم يزل
هده الهجر فانبرى
يقتل اليأس بالأمل

المسيح... رجل المحبة.

بطاقة معايدة من قلبي... لاخواننا المسيحيين الشرقيين والغربيين بعيد الفصح المجيد.

جاءت السنة الكبيسة عام / ١٩٨٠ /.. واتحد العيدان الشرقي والغربي ، وتعانقت القلوب تصلي لرسول المحبة والسلام عيسى عليه السلام في شهر الحرية والحب والربيع .

قد يعيد الشرقي في أحد ويعيد الغربي في أحد.. لكن رسول المحبة واحد .

**من أوراق الربيع ١٥ نيسان ١٩٨٠**

# رامبو الخليج العربي

ديوجين ... حمل قنديله في عز النهار ونور الشمس بحثا عن الانسان ..!! وضحك الناس من الفيلسوف «المجنون » الذي يحمل قنديل الزيت والشمس ساطعة !! .

أنا .. وأعوذ بالله من كلمة أنا ...!!

أنا .. تلميذة أستاذي الفيلسوف المجنون ، أحمل أمتعتي وأسافر بعد ألفي سنة من ديوجين ، في دروب الحياة ، أحمل نور الشمعة داخلي ، والمرايا في عقلي وقلبي وجسدي وروحي ، وأمشي في ضوء النهار أبحث عن الانسان ، متحدية شمس النهار ونظرات الدهشة في وجوه الآخرين ، ساخرة من عصر الكهرباء ، وكهرباء الليل المعاصر ..!!

في عصر ديوجين ، وفي عصرنا تظل الإنسانية تبحث عن ذاتها بجنون عاقل ، أو بعقل مجنون ، لافائدة .



في عصرنا، نظرت في المرآة، رأيت ذاتي الثانية. فرحت فرحا الهيا، ولمع البرق وهدر رعد السعادة في سماء انسانيتي المعاصرة.

فجأة، سقطت المرآة المعلقة في الهواء !! هوت الى القاع، تكسرت وتبعثرت شظايا وذرات من الطحين الزجاجي والانساني معا. هدر الرعد وتحركت الأرض تحتي بفعل الزلزال. ذهلت، نظرت في الفراغ المطلق، لم أعد ألمح شيئا من صورة ذاتي الثانية.

ظلام كامل أم أنا عمياء !!؟؟

انحنيت على أرض القاع السحيق للسقطة، أبحث عن طريق حاسة اللمس عن القطع المتناثرة من المرآة ومن ذاتي الملتصقة بزجاج المرآة، المبعثرة على أرض الواقع المر، بأنامل تبكي دموعا ناشفة في الظلام الكلي، في زمن الصمت الكلي.

وضحك ديوجين في قبره.

طلعت الشمس، مشيت في شارع النهار أحمل القنديل وأبحث عن الانسان.

وقهقه ديوجين في قبره، ومشى تيها في شارع الخلود وعالم الخالدين. الانسان الحقيقي عانى ويعاني وسيظل يعاني مشكلة البحث عن الانسان، في عمق ذاته، وفي أعماق الآخرين، ومنذ عصر ديوجين مرورا بعصرنا الى مالانهاية.

ليس يأسا مطلقا، لكنه الانسان ذلك المجهول.

بحثاً عن الإنسان الإنسان ظهر لي فجأة رامبو الخليج العربي.

من هو رامبو الخليج العربي ؟

هو الشاعر عبد الله النويس..

عرفته لأول مرة في عمري هناك على شاطىء الخليج العربي في دولة الامارات العربية المتحدة في مدينة أبو ظبي، تلك الصبية الجميلة الناعمة الطالعة على الحياة العربية المعاصرة من قلب البادية، وردة بيضاء تتحدى عقم الرمال المحرقة، المطلة بفرح على بحر أبي ظبي الفيروزي الذي أخذ عقلي بعد أن سرق لون الفيروز ورقة النسيم في صوت فيروز.

عبد الله النويس، باسمه الكبير، هو وكيل وزارة الاعلام في دولة الامارات العربية المتحدة، وهو شخصية إعلامية خليجية عربية تتميز بالحس القومي العربي العالي وبالثقافة الرفيعة وبصفاء الذهن العربي الأصيل، ينبع من البادية والصحراء والمدينة والبحر معا.

في مكتبه ورنين الهواتف لايرحم قال لي بصوت هادىء، وربما كان يقولها لنفسه:

ــ أخاف أن يعلمني هذا الهاتف الحقد !!.

تحدثنا في شؤون الحياة السياسية والاعلامية على الساحة العربية، الاّ أن ذاكرتي قد احتفظت بالأفكار المضيئة التي تتعلق بأمور الحياة الانسانية العربية المعاصرة.

هو يعبّر عن آراء خاصة مختلفة تتعلق بالريح والشجر والبحر والصحراء والصيف والشتاء، بالجمال والقبح، بالمرأة والرجل، بالأنوثة والبطولة، بالجبن والجرأة.

عن الريح قال عبد الله النويس:
« الريح عندي أنين كائن خفي في الطبيعة، أسمعه، أحسه إحساسا حقيقيا، أتعاطف، أتجاوب معه ».

عن الشتاء قال، ونحن في أول شتاء عام / ١٩٨٠ /:
« أناقة الانسان لاتكتمل الاّ في الشتاء. الصيف يطرد الأناقة، وسيد الموازن في إحتضان الأناقة هو الشتاء ».

عن الانسان والحب قال الشاعر:
« الانسان الراقي، هو الانسان الذي يحب الصعب الحلو ».

عن الحب قال:
« إنه منتهى الإيثار، منتهى الأنانية ».

عن الجرأة قال:
« المقاييس تتناقض، لكن الذي لايجعلنا مدركين لتناقضها أننا لانزال تنقصنا الجرأة، الجرأة ليست موجودة لدى البشر ».

عن المرأة قال:
« خلق الله الشجر، والمرأة شجرة، الشجرة تحمل ثمرة واحدة. المرأة تحمل أكثر من ثمرة. تحمل أكثر من ثمرة لااعتباطا، بل حتى تعطي في كل

مجموعة لحظات ثمرة، فيصبح الغموض متوالية حسابية، ويصبح الافصاح متوالية هندسية.

الشجرة الوحيدة التي تحمل أكثر من ثمرة هي المرأة.

المرأة الغبية جدا، هي المرأة التي تظن أنها تحمل ثمرة واحدة.

المرأة الجميلة مسكينة، تريد أن تستولي على الرجل بسرعة، وتضمنه بسرعة، ثم تريه أقبح مافيها بسرعة.

هي إما مستعبدة بهبل، وإما حرة بغرور، وكلاهما يفقدها الأنوثة، ويصبح الرجل فراشة من امرأة لإمرأة بلا مستقر».

عن المرأة الحقيقية قال:
« المرأة الحقيقية هي المستعبدة الحرة في آن واحد.
وسيأتي وقت لابد أن تكون المرأة مستعبدة حتى تصبح الأنوثة هي البطولة، ولابد أن تكون المرأة حرة حتى لاتفقد نكهتها».

عن المرأة المثقفة قال:
« مصيبتنا بالمرأة المثقفة أن خبرها من رأسها، تحضر وتغيب، تأتي وتسافر، تقرر وتتصرف، دون أن تعود الى الرجل، فلا رجل يحكمها».

عن المرأة المثقفة قلت:
« المرأة المثقفة ثقافة حقيقية، هي المرأة الأنثى البطلة التي تفكر وتقرر وتتصرف بفعل إنسانيتها الحرة المطلقة وبفعل ارادتها وبفعل قناعاتها في أمور الحياة، وبفعل رجل حقيقي يحكمها بارادتها. هي المرأة التي يحكمها

رجل واحد فرد بين الرجال، هو الرجل الذي تحترم وتحب. وليست هناك امرأة بلا حاكم، سواء بارادتها أم قسرا عنها. والأولى سيدة حرة، والثانية إنسانة سوف تتحرر من العبودية العمياء يوما.

ولن تكون هناك أنوثة ترقى الى قمة البطولة ان لم يقف مقابلها، الى جانبها وداخلها رجل بطل.

بالمقابل، الرجل البطل هو الذي يملك حق الحياة والحب والاحترام الكلي مع إمرأة حقيقية حرة ومستعبدة، يحكمها كرجل حقيقي، يعيش حريته المطلقة مع تخليه عن التعدد باتجاه الواحدة، تحكم سلوكه ومصيره إمرأة يعيش معها ولها، حرا بها ومستعبدا لها بارادته المطلقة. ولن تتحقق العلاقة الانسانية العاطفية المثلى بين رجل وامرأة في هذا العصر الاّ بتحقيق هذه المعادلة، أن يكون سجن الحب هو الحرية.

وعادت الطائرة بي الى الشام حبيبتي.. حيث ينتظرني بشوق عاقل مجنون، حاكمي وسيدي، الرجل الذي يحكمني ويمتلكني قريبة بعيدة، وأحكمه وأمتلكه قريبة بعيدة. وكلانا يشكل طرفي المعادلة الصحيحة. فيه حاكم ومحكوم وفيّ حاكمة ومحكومة، وبنا قد تحققت أسطورة الأنوثة البطولة والرجولة البطولة، وكل منا أسير وحر.

عدت الى الشام.. على وعد أخضر لأهلي الطيبين في أبو ظبي، أن أعود إليهم وألبي الدعوة في زيارة طويلة ورحلة عميقة عبر الامارات العربية المطلة على الخليج العربي، لأسبر غور الصحراء كما البساتين والحدائق

المعجزة، لأنفذ الى الأعماق كما الشواطىء، لأصطاد الكلام الأصيل الصافي كما اللآلىء والظباء والصقور، كي أرسم بحروفي لوحات مضيئة عن تفاعل البداوة بالحضارة.

**من أوراق الربيع ١٩٨٠**

# نزيف الروح

عندما تشتعل نار الفكرة، لاشيء يطفئها الاّ نهر البوح بالصدق والاعتراف بمرارة طعم الحقيقة.

وكأني بهذا البوح، الفاجعة، قد تحول الى سائل ناري حارق يسيل في قنوات غير مرئية تشكل شبكة خفية في جسد الانسان، الى جانب شبكة الأوعية الدموية والأعصاب، تشعل كيان الانسان كله، تلذغه بألسنة من نار تهب من حريق داخلي كبير لافكاك منه، الاّ عندما يصب هذا السائل الناري في وعاء الروح الكامن كالكهف بين صدر الانسان ورأسه، بين قلبه وعقله، بين قلبي أنا وعقلي أنا، وأنا صورة من صور الانسان يحترق ويدرك أنه يحترق، يتخلص من الاحتراق والتفحم، بأن يكتب بأصابع نارية ملتهبة عن الحريق الانساني يهب كالاعصار داخله، يلتهم كل ماتبقى من فرح الأيام، وأغصان شجر العمر الأخضر.



وتطفح مغارة الروح بالسائل الانساني الناري المتفجر بقوة الغضب والثورة والتمرد والرفض، وتتهاوى قشرة الارادة المرسومة ضد قوى الانسان المادية والروحية الطبيعية، ويتفجر البركان من فوهة ضعيفة واهية غير قادرة على مزيد من الاحتمال، موقعها الجغرافي بين أصابعي الثلاثة تعانق حبيبها العبقري، القلم، بين الابهام والسبابة والوسطى.

عن فيض مغارة الروح عندي أحدث.

من مغارتي ...

تسيل النار الانسانية حروفا مجمرة على ورق بارد، تماما كالحمم البركانية الحمراء تقذفها قمة جبل بركاني ثائر غاضب على السفح، فتتحول مع الايام الى أحجار باردة، نعمر منها في مستقبل الأيام بيوتا نسكن اليها وفيها.

يرتاح الجبل البركاني مما بداخله ويقدمه هدية للطبيعة. قد تكون هديته أحجارا سوداء بلا قيمة، وقد تكون أحجارا كريمة فائقة القيمة، وقد تكون ماسا وذهبا وفضة عالية القيمة.

كالجبل البركاني الثائر أنا.
جبل لايخمد.

قمته، فوهته المفتوحة على الحياة دائما وأبدا في غليان وهيجان وعطاء، تمنح الغث منها قصورا، وتحلم بأن تفيض يوما بالثمين.

هي، عند ملتقى أصابعي الثلاثة، حيث يسكن العبقري، القلم،

نبع نهر الحياة الفكرية الروحية يطفىء شوقي الى الحياة والعطاء والتخلص من نمو الذات .

هي ، عند ملتقى الابهام والسبابة والوسطى حيث يتم نزيف الروح خارج الجسد .

روحي في نزيف لاينقطع ، وأنا في دهشة !!؟

كيف يستمر وجودي المادي ، مادمت معرضة لهذا النزيف ليلا نهارا بلا توقف ؟.

من أي مصدر خارق تستعيض الروح مافقدته إثر هذا النزيف الخطير ؟.

حتى اليوم لم أسمع عن بنك للروح يعادل بنك الدم ، يعيد للانسان مافقده من طاقة روحية ، تماما كما يفعل بنك الدم في حالة النزف الدموي .

سألت الطبيب تعريفا للنزيف الدموي ، عل المقارنة تساعدني على التفسير والوصول الى حل علمي يقضي نهائيا على مشكلة الروح العنيدة ، تؤرقني وتحرمني سلام الصحة النفسية في عصر ينهار ، يضع المادة قبل الروح مع الأسف ، ويضحك ساخرا من قلبي ، لاينسى أن يمجد عقلي الرياضي ، متهما إياي بالرومانسية المنقرضة في عصر الفضاء والحرب النووية المحتملة .

أتتني الاجابة العلمية الطبية الأكيدة من طبيب غير رومانسي ، ولاينتمي الى الروائي الانكليزي المعاصر الدكتور سمرست موم :

« النزيف الدموي هو خروج الدم من أماكنه، أماكن خزن الدم كالقلب والطحال وسريان الدورة الدموية، ومن الأجواف الدموية كالشرايين والأوردة والشعيرات. والنزيف الدموي إما داخلي الى أجواف المعدة كالمعدة والأمعاء والرحم، وإما خارجي عن طريق الجلد أو الفم أو الأنف.

تعلقت أكثر فأكثر بحديث الطبيب، بمعلوماته الجغرافية عن الجسد، بقناعاته العلمية الثابتة التي لاتخضع للخيال والتأويل وقانون الاحتمالات.

سألت مزيدا من الأسئلة واللهفة تلفني:

— وكيف يتوقف النزيف الدموي ويتمكن الطب من انقاذ حياة الانسان؟

قال بثقة وموضوعية لاأثر فيهما للعاطفة:

— مهما كان النزيف صعبا يمكن القضاء عليه، ومهما كان الدم النازف كبيرا يمكن تعويضه عن طريق نقل الدم.

— والنزيف البسيط.. ؟

— النزيف الأنفي مثلا، نوقفه بالضغط على الشعيرات أو مايسمى (الإرقاء بالدك بالشاش).

— وجرح اليد دكتور.. ؟

— مجرد حدوث نزيف، يحاول الجسم بشكل ذاتي إيقاف النزف.

ويتم التخثر بثلاث آليات :

١ــ التقبض الوعائي للشعيرات .

٢ــ تكثف الصفيحات الدموية .

٣ــ عوامل التخثر الداخلية والخارجية ، يتحول بنتيجتها (البروسرونبين) الى « فرونبين » وهذا يسهم في سد ثغرات النزف ويكون الخثرة .

ــ دكتور ..

ــ النزيف المادي يمكن تعويضه مهما كان كبيرا ، يعوضه الجسم بذاته من « السائل الخارج الخلوي » .

ــ أين يقع مكان هذا السائل على خارطة جسم الانسان دكتور ؟ .

ــ يقع خارج الدورة الدموية ، ومباشرة على التصاق معها ، يوجد في الفراغات بين الخلية الحية والدورة الدموية ، وهو واسطة نقل بينهما .

عدت أسأل الطبيب وأنا لست المريضة ، والمريضة بحب المعرفة ، للقضاء على المشكلة الانسانية ، وهي في الأصل جهل ، والمعرفة هي عندي دواء الأمية العاطفية والجهل الروحي الذي يفتقد المنطق المادي الجدلي .

عدت أسأل سر تجدد الخلايا الحية لجسم الانسان ، عل الجواب يدلني على سر موت خلايا الروح وتجددها ، علني بالمعلوم أفسر المجهول !! ..

واكتشفت من إجابة الطبيب الشاب الموضوعية العلمية الجادة التي لااجتهاد فيها، بأن الخلايا الحية لجسم الانسان تتجدد باستمرار بشكل دوري حسب نوعها.

ومن معلوماتي المدرسية المنسية في علم التشريح أيام البكالوريا، عدت أتذكر مع صوت الطبيب بأن للخلايا أنواعا، الخلايا النبيلة كالخلايا العصبية وخلايا الكبد والكلية. والخلايا النسيجية والبشرية والعضلية.

واكتشفت أن الخلايا العصبية النبيلة هي التي اذا ماتت لاتتجدد. حتى خلايا الكبد والكلية قابلة للتجدد، أمّا الخلية العصبية فهي نبيلة فعلا، ووجودها لايحدث الاّ مرة واحدة والى الأبد كالحب الحقيقي، يحدث مرة واحدة والى الأبد.

وقال الطبيب وهو لايدري لم تسأل هذه الكاتبة غير المريضة، التي لم يسمع بعد أن الدم يتفجر من حلقها، قال ببراءة علمية يقدم مزيدا من الشرح الهام جدا:

« الخلية العصبية لاتتجدد، أما اذا تلف منها المحور العصبي أو الاستطالة، فالتجدد بهما فقط ممكن !! ».

يالها من اجابات حاسمة نهائية حول تجدد الخلية الحية، وتعويض الدم النازف بنقل الدم.

وسؤالي حول نزيف الروح قد يجد الاجابة عند الخلية العصبية النبيلة، انها بنبلها، بعنادها على موقفها من صدمات الحياة تحاول الرد على

المشكلة، نزيف الروح، ومن يدري ربما تكون هذه الخلية النبيلة هي مصدر الطاقة الروحية.

وكأني بخلية الروح توأم للخلية العصبية النبيلة، تعيش مرة واحدة وتحب مرة واحدة وتعطي ذاتها مرة واحدة، وتموت مرة واحدة، وهي لاترتدي كل يوم ثوبا مغايرا، وهي مخلصة لذاتها لجوهرها العالي، لدورها في الحياة، لاتحب أن تمثل أدوارا متنوعة لشخصيات متناقضة المبادىء والقيم والطباع.

أحببتها هذه النبيلة. قصتها تعادل قصتي مع الحياة، مع كل أحداث الحياة.

روحي في نزيف..
نفوراً من كل صور الشر والقبح والكذب والظلم والكره.
روحي في نزيف..

إمتلاء بكل قيم الحق والخير والصدق والعدل والجمال والحرية والحب.

ان خلية الروح النبيلة في الانسان تؤكّد لي أن هذا النزيف الروحي الثنائي الجانب حالة انسانية طبيعية. وان آلية الحياة الروحية التي لم يكتشفها الطب المعاصر بعد، سوف تعوض الخسارة وتسد بخثرة الارادة والكبرياء، نهر هذا النزف السلبي العجيب، يتفجر من فوهة الغضب البركاني الانساني، من نقطة التقاء حبيبي العبقري، قلمي، بأصابعي الثلاثة، الابهام والسبابة والوسطى.

كانت جدتي «أم عزيزة» رحمها الله، تضغط قليلا من البن على

جرح في يدي، وأنا طفلة صغيرة مجروحة باللعب في الحارة، فينقطع الدم الأحمر !!. إنه الطب العربي الشعبي العبقري في الشام أيام زمان.

أحاول قطع النزيف عن جرح بالغ في روحي بشرب القهوة العربية المرّة..!! لأقلد حكمة جدتي. تفشل التجربة، وشريان الروح مفتوح ودم الروح ينزف، وطاقتي الروحية تسيل نهرا خارج الذات الى وديان الطاقة الضائعة المؤدية الى بحر الحزن العميق.

فقدت قدرتي على تحمل الأذى على سلام الروح وتوازن الجسد، أدركتني اليقظة والوعي الكامل لكل سلبيات الحياة، وانهار سد الارادة وتفجر بركان النزيف الروحي الصامت.

عقلي يدرك فجور الحقيقة بوجهيها الأبيض والأسود، وعيني ترى الواقع جيدا، وقلبي كالبحر يرتطم بالصخر، ونفسي كفراشة ترمي نفسها على نور قنديل « المستحيل » وتنتحر، ونزيف الروح يهدر كشلالات تل شهاب أيام زمان، أيام طفولتنا المدرسية السعيدة على بساطتها.

روحي تنزف الى الداخل، فهل يدلني أحد في هذا العصر على بنك للروح أذهب اليه يعوض لي، طاقتي الروحية، خسارتي الانسانية، سلام الانسانة المعاصرة مني !!؟

هل من أحد !!؟

**من أوراق الخريف ١٥ أيلول ١٩٨٠**

# أنا تحت المطر بلا مظلة

اليوم .. !!

السبت ٢٦ كانون الثاني ١٩٨٠ .

لم اليوم !!؟ وليس الأمس ولا الغد ؟ لاأدري .

اليوم .. السبت أحد الأيام الأول من العام الجديد ، وليس الأمس الجمعة ، ولا الغد الأحد .

اليوم حدث الانفجار ، وتطايرت شظايا الروح « وفتافيت » القلب بفعل تفجر البركان الكامن بسكون خطير تحت بشرة العقل ، وتناثرت قطع الذات المفكرة المعذبة بفعل جنون حرارة نبع المائع الناري الانساني في مركز « الأنا » ، وارتمت متهالكة فوق السطح البارد للانسان وللطبيعة ، ترتديها



حروفي وكلماتي كمعاطف من حنان ودفء الفراء الأبيض، ترد عنها مايغشى الطبيعة من برودة شتائية قاسية على الجسد، حانية على الروح.

اليوم حدث الانفجار داخل ذاتي وليس الأمس ولا الغد، ولاأدري من منا أكثر حظا من الآخر، «السبت» أم «أنا» !؟ هذا النهار أم ذاتي !؟ فهو قد استيقظ مبكرا منتعشا بأمطار الليلة الماضية ليستولي على آخر معقل للسكون والصمت في قارتي المجهولة الساكنة.

. و«أنا» قد أفقت مبكرة، معافاة، معطرة بدفء فراش الشتاء الحنون كصدر أم وضمة حبيب. أفقت مشرقة بحب الحياة، متفجرة بالرغبة في الحركة والعطاء بفعل تأثير إيقاع موسيقى المطر على زجاج نوافذ سيارتي وغرفتي ونفسي وسطح بيتي، منذ بداية الليل حتى آخر الليل.

وكان أن تم استيلاء الروح القوية في صدري على ناصية هذا الصباح الممطر وجدا ومطرا، الباهي تيها وخيلاء في عمر الزمن العربي، الكبير العظيم، أخذا وعطاء.

أخذته هذا «اليوم» وأخذني كليا حتى آخر مدى، فجرته وحررته عشقا وفجرني ونثرني على الورق قطعا ذهبية لاتقدر بثمن، ذرات من البوح والعري النفسي، ترن على الورق رنين الذهب الغالي في هذا الزمن الصعب على أرض الواقع الفقير.

اليوم، حدث الانفجار، وآن أوان الظهور من كهف الذات الى

شمس الآخرين، من قبو فضيلة الصبر والصمت الى قمة جبلية أولمبية معاصرة حيث كل شيء مرئي ومسموع ومعروف ومحقق ومقدس وإلهي .

هل قلت شيئا حتى الآن ؟؟ لا .

أكتب أنا عن ذاتي ، تكتبون أنتم داخلي عن ذواتكم ، فيسيل الحبر الأحمر بلون الدم منكم إلي عني ، مني ، اليكم ، عنكم .

من أنتم !!؟ لاأدري . بل أنا أدري .

أنتم وأنا واحدة منكم ، أنتم الأرواح المتعطشة مثلي ، مثل التربة العربية الحمراء اليابسة المتعطشة للغيث ، مثل الصحراء العربية الرملية القاحلة العطشى الظمأى للأمطار النازلة من سماء المعرفة .

وهل اذا نفنف المطر شتاء ، تنبت في الرمال المحترقة زهرة بنفسج !؟. ويضحك سن طفل جائع من الشبع ..! وهل اذا غازلتنا المطر شتاء ونحن في أسرّة الدفء ، وغنّت لنا تحت شباكنا كما غنى روميو لجولييت ، أغنية حب ناعمة عذبة ، تنبت في صحارى مشاكلنا الكبرى والصغرى ، القومية الوطنية ، واليومية الحياتية ، والشخصية الذاتية العاطفية ، أزهار من الحلول ومشاتل من السعادات وغابات من الابتسامات وبحار من الآمال وسماوات من الحريات !!.

لا ... طبعا لا .

اذن ، لم أكتب لكم في زمن المطر عن أفكاري وأنا تحت المطر بلا مظلة ، وتحت رحمة المشاكل بلا أمل في الحل !؟

أعرفكم ولا أعرفكم، أراكم ولا أراكم، أسمعكم ولا أسمعكم، أعرف مابكم ولا أعرف.

من طبيعتي الغريبة، أنني أعرف ولا أعرف، من طبعي المختلف أن أرى البعيد وأسمع هدير الصمت وألمس الأفق وأعشق الغائب، وأحب الألغاز، وأدرك سر الغموض، وأتحد مع المطلق. وكلما ارتفعت الأصوات كلما أصبت بالصمم، وكلما فرضت علي مواقف لاأحبها ووجوه لاأرتاح لها، كلما ازددت بعدا عنها ونفورا منها وجهلا بها، وكلما ازددت تعلقا وولها بمن لاأعرف، بمن لايدعني أعرف كل شيء، بمن لاتحده حدود جغرافية نفسية ولا تسبر له أغوار، بمن ترك لي حرية الاختيار، حرية العشق، حرية التعبير عن إرادة الانسان القوي الحر العملاق داخل هذا الجسد الصغير الضعيف، جسدي، جسدكم، جسد الانسان.

أكتب عن ذاتي تحت المطر.

تكتب «المطر» عن ذواتكم داخلي فيسيل حبرها الشفاف مع دمي مني اليكم عنكم لكم.

من أنتم..!؟ قلت لاأدري.

من أنا..!؟ أيضا لاأدري.

بيني وبينكم علاقة حلوة تشبه علاقة الماء والسكر في كأس من الماء المحلى، بيني وبينكم علاقة مالحة تشبه علاقة الماء والملح في كأس من ماء البحر.

إن ذاتي الضعيفة الفقيرة قد لملمت بعضا من ذاتها وثرائها من ذواتكم العظيمة ، وان كان في ذاتي ذرة من ماء الذهب الخالص فهي آتية ولاريب من أنهار تنبع من مناجمكم وجبالكم العالية . ومع دورة السنين والفصول والأيام والساعات والدقائق والثواني ، أحاول عبر إنصهاري ببوتقة المائع الناري في العمق مني ، أحاول التخلص من شوائبي ، كي أغدو أكثر قربا منكم من سبيكة الذهب الخالص الحر ، أحلم بنقائها وجودتها وعلو عيارها وتحلمون .

عملية التخلص من الشوائب عبر الانصهار في بوتقة الحياة المعاصرة ، تغلي تحت مرجل المائع الناري لاحداث العصر ، الصغيرة منها والكبيرة ، هي مرحلة من مراحل خلاص الروح الانسانية .

وان كانت برودة الرياح والأمطار والثلوج والأعاصير ، عاملا من عوامل حريتي من التبلد الذهني والعاطفي في الصيف ، فإن غليان المائع الناري للتجربة الحياتية ، هو عامل من عوامل تحرري وتحرركم من شوائب التبلد الحسي والوطني والانساني ، للعودة بكم الى الأصالة الانسانية والأكثر صدقا وصفاء وعطاء وارتباطا بالوطن الأم .

بدءا من عار تبادل السفراء بين مصر واسرائيل كشعور عام على الساحة العربية ، مرورا بمشاعر مواطن حانق ويائس من إمكانية تركيب هاتف لبيته ، وصولا الى فاجعة مقتل مواطن جيد طيب مثقف وعلى خلق كريم ، بيد جاهل قد رضع الحقد من ثدي تناقضات التاريخ قبل أن يتمكن

عقله من استيعاب وتحليل أحداث التاريخ العربي بحس عربي قومي علمي واع، يمكنه أن يفرق بين الأسود والأبيض والرمادي.

بين هذه المحطات النفسية الثلاث وغيرها كثير ينمو الى مالانهاية، يتحرك قطار النفس بلا رحمة.

متعب يسافر قطار النفس العربية المعاصرة، يكاد تعدد الاقلاع والوقوف المفاجىء، يهد كيانه، ويصيب عرباته بالتخلخل. عند كل محطة تنتظره مشكلة تسحب من روحه كل أمل بالمستقبل، وكل رغبة في محاولة النهوض ثانية والقدرة على الاقلاع والرحيل.

بين هذه المحطات «المشاكل» اليومية تتحرك قطاراتنا المتعبة، الاّ أنها مازالت تجر «عربة الأمل» وتجعلنا نحارب الدمعة بابتسامة، ومازالت «عربة القيادة» تشعل الأضواء لتفتح الطريق نحو المستقبل الأفضل، تتراكض بسعادة على جانبيها الأشجار الخضراء وتترامى الحقول الزمردية، تتغامز فيها أضواء شبابيك عربية سعيدة بمن فيها رغم الليل الحالك، تشير الى حيث تسكن الطمأنينة الموعودة في بيوتهم الجميلة، حيث لا حقد، لا فقر، لا كذب، لاغش، لا تمثيل، لاقلق، لا تآمر، لا خوف، لا ازدواجية، لا أعلى ولا أدنى، لا جريمة، لا حرب، لا احتلال، لا عدو.

تنزل الأمطار صيفا شتاء على أوروبا، وتنزل معها تلك السعادات القصوى على شعوبها التي تنام في أسرّة الرفاه الانساني.

وينبع البترول من باطن صحراواتنا العربية القاحلة حيث لا مطر

ولا شجر، ويتفجّر معه دفء الثراء في بيوت القرميد المغطاة بالثلوج في جنان الغرب والغربيين السعداء، لا في بيوت العرب الفقراء.

وأتساءل، وأنا في عتمة الليل العربي البارد، أفرح فرح طفلة فقيرة بملابس العيد الجديدة، أفرح بالأمطار الغزيرة ترسلها الرحمة الالهية علينا من سماء دمشق بعد سنوات من الجفاف الطويل، في السنة الثمانين بعد التسعمائة والألف، أتساءل، أسأل مطر الشام، مطر الوطن كل الوطن:

ـــ يامطر..!!. لم أنت هكذا بوجهين، بقلبين، شرقي وغربي، يساري ويميني، تأتي وتغيب، قادر على الحضور الكلي، قادر على الغياب الكلي! وعلينا فقط أن نقبل الغياب ونقبل الحضور دون أن تتأثر عواطفنا نحوك سلبا!.

لم لا تأتي الينا صيفا شتاء ربيعا خريفا! وتلوّن أيامنا ولياليناً بالأخضر، بالحب، بالقوة، بالأمان، بالسعادة..!! لم لا..!؟

طفلة صغيرة أنا أتمنى أمنية خبيثة لن تتحقق بسهولة الاّ بعد أن تمر أعمار جيولوجية للكرة الأرضية.

أتمنى لو تتحقق نبوءة علماء الجغرافيا في هذا العصر، وأرى بأم عيني «زمن التحول» وأننا قد تبادلنا المقاعد نحن العرب مع الأوروبيين والأمريكيين، وأن الأمطار قد اختارت الوطن العزبي والصحراء العربية بيتا لها تنام فيه، وان الشمس قد اختارت أوروبا صحراء جديدة لها تتحرك فيها قوافل الجمال ويسود الجفاف والعطش.

ترى ماالذي سيحدث لانساننا وإنسانهم ؟ ترى ماالذي يحدث يامطر .. ياصديقي المطر !!؟ .

هل نظل نحن العرب ، تغوص أرجلنا في الطين ، وتلعلع أصواتنا في الميكروفونات دون أن نتمكن من اختراع جزمة ..!!؟ أم أننا سنستورد أبجدية جديدة كأبجدية أوغاريت من حضارة الصحراء الأوروبية المقبلة المفترضة ، كما استولى الاغريق والرومان والأوروبيون بعدهما على كنوز الأرض العربية الغارقة في شمس الحضارة والروح والفكر والفلسفة والعلم والشعر !! ثم نبدأ فجر الحضارة من جديد كما فعل الغرب بالشرق تماما !؟ .

هذا هو سؤالي يامطر .
هذا هو سؤالي ياعرب .

في البدء هبت الريح ، وكنت بدوية عربية في مهب الريح بلا خيمة !!.

واليوم نزل المطر ، وصرت إنسانة متحضرة تحت المطر بلا مظلة !!

ياله من غد تضيع فيه الروح وتبكي ، في الشمس وتحت المطر ، في الصحراء وفي الغابة ، في الأمس وفي الغد .

**من أوراق الشتاء ٢٦ كانون الثاني ١٩٨٠**

# رسالة إلى الثلج

صباح الخير ياثلج .. ياهدية الله للشام، للوادي لبلودان والزبداني وصيدنايا ويبرود والنبك ..

ياهدية الله للوطن ... صباح الخير ياثلجي أنا .. ياأنا .

ياثلج .. أخيرا أنت في بيتنا ، في عيوننا وقلوبنا وعلى شبابيك بيوتنا وشرفات بيوتنا وأساطيح بيوتنا وعلى رؤوس أشجارنا ووجوه أراضينا وبحيراتنا تنزل ثم تسافر مع الموج في بحرنا وأنهارنا ، تطلع وتستقر على قمم جبالنا ، تهدي الأقرع قبعة بيضاء، وتقدم لجبل الشيخ عمة بيضاء كلها هيبة ووقار .

يالها من مفاجأة لم يحتملها قلبي ، وقد أهلكه الانتظار .



أكتب لك رسالتي الغزلية هذه من الشام، هي رسالة بوح ووجد أعلن لك فيها حالتي معك، وحالتي معك لها تاريخ طويل يعود الى طفولتي الأولى، صغيرة ـــ كبيرة، أعي تفاصيل الحياة حولي وأختزنها في صندوق الذاكرة المرصع يضم، ويخبىء لي كنوزي، ذكرياتي، أحكامي على الحياة، انفعالاتي بوهج الحياة وعصر الطفولة الذهبي رغم آلامه ونقائصه وفقره وجهله.

لعبي المفضلة العزيزة ضمن الصندوق المرصع بالصدف والعاج والقصدير، لم تكن لعب أطفال، كانت صورا لجمال الطبيعة في الفصول الأربعة في حارات الشام، لسكانها وأسواقها وبيوتها العربية وأشجارها وقططها وخيل عرباتها الحنطورية، تحملني الى أحلامي الوردية الذهبية من المرجة حيث يهدر بردى، الى صدر الباز والربوة ودمر والهامة والمهاجرين والشيخ محي الدين. وان نسيت من شتاءات الشام المثلجة في الأربعينات فهل أنسى سعادتنا القصوى أطفالا نأكل من أيدي أمهاتنا وآبائنا « السويق » الثلج بالدبس، أو الثلج بعصير البرتقال المحلى أو بشراب الليمون ؟ وهل أنسى كيف يصحو أطفال كل بيت دمشقي كي يأكلوا السويق لا أول يوم لنزول الثلج، بل في المرة الثالثة تطبيقا لحكمة العامة: « أول مرة سم، وتاني مرة دم، وتالت مرة كول ولاتنهم » !. وهل ينسى أطفال الأربعينات في الوطن عامة والشام خاصة، كيف كنا نحتفل ونشارك بنزول الثلج جميعا بصنع رجل الثلج في الديارات وعلى المشارق والأساطيح وفي الأزقة والحارات، نلبّسه لباس رجل وقور، مرة عربي، مرة أجنبي، نخلع عليه طربوشا، نحمّله بصطونا، نرسم معالم وجهه بقطعة من فحم المنقل غير المشتعل، نضيّفه

بسيجارة في فمه، وقد نزيّن رأسه بقبعة غربية، برنيطة خواجه في فمه بايب، في جيبه ساعة بسلسال من ذهب !! في يده شمسية !!

وان كنت أنسى، فهل أنسى كيف كان أهل الشام يتضاربون يتغازلون بكرات الثلج الهشة ويضحكون بطيب وبراءة يفرحون بالخير والبركة النازلين من السماء، وكيف كان رجال الجيش الفرنسي من المرتزقة السنغال، يمازحون المواطنين يضربونهم بكرات ثلجية داخلها حجارة تدمي رؤوس الأطفال والناس من نساء ورجال !! مزح إستعماري !!

وأكاد أبكي، لكني كنت أضحك وأختي نايفة الأصغر مني سناً، ونحن نسير من بيتنا في طريق الصالحية الى مدرسة زبيدة الابتدائية قرب ساحة عرنوس، تميد بي الأرض، أحاول التوازن أتزحلق، أقع على ظهري، تقع من يدي « الصفرطاس » وشنطة الكتب، ويضحك الصبيان، لاينكسر ظهري، أكاد أبكي، أقف، أنفض الثلج عن صدريتي السوداء، أمشي، تسقط أختي بعد خطوة، أضحك، تبكي أبكي، أحملها، أنفض لها صدريتها، أضحك، تضحك نضحك، ونصل المدرسة، ندخل باحة المدرسة الغارقة بالثلج، نمر ممرات المدرسة، نصعد أدراجها الخشبية المبلولة بآثار أقدام التلميذات الصغيرات المحملة بالثلج الملوّث بالطين الأحمر، نتمسك بالحيطان. نسمع قرع الجرس وندخل الصفوف أرواحاً ضاحكة مشرقة منتعشة بقوة سحر الثلج العظيم، دون أن ندري أو حتى دون أن نفكر بسر العلاقة بين الفرح والثلج.

ياثلج .. وكنت أنت لعبتي وصورتي وأيقونتي وحجابي ورقيتي وخرزتي الزرقاء وكنزي.

منذ البدء، معك وبك خلقت.

منذ البدء، معك وبك وحدك أفسر الغموض حولي، يتفتح عقلي الصغير ويزدهر جسمي البرعم، وتصير الصغيرة كبيرة ترسم صور الحياة، بريشتك البيضاء، على حيطان الذاكرة، وعلى شغاف القلب.

قالت لي أمي «عزيزة»: ولدتك ياسهام في ليلة ثلجية في حي العمارة في بيت كنا نسكنه قرب الطاحون. وهذا قد يفسر لك سر تواصلك العضوي واتحادك بالثلج. أنت والثلج توأمان.

ياله من خبر أتاني من عمق الماضي ليفسر لي من أنا في الحاضر. إذن أنا الشقيقة التوأم لك ياثلج، إذن أنت أنا! يالسعادتي بك.. ياللفرح الأبيض النقي. نزلت على الشام عندما نزلت أنا الى الشام، والآن تنزل على الشام أنت وأصعد بك، بالشام الى الأعلى أنا.

ياثلج.. انزل انزل انزل. أندف أندف أندف !!

عندما كنت تنزل في العيد الكبير، عيد الأضحى المبارك، كانت يدي الصغيرة ترتاح تستكين بدفء في يد أبي فهمي أفندي الترجمان بن مصطفى آغا الترجمان، « أبو صلاحين شيخ الشباب وصح الصحيح »، نسير معا أجرّ معي أختي الأصغر نايفة من يدها، يجر أبي معه أخي الأصغر محمد علي من يده، لابد أن نشكل « الآس » صباح أول أيام العيد الباكر قبل مطلع الشمس، على قبر جدنا مصطفى آغا الترجمان، وعلى قبر جدتنا تيتي أم فهمي وعلى قبر جدنا لأمنا الشيخ علي قاسم البهلول الجزائري، فزيارة الأموات صبحة العيد أمر واجب على كل أهالي الشام.

في أبهى ملابس العيد الشتوية، نستقبل العيد بكل فرح، دون خوف أو رهبة من الأموات وشواهد القبور والقبور. في تربة الباب الصغير في دمشق، نعطي الشحادين من عيديتنا من مال الله، ونقفز ونتقافز بين القبور، كي نستدل على قبور « أهلياتنا » رحمهم الله وأسكن أرواحهم الجنة، نقرأ الفاتحة على روح كل منهم ونعطي السقاء ماتيسر لسقي « الآس » الذي ربطناه بالشواهد، وقد استقرت جذور أغصانه في جرن القبر، ولايبخل أبي باستئجار الكراسي القش الصغيرة المنخفضة، وتكليف مقرىء للقرآن أعمى بالقراءة على أرواح أمواتنا، وعندما تطلع الشمس، والنفوس قد هدأت من روعة الظلام وهيبة الموت، يبدأ أبي بالتعرف على الناس من الجيران والأصدقاء والأهل ومعايدتهم، سعادتنا لاتفوقها سعادة، أقدامنا الصغيرة تنغرس في الثلج، أيدينا الصغيرة تتلوث بالثلج البارد يغطي أسنمة القبور، نقبّل أيادي الكبار والعجائز من رجال عائلتنا، نعايدهم وأعيننا على اليد الطيبة العجوز تدخل جيب السترة أو « الباردسو » أو العباءة أو القنباز الجوخ، تخرج بالقروش الحبيبة، بالعيدية.

هل تتذكر هذا الكلام أيها الثلج..!!

فيك كان عيدنا يغني، وفينا كان الثلج يزقزق عصفور حب.

هل تتذكر ياثلج، سعادتي وسعادة اخوتي، يوم نزولك على الشام ليلة ميلاد السيد المسيح عليه السلام، في الخامس والعشرين من كانون الأول من كل عام، الليلة نفسها التي كان يحتفل فيها بيتنا الشعبي العربي في حي سوقساروجه ــ حارة القره ماني، بعيد ميلاد أخينا الغالي الكبير صلاح

الدين، وهو عيد الميلاد الوحيد الذي فرح به أحدنا، وكأنه عيده، عيد ميلاد كل واحد منا، فلم تكن لنا أعياد ميلاد ولا شموع ولا قوالب حلوى.

لا عيد ميلاد في بيتنا إلاّ لصلاح الحبيب، نأكل فيه الكنافة المدلوقة المغطاة بالقشدة ونأكل الشوندر الساخن، ونشرب الشاي بالقرفة. كان عيداً عربياً بلاشموع على قالب كاتو على الطريقة الاوروبية.

وان نسيت ياثلج، فهل أنسى أن أخي صلاح الدين الذي كان يحب عيده ويتفاءل به عيدا متزامنا مع عيد أبناء الشام الطيبين الأعزاء من الأخوة المسيحيين، فتمتد يدا صلاح الدين ليدي ويد أختي نايفة، بينما يد أختي الكبرى نهلة تشد على يد الصغير محمد علي، لنذهب وبسعادة قصوى في ليلة الميلاد الباردة المثلجة، نحن أبناء الأسرة العربية المسلمة من أسر الشام، كي نقوم بزيارة عدد من الكنائس العربية العتيقة في باب توما والقصاع، وزيارة كنيسة الفرنسيسكان مقابل مدرسة الراهبات « الفرنسيسكان » في الصالحية قرب البرلمان ووزارة الصحة. نسرع بعد أن تنتهي الصلاة ليلة الميلاد وقد استمعنا اليها باحترام وخشوع ورهبة ومشاعر غامضة يثيرها فينا جو الكنيسة المقدس وعطر البخور، وأنوار الشموع، نلحق بأمنا وأبينا، الى « بيت الشماس »، الى بيت أصدقاء الأسرة الأعزاء معزة الأهل وأكثر، من الدمشقيين المسيحيين الشرقيين العريقين، بيت عمي أبو فريد وخالتي أم فريد، السيدة « روز برصا »، رمز الحنان والمحبة والطيبة، بيت « سليم الشماس » في حارة شرف ــ طريق الصالحية، نعايدهم، نحتفل معهم ومع أولادهم ببهجة العيد في ليلة الميلاد المثلجة التي غطت الشام بالطهر والبياض والنقاء والتسامح والمحبة، نسكن بفرح وذهول قرب « المغارة » الكبيرة في

الركن، المصنوعة من الورق ذي اللون الترابي، المنورة بالشموع والألوان والقطن ممثلا عن الثلج، تتصدرها « المقدسة مريم العذراء »، والطفل المعجزة الالهية النبي السيد « المسيح عليه السلام »، الوليد المقدس، تدفئه أنفاس الخراف والحيوانات، يحيط به الرعاة العرب، لانكاد نتحرك أو نتحول بأنظارنا عن المغارة من فرط الاعجاب والانجذاب الروحي. وحدي... كنت أتساءل في سري كيف يولد السيد المسيح الليلة، مع أنه قد ولد من زمان...!!؟ ولا جواب يريح فضول طفلة لم تعرف بعد معنى كلمة « ذكرى ولادة ». أبلع السؤال خوفا من ارتكاب ذلل في اللسان في موضوع مقدس. لا أسأل أمي، ولا أسأل خالتي أم فريد. لاأسأل أبي، ولاأسأل عمي أبو فريد الذي يتربع على مقعده سعيدا بهذه « الجمعة » العائلية العربية الشامية الشعبية المسلمة ـــ المسيحية، يدخن « الأركيلة » التي لاتتوقف خالتي أم فريد عن العناية بجمرها المتوقد المتوهج، جمر ينطفىء، وجمر تحضره من ديار البيت العربي في عز ليلة عيد باردة. ينتهي العشاء الطيب جدا، لأنه ليس في بيتنا، حتى الزيتون الأسود في بيتهم والقريشة مع الخبز المقمر على المدفأة الحطب، كان له طعماً مختلفاً لاأنساه. ينتهي العشاء، وليس هو العشاء الأخير، وتبدأ السهرة الحلوة بممارسة الشبان والشابات والأطفال اللعب العائلية المرحة، وسعاد تتزعم فقرة الألعاب، وتطق خواصرنا ضحكا على الخاسرين في اللعبة البريئة المحكوم عليهم بأن يقبلوا ساعة صدر عمي « أبو فريد ». وترتفع يد مدير اللعبة بالساعة الى الأعلى من سلساها، وتقبل سعاد الصبية ابن عمها الشاب، لعباً، ولايقبلان وجهي الساعة، ونكاد نغشى ضحكا على الذي يبيض كالدجاجة، ومفروض عليه أن يبيض ثلاثين بيضة يقلد صوت

الدجاجة مقرفصا، أو ذاك الذي تريه سعاد الملعونة النجوم في عز الظهر، ويستسلم للعبة ببراءة ويجلس على الكرسي وسط الغرفة، وتغطي وجهه « بسترة » أحد الموجودين وتبقى له فتحة من الكم ليرى نور الثريا، ويهيّأ نفسيا ليرى النجوم في عز الظهر، وتدلق سعاد الشيطانة الحلوة سطلاً من الماء من فوهة كم « الجاكيت » على وجهه، ليغرق ماء ونغرق ضحكا وشماتة.

أو ذاك الذي يتحول الى علاّقة ملابس وعليه أن يرفع يديه وتعلق عليها البرانيط والطرابيش والمعاطف والمناطي والأحذية والشماسي. أخو سعاد سهيل المخترع العبقري في الأسرة، يربض في الداخل يحرك أدواته الكهربائية ويشغل إذاعته الخاصة يوصلها لغرفة السهرة الضاحكة.

يالك من أعياد ليالي الميلاد العظيمة في الشام القديمة تحت الثلج يحتفل بها دائماً طوال أعوام طوال، أبو فريد وأم فريد وأبو صلاح وأم صلاح وأولادهم: من الأسرة العربية الشامية المسيحية فريد وسعاد وأوديت ونهاد وسهيل وخليل، ومن الأسرة العربية الشامية المسلمة صلاح الدين ونهلة وسهام ونايفة ومحمد علي !!!

هل تتذكر ليالينا الذهبية الحلوة ياثلج... ياثلجي.. ياأناي ؟ هل تتذكر العصر الذهبي لطفولتنا في الشام تحت الثلج.. تحت رحمتك تماما ؟

سقا الله أيام زمان يوم كان الثلج في الشام ينزل سبعة أيام مع سبع ليال.

يالك من ثلج عظيم صانع للمعجزات.

يالك من عصا سحرية تذيب الفوارق وتقرب الأرواح وتزاوج القلوب المحبة وتؤكد وحدة الإله ووحدة الشعب المؤمن.

هبت رياح الثلج على الشام.. على الوطن كله، وهبّ قلبي.. على الشام، على الوطن كله.

هل علمت أيها الثلج العظيم، ان الصغيرة قد كبرت، وأن قلبي قد صار ناضجاً !؟

طلع فجر النهار بعد ليلة باردة تقصّ المسمار. ياثلج.. أخيرا عدت ياحبيبي، أخيرا ضحك قلبي بعد وجع انتظار. أخيرا أنت في بيتنا العالي.

طلع شبح النهار بعد ليلة باردة نزلت فيها الحرارة تحت الصفر، في اليوم الأول لآذار شهر الربيع...!!؟ عجيب هذا التواصل بين الفصول !! عجيب هذا التداخل بين شتاء وربيع، بين شيخوخة وشباب !! ياللقدرة الالهية الخارقة !!

وأفقت بتكاسل، وتمتعت بدفء الفراش اللذيذ، ثم قفزت كالقطة النشيطة، فتحت ستارة النافذة المطلة على جبل قاسيون وعلى بيوت الشام وحدائقها وبساتينها. وشهقت روحي بالفرح الالهي.

الشام تغني، الشجر يغني، سطوح البيوت والسيارات والشوارع ووجوه الناس وطلاب وطالبات المدارس، كلها تغني تغني، والثلج يغني لنا

أغنية ناعمة عذبة تنساب تنسكب في أرواحنا المتعبة، « تفرفحها »، تغسل مابها من أمراض الحياة زمن الجفاف والتلوث.

ياهذا القطن الأبيض الناصع يغازل عيوننا في سماء مدينتنا، ينزل علينا من السماء الكريمة طفلا يلهو بمشاعرنا يداعبنا، يبللنا، يتعلق رموشنا ورؤوسنا وأكتافنا وملابسنا، يرتمي في أحضاننا. حتى القطط الشامية الجميلة، حتى الكلاب الضالة في الشوارع كانت تلعب فوق الثلج تحت الثلج.

ياللشام الناصعة البياض.. ياهذا الطبق اللذيذ من حلويات الشام، يالطبق « الكنافة المدلوقة » المغطى بالقشدة العربية « قيمق ـــ عرب »، أتمنى أن آكله كله وحدي !!

ياللمستقبل الحتمي واعدا بالخير العميم.
ياللثلج يقدم لنا ربيعا مزهرا، وصيفا مثمرا كريما.

الخرفان الصغيرة أكاد أراها ترعى الحشيش الأخضر بعد أن شبعت من حليب أمهاتها، تثغو ثغاء يتردد صداه في سماء الغوطة والوطن، يبشر بالخير والبركة في بيوت الفقراء قبل الأغنياء. سنابل القمح، أكاد أمسكها، رؤوسها المتوجة بالذهب تنحني تحية واحتراما وإجلالا للثلج يرحل تاركا ذاته فيها. الغوطة، البساتين، الحقول، الغابات، حتى الصحراء، سوف ترتدي حللا فولكلورية بألوان الزهور، مزخرفة برموز الطبيعة في بلادي. الأزهار الملونة العبقة بالعطر، سوف ترحل وتتحول الى تفاح ومشمش، وأجاص ولوز وجوز ورمان. الثلج يسكن جوهرها. هي صنيعة الثلج.

التوتر انتقل من الطبيعة اليّ. أكاد أشهد موتي وفنائي بفعل هذه اللوحة هذا الصباح الكريم. سنة مباركة ورب كريم.

غارت النفس الى شتاء عام / ١٩٧٩ / إجازتي كنت أقضيها في البرد وثلوج أوروبا. عاصفة ثلجية هائلة اجتاحت ألمانية خاصة وأوروبا عامة دامت أياما طويلة لم تشهد مثلها القارة الأوروبية منذ ثلاثين سنة.

عند أخي محمد علي المهندس في أحد مصانع لور ماين ــ فرانكفورت قرب نهر الماين العظيم أحب أن أقضي إجازتي كل شتاء لأشهد عظمة غابات المانية، وطبيعة بافاريا الساحرة تحت الثلج والمطر.

وفي شتاء عام / ١٩٧٩ / قررت أن أقضي إجازتي بين المانيا الغربية، وبلجيكا، وانكلترة، تحت تلك العاصفة الثلجية المختلفة التي أرهقت أوروبا، وأثبتت عظمة شعبها تكنولوجيا بالتغلب على كوارث الطبيعة. صعدت غابات بافاريا قرب نهر الماين أشهد مع أخي وزوجته وأبنيه باسل وكريم أعظم عرس للطبيعة شاهدته في حياتي، انخلع قلبي من صدري من شدة الرهبة يفرضها جماله على نفسي. كنت أشعر متعة ناقصة « لأنه » بعيد بعيد في الشام لايرى فرح الأطفال الأبرياء السعداء على وجهي، وأنا أصرخ في الغابة التي أرتدى الثلج سيقان أشجارها الفارعة، ياهذا الجمال الإلهي تغرق فيه المانية السعيدة المحظوظة !!.

أردد اسمه في الغابة بصوت عال، أناديه بحرية في ضوء النهار الالماني،

يتردد الصدى، أتلقى رجع الصدى، تردد بافاريا اسمه بحرية !! ارتاح من شوقي إليه. ارتاح من سري معه.

نزل الثلج في المانيا وكنت بعيدة ووحدي، وكان يسكنني ويملأ وجودي، يشهد خلال عيني وقلبي وفكري وحواسي ماأشهد، يحس ماأحس، ولم يكن في الشام، كان معي وليس معي. كان في ألمانية وكنت في الشام.

صعدت من لور ماين الى ألمانية العليا في القطار، الى مدينة « آلن » شمال بافاريا حيث مناجم الفحم الألماني. نزلت بيت إبن أختي الطبيب الجراح الدكتور مازن الشريف حيث يتابع دراسته العليا واختصاصه في الجراحة العامة. بيت صغير مغطى بالقرميد كأنه في الجنة. الدكتور مازن وزوجته الدكتورة ناديا الشربجي يذهبان مبكرين الى المستشفى، يضعان ابنتهما الحلوة الصغيرة لمى عند الجارة الألمانية الطيبة الجدة « أوما »، وأبقى وحدي أمام النافذة ذات الزجاج النظيف أشهد عظمة الثلج عند الألمان. منظر رومانسي يجعل قلبي طائراً يتخبط في صدري. المقعد الخشبي الأخضر الفارغ في الحديقة مغطى بالثلج ينادي عاشقين غائبين، الجارة الألمانية المتقاعدة لاتنسى الطيور الألمانية السعيدة على الشجر، على الأغصان المحملة بالثلج، ترش الثلج على أرض الحديقة « بالحب » « بالقنبز » كي تنزل الطيور وتأكل، وتعود الى أعشاشها بين زهر الثلج على الشجر، لتغني أغنية المانية خالدة للانسان الألماني العظيم يعشق بلاده ويعشق الطبيعة.

مغرمة أنا بطبيعة بلادي في الشتاء تحت الثلج، لكن ابن وطني لايتذكر طيور الوطن عندما يندف الثلج، لايتذكر « الستاتي » في دمشق

الحديثة ولايطعمها، كما كانت تفعل أمي وجدتي في بيتنا العربي القديم في عمق المدينة..!! أتألم كيف ينسى.. أتساءل لم ؟ أتمنى لو أذكره ويفعل، أنقل له صورة حب الطبيعة لدى الشعوب المتحضرة، عساه يعجب بها ويقلدها، وتعود الطيور في بلادنا تغني سيمفونية عربية جديدة تعتبر امتدادا للنغم، للطرب العربي القديم نابعا من احساس انساننا العربي، وقد رحل عن تقاليده، بجمال الطبيعة في وطننا العربي.

تعود بي الذكريات مع الثلج.

عاصفة الثلج ليلة الثاني من شباط / ١٩٨٠ / تهز شبابيك البيوت في الليل بعنف وقوة، وشباكي. لاأتمكن من النوم.

قطتي الشقراء الحامل « عطرة » خائفة ترتجف من البرد، تموء تناديني من الخارج من السطح، تريد أن أفتح لها كي تبحث عن مكان دافىء أمين بعيد عن أهوال العاصفة الثلجية وجنونها، تتلمس مكانا مظلما سريا دافئاً أميناً بين ملابسي أو ضمن خزانتي، بعيداً عن البرد وأنياب القط، هارون شباط الليل والشتاء الشرير، لايرحم أطفاله من الافتراس، لايرحم أمومة قطتي «عطرة» الحنون.

قلبي يتقطع أهدهدها، أمسك فروة رقبتها الدافئة، أربت على رأسها الساخن بحنان غامر، أوحي لها بالطمأنينة وبالرضى عن زيارتها وولادتها عندي، أشعرها بأناملي وصوتي الحاني ينادي اسمها بدلال وأمومة، بأنها ستكون ضيفة مدللة هي وأطفالها في بيتنا الصغير الحلو، يتسع « لي وله »، لها ولأولادها، أؤكد لها، وهي تفهمني وتصدق أنها ستظل هي وأولادها

عندي حتى يكبروا ويشبعوا الحليب من أثدائها، قبل أن يتمكنوا من الوقوف على أقدامهم لمواجهة الحياة والطبيعة تحت الشمس وتحت الثلج، تحت رحمة الانسان، وفي ظروف وقوعها قطة أليفة بين براثن الانسان وضربات حذائه وعصاه، يضربها بحجر تارة، يشدّ ذنبها تارة، يقص ذنبها وأظافرها تارة ثالثة !!

يالك من ثلج عظيم... هل تذكر ليالي معك وتفاصيل تلك الليالي ياثلج ياأنت.. ياأناي !؟

أمي «عزيزة» الحبيبة رحمها الله، ولدتني في ليلة ثلجية عاصفة، مثل ليلة الثاني من شباط هذه.. أو مثل ليلة آذار تلك أو مثل ليالي الميلاد وكوانين...!!

هكذا قالت لي. دون أن يتمكن أحد من تذكّر ليلة بعينها أو تاريخاً يحدد ليلة مولدي، أو يؤكّد زمن ميلادي يوماً وشهراً وسنة. تاريخ مفقود مجهول تدور حوله الأسئلة وإشارات الاستفهام !!؟ وحدد مولدي تقديراً اعتماداً على ذاكرة العجائز في الأسرة. كأني صبي أخفوا تاريخ ميلاده كي لا يأخذوه عسكرياً الى حرب «السفربرلك» !!؟

أضحك، أعطاني الله روحاً مرحة ودماً خفيفاً بشهادة الكل، أضحك مع نفسي على نفسي قبل أن تملأني ضحكة تتعلق بالتناقضات في حياة الطبيعة أو حياة الآخرين، أو حتى قبل أن يضحك أحد من نكاتي أو من فصولي المضحكة. أصدقائي وصديقاتي يضحكون قبل أن تنتهي النكتة بسبب صوتي الضاحك وهو يروي النكتة التي تمكنت من إضحاكي أولا. أضحك من مسألة ليلة ميلادي، وعندما أحاول مع صديقاتي قراءة برجي،

أقرأ أولا برج القوس، يعجبني الأسم، ألا يمكن أن تكون له علاقة بي كون العلاقة العضوية بين القوس والسهام في وظيفة كيوبيد إله الحب !! قد لايعجبني كلام العرّافة أو قارىء البخت أو المنجم، أقرأ الحظ في برج الدلو !! قد لاينطبق مافيه على مافي حياتي العاطفية، بكل بساطة وإحساس بقوة الحق، أنتقل الى برج الجدي، يعجبني حظي، ينطبق كلام برج الجدي على ماجرى وماأتوقع أن يجري معي، أبتسم، أرتاح، أفرح، أتفاءل، تسري سعادة ضمنية في الأعصاب والشرايين. عاشقة أنا من برج الجدي. عاشقة أنا للشتاء، ولدت في ليلة ثلجية باردة من أم وأب عظيمين. ربما لهذا السبب أنا أحب الشتاء، وأعشق البرد، وأتحد بالثلج، ربما أنا أعود الى أصولي وجذوري الممتدة الى الغيوم في السماوات السبع، القادمة من نبع بردى في عمق جبل الزبداني، لأصب في نهر بردى والاقنية الست المتفرعة عنه: يزيد وتورى والديراني والمزاوي وبانياس وقنوات. ربما أنا سمكة في تلك الأنهار ولدت، ضفدع في وادي بردى تنقنق، حورية من نبع بردى تطلع، طائر الى الغيوم يحلق، ثلج على الشام يندف، ربما أنا كنت في الأصل ريحاً أو مطراً أو ثلجاً، ثم تحولت بفعل التقمص الى إمرأة، ربما.

قبلاتي الحارة أيها الثلج .. وتحياتي.

تذكّر أبداً. أنا أحبك أبداً ياأناي.

**أنا**

**من أوراق الشتاء ١٩٨٠**



# ضجيج في صدر امرأة صامتة

ترق .. وتشف .. وتتشقق .. وتتلاشى قشرة الارادة ، وينفجر بركان الغضب الذهبي ، ويهدر نهر الكلام الناري السائل الحارق ، يتدفق من قمة جبل الغضب ، من فوهة نبع الحركة والكبرياء وشدة الحب ، يسيل على سفوح الحياة من هذا الصدر الصاخب .. الساكن المجنون جنون أمواج بحر تحت رحمة العاصفة ، الهادىء هدوء سطح بحيرة في زمن الربيع .

لقد تعلم هذا الصدر المجنون عشقا بالحياة حكمة « الصمت » مع مرور الأيام ، بالصبر بالارادة بالأناة .

كان التفكير بصوت عال ، والانفعال بشكل غريزي عفوي طبيعي ، هو الطبيعة الأولى مني ، كالهوى الأول البريء ، ثم كان الصمت طبيعتي الثانية كالهوى الأخير الخطير .



كنت طفلة الطبيعة.
ومرت علي الفصول الأربعة.
وعرفت طعم حلاوة ومرارة الربيع والصيف والخريف والشتاء.
وكبرت.
صرت إمرأة الطبيعة.
وكان قراري.
وصار الصمت كالهوى الأكبر والأخير، طبيعتي الأولى والأخيرة.

في مناخ الهوى الأكبر والأخير أعيش بصدق، أتنفس أوكسجين الهوى الحقيقي، أزدهر وتورق أغصان الروح وتتفتح عليها أزهار العمر السعيد الحقيقي، تتحدى الفصول وتتفتح ربيعاً صيفاً خريفاً شتاء. تحت الثلج والمطر تزهر، في مهب الريح وجنون العاصفة تزهر، في وجه الشمس الصحراوية المحرقة تزهر، وعندما يأتي نيسان تبلغ المدى.

صار الهوى الأكبر والأخير طبيعتي الأولى والأخيرة. وصار الصمت توأم الهوى، وتعودت معايشته وسكنّا معاً في بيت واحد نشكل معادلة رياضية.

بدأ الصمت، عادة تلازمني جوهرها العقل يحاكم أمور الحياة بعيداً عن رياح الانفعال الهوجاء ترميني في بحر الهوى، حياة أو موتاً، فرحاً أو ألماً، ضحكاً أو بكاء، رضى أو سخطاً، حباً أو كرهاً، معاً أو ضداً.

لكنه البحر، في العمق مني، مايزال..!!

لكنه الهوى، في النخاع الشوكي، يسكن..!!

لكنها «اللا» النارية تفور من رحم الذات الصامتة الموحية بالسكون بالقبول «بالنعم»، لظواهر سلبية في الحياة لاتستحق الاّ الرفض المبطن والمعلن، ولن تزول الاّ بالغضب العاقل، والغضب المجنون.

عندما نداري غضبنا، ونكبت كلمتنا عن ظاهرة سلبية تتفشى كبقعة الزيت على نسيج حياتنا الذاتية أو حياتنا العامة، فإنّ الغضب لايزول ولايخف والكلمة لاتموت ولاتتحول، بل تتسلل الى قاع الذاكرة تتراكم فوق ماقبلها، كطبقات الشجر تتراكم تحت قشرة الأرض. فحماً، كالكائنات الحية تتشكل زيتاً طبيعته من طبيعة النار، قد ينفجر يوماً بئراً بترولياً مشتعلا لاقوة تطفئه، ان مسّته شرارة الغضب.

هو الانسان، جزء من ماهية الطبيعة ابن الطبيعة لابد أن يرفض الخطأ الذي يتجاوز قانون الحياة الطبيعية وقانون الجدلية التاريخية.

في فصل من فصول الطبيعة يتراكم الجليد فوق قمم الجبال، وتسطع شمس الحقيقة في فصل آخر، ويحدث الفيضان، ويتحول مجرى النهر.

تمر الفصول الأربعة على الانسان.

تتكرر دورة الطبيعة على الانسان مرات تعادل سني حياته، وقد تتكرر أخطاؤه، قد يتعلم من الطبيعة وقد لايتعلم.

لكني أرى أن لكل انسان خمس دقائق من الحظ يجب أن يدركها في

حينها ويأخذها ويختار الطريق بارادة ووعي كاملين بعد التحليل والتركيب لكل الدقائق والتفاصيل الصغيرة قبل الكبيرة .

لكن من يدري ..؟ من منا يقبض على الحقيقة عارية ؟ هل مرت في الماضي من أيامه دقائق الحظ الخمس ولم يلحظها وفاته قطارها ؟ أم أنها قادمة مع دقائق الغد المجهول ؟.

هل دقائق الحظ الخمس من فعل الطبيعة أم من فعل الارادة الانسانية ؟.

هل يتمكن أحدنا ، بفعل إرادته ، من تحويل مجرى نهر الحياة ، ان كان هذا النهر أصلا يسلك دربا وعرة ، ويسقي خطأ أرضا مالحة !!؟

هل يتمكن أحدنا أن يغيّر نهره ؟

الانسان عندي هو الارادة ، ونبع الارادة عقل وقلب معاً . والحظ عندي ارادة ، ونبع الحظ رغبة وفعل ومعرفة وحركة .

وعندما تسطع أشعة شمس الربيع ، لابد أن يذوب الجليد ، ويرتمي في أحضان سرير النهر العظيم . ولابد أن يحدث التغيير ويتحول مجرى النهر نحو الأرض المنتظرة العطشى ، ويروي التربة الحمراء الخصبة .

علمتني الحياة فضيلة الصمت .

لكنها علمتني أيضاً أن لا أسكت على الخطأ طويلا .

ابنة الغابة أنا .

ابنة الصحراء أنا .

ابنة الجبل أنا .

ابنة البحر أنا .

ابنة الحكمة أنا .

ابنة الفصول الأربعة أنا .

ابنة العصر الرومانسي والعصر المادي أنا .

ولدت في العصر الرومانسي أول مرة ، ربما على ضفة بحيرة أو على شاطىء نهر ، أو عند رمال شاطىء جزيرة مهجورة ، أو ربما في خيمة عربية في رمال صحراء بادية الشام ، أو ربما في كهف جبلي بارد ، أو ربما في ظل شجرة نارنج عطرة ، أو ربما على غصن شجرة ليلك ، أو ربما في مسكبة بنفسج ، أو ربما في حضن غيمة رمادية ، أو ربما في جنون عاصفة شتوية ، أو ربما في صدفة بحرية .

وولدت في العصر المادي آخر مرة في حضن الواقع الموجع .

**كان قلبي في المرة الأولى هو معلمي .**

وصار عقلي في المرة الثانية هو معلمي .

بالقلب وبالعقل معاً أتعامل مع الحياة برومانسية واقعية . بالقلب المقهور والعقل السعيد تعلمت حكمة الصمت . وبالقلب وبالعقل معاً تعلمت فلسفة الثورة وصارت قانون حياتي .

عندما يخطىء انساني أنا معي كامرأة وأنثى مفكرة، عندما يخطىء إنسان ما معي كانسانة كمواطنة، أثور. أحس أنه لو تجاوز قانون الحياة، أو قانون المرور، فانه يمس كرامتي، لأنني أجسد بالتزامي بقانون الحياة الطبيعية أو بقانون المرور الدولي، عظمة حضارة الانسان العربي الحق، أجسد نزعة الطبيعة ونزعة الوطن نحو الصدق والحق والخير والجمال، لذا، وفي تلك اللحظة، تنفجر قشرة الارادة التي رقفتها الظاهرة السلبية حتى حد الانفجار. وأقلع عن حكمة الصمت وأتبنى فلسفة الثورة على الخطأ حتى يزول الخطأ أي خطأ، وأتكلم، وربما أصرخ، لا !!

**من أوراق الربيع ٢٤ نيسان ١٩٨١**

# أنا في عيد السّيف العَربي

في عيد السيف العربي أقدم لجيشنا العربي السوري وردة دمشقية تفوح بعطر الشام .

يسألون !!! ماالذي ستكتبين في عيد الجيش في الأول من آب لعام ١٩٨١ !!؟

وإليهم الرد . سأكتب عن معادلة العيد ــ الحب .

أنا خارج دائرة الحب لاأتقن الكتابة .

من منطلق الحب والصدق في الحب يكتب قلمي . في السياسة في الحياة العسكرية ، في النقد الاجتماعي ، في الأدب والفن ، في أهمية سطوة القانون في الدولة الحية ، في ضرورة الحفاظ على التراث العربي وعلى حضارة



العمارة العربية وعلى الثروة الخضراء، وعلى تعريب فن العمارة الغربية المعاصرة المزروعة كالشوك في أرضنا، وأرضنا تنبت الياسمين والزنبق والفل، هكذا.. الى مالانهاية. من الحب أبدأ النقد أو الفكرة الجديدة ـــ القديمة، وبالحب أقترح الحل البنّاء وأسجّل الكلمة الطيبة.

أنا خارج دائرة الحب لاأتقن الكتابة.
أنا خارج دائرة الحب لاأتقن التفكير.

وأنا إن لم يرتبط العيد، أي عيد، عندي، بالفرح الانساني الحق، لاأعترف بالعيد ولا أعيد كالأطفال، ولا أقول لأحد « كل عام وأنتم بخير »، ان لم أكن على يقين بأنه مثلي تماما، هو وأنا والسعادة بالعيد والعيد واحد، واننا معادلة جوهرية لاشكلية، من معدن حقيقي ثمين لامن ذهب مقلّد مزيف رخيص، نمثل الفرح دون أن نعيش الفرح، نتبادل الأمنيات بكلمات جوفاء آتية من أرواح خاوية الاّ من قدرتنا على تمثيل دور الفرح بمقدم العيد، أي عيد.

قد يمر العيد أي عيد على الانسان، وهو يبكي لأمر ما بصمت، فيهرب العيد من نفسه وبيته. وقد يمر على الانسان نفسه يوم مشرق كالشمس ضاحك كوجه طفل، مفعم بالبشرى والخير والخبر السار فيصبح هذا اليوم هو العيد كل العيد.

ماذا أكتب عن ذكرى عيد الجيش العربي السوري في الأول من آب، أنا الوطنية العاشقة للوطن وأهله، والذكرى العظيمة تحمل معناها في ذاتها، وتاريخ البدء يحمل معنى التاريخ الأخير سلفا. منذ ست وثلاثين سنة

أستلم أبناء الوطن ورجالاته مسؤولية تأسيس الجيش العربي السوري بعد استلام نواته من سلطات الاستعمار الفرنسي عام / ١٩٤٦ /.

ويقفز ذهني من تاريخ الى تاريخ، يقارن بين واقع أسود وواقع أبيض، وأفرح فرح الأطفال بمدافع العيد.

ان جاهزية قواتنا المسلحة في ذكرى يوم الجيش العربي السوري عام / ١٩٨١ /، ودوره العربي القومي تبرر فرحي الوطني بقدوم الذكرى.

وتطير روحي طيران طائر الاستقلال والحرية والقوة والكرامة والحب والسلام، الى ربى العلاقة بين الشعب والجيش، وأغوص الى العمق أبحث عن أدق تفاصيل العلاقة الانسانية في الوطن بين إمرأة ورجل من رجال هذا الوطن قدره أن يكون ضابطا في الجيش العربي السوري.

كالصياد، كغواص اللؤلؤ في البحر العربي، أخرج مبللة بماء البحر المالح أحمل اللؤلؤة الأصلية الكبيرة داخل الصدفة، « لؤلؤة الحب ».

ـــ في يوم الجيش تتحدثين عن بحر الحب ولؤلؤة الحب ؟

ـــ في يوم الجيش بالذات بحاجة أنا للحديث عن الحب، الحب بين امرأة جميلة ذكية عاشقة رجلها العسكري، حبيب عمرها كله.

تضحكون ربما. حب في حياة ضابط حياته كلها، زمنه كله، طموحه كله للوطن للحياة العسكرية، وحب في حياة إمرأة عاشقة، حياتها كلها انتظار في انتظار لعودة الحبيب من لبنان ليوم خاطف الى الشام، يعود

بعده لمتابعة خدمته في قوات الردع العربية في لبنان كجزء من دوره الأساسي العربي القومي كرجل عسكري عربي أولا سوري ثانيا.

هي انسانة ولا كل النساء.

هو رجل ولا كل الرجال.

انهما الصورة المثالية الفريدة في الوطن الغالي. أُفتح دفتر مذكراتها أقرأ جملا ذهبية، هي أعظم تحية من إمرأة الى عسكري، ومن الشعب الى الجيش في عيده.

تقول المرأة العاشقة المنتظرة أبداً مفاجأة العودة:

« ياله من يوم عبقري، تفجر بركانا حارقا في هذا الزمن الصعب الذي مررت به مع حبيبي منذ أشهر. شهر كامل لاأعرف أين هو لاأسمع صوته، لم يخبرني كم سيغيب وأين وكيف. عدت أنتظره بصمت. روحي المشتاقة تبكي بلادموع هذا هو قدري ألقاه يوما ويغيب أياما، وعلي أن أقبل بصمت وأرضى المر على أمل العسل.

كنت أشعر شعورا هائلا بأنه سيحضر اليوم ٥ آذار ١٩٨١. بالحدس الخارق كنت أتوقعه بين لحظة وأخرى. في هواء الغرفة شممت أنفاسه قبل أن يحضر. ورن الجرس. فتحت الباب وتجمد الدم في عروقي وتوقف تيار الشعور والوعي، دخل صامتا، وأنا أكاد أسقط من هول المفاجأة ومن صدق الحدس، يحمل وجها عانى سفرا متعبا طويلا ومهمة صعبة خطرة.

وكان يوما عبقريا فذا مختلفا بكل مافيه . لم أسأله أين كنت . أنظر الى وجهه بشوق مجنون أخرس سحب من فمي الأسئلة وكلمات الفرح باللقاء » .

قال لي والدمعة في عينيه لن أنساها حتى أموت :

ــ حبيبتي .. حلمت بك وأنا أنام على الأرض . كنت معي بقوة . عانيت تعبا جسديا لا حد له . كلفت بمهمة استطلاعية ضد العدو في الجنوب ، وسرت أياما وليال منهكة لدرجة عدم التمكن من المسير . كدت أسقط فاقد الوعي . تذكرّتك . سمعت صوتك العبقري الدافىء العذب المسكون ببحة العشق والذكاء والحنان ، جاءتني قوة خارقة . تابعت المسير نحو الهدف . حققته .

حبيبتي .. أنت معي داخلي أينما كنت تسكنين الجسد والقلب والعقل . أنت قوتي وأنت ضعفي .

من أجلك ذهبت لتأدية المهمة العسكرية الخطيرة ومن أجلك عدت .

من أجلك حققت ذاتي وذهبت الى عالمي الحقيقي الى خط المواجهة العربي في الجنوب اللبناني مع العدو الاسرائيلي ومن أجلك عدتَ حيا . سآخذك يوما الى الجنوب الجميل عندما يعود جنوبا لبنانيا جميلا متحررا من الاحتلال الصهيوني البشع .

قلت لرئيسي : لقد نجحت في هذه المهمة سيدي وذهبت وعدت

حيا بسبب قوتين داخلي، إيماني بوطني وحبي التاريخي لحبيبتي، زوجتي الحقيقية المقدسة، زوجة الروح والجسد.

حبيبتي.. أنت الوطن وأنت الحرية وأنت النصر في الحرب. أنت بندقيتي وأنت الحياة. بك أدافع عن الحياة. وكل عسكري يذهب للمعركة ووراءه إمرأة حقيقية لايمكن الاّ أن يعود حيّا مكلّلا بأكاليل الغار.

حتى لو استشهدَ تظل وراءه إمرأة تبكيه بصمت وتفخر به بمنتهى الكبرياء والعزة.

أنت حبيبتي، أنت الوطن، حيا أو شهيدا، أنت حبيبتي، وكبريائي كعسكري قادم منك إليك.

أنت الأرض، أنت الوطن.
بوجودك يأخذ وجودي معناه وبعده.
من هذا العالم كله لايهمني أحد إلا أنت.

قال لي رئيسي: أنت لست مقاتلا، أنت فنان، رسام مثال أو كاتب رومانسي أو شاعر عاشق !!؟.

قلت له:
سيدي، أنا الاثنان معا. ولايمكن لجيش أن يحارب وينتصر الاّ بقوة مركبة عناصرها عديدة: الحب، العلم، الفن، السلاح، الايمان والعقيدة.

في الصفحة الأخيرة من يومياتها طلع صوتها من جديد بلا صوت:

«وأخيراً وبعد انتظار وقلق مريرين عاد لي حبيبي حيّا متفجراً بالنجاح والشوق بالحب بالرغبة في الحياة.

عاد لي حبيبي... عاد لي وطني.
حبيبي هو الوطن».

وفي عيد السيف أقدم لجيشنا الذي يضم حبيبي بين صفوفه وردة دمشقية تعادل قلبي.

**من أوراق الصيف ١ آب ١٩٨١**

# نحلة أنا..
# في ليلة رأس السنة أغني

الزمان : السبت ١٣ كانون الأول ١٩٨٠ .
المكان : الشام، دمشق، العاصمة .

والصباح قد أقبل يحمل لي موسيقى المطر تعزف لي خارج نافذتي لحنا سماويا يبعث في قلبي سعادة متميزة تعادل سعادة الأرض العطشى للمطر، بنزول المطر .

يطربني اللحن فأنتشي، وأزداد استغراقا وكسلا ورغبة في النوم الصاحي واليقظة النائمة، أتأرجح بين لذة دفء الفراش، ومتعة نشاط الحركة والمشي تحت المظلة، أو بلا مظلة في شارع يغسله المطر من هموم الصيف المغبر الحار .



نزل المطر الحقيقي، يالفرح الأرض والانسان والحيوان والنبات والجماد. حتى الحجر يفرح ويضحك عندما ينزل المطر، فكيف لايفرح الفكر والقلب والجسد.

نزل المطر، غسل نفسي، وغسل الشام، وغسل الوطن. غسل الشجر والجبال وسطوح البيوت والشوارع والأرصفة والسيارات، وربما الضمائر..!!

فيا لفرحي.

غابت أكوام التراب وحضر الطين.
غابت الكآبة وحضر الفرح الغامض.
غابت القذارة وأقبلت النظافة والنصاعة.

سافر الألم الشخصي ووصلت سعادة الوطن والشعب بالخير القادم من السماء، المبشر بموسم كريم.

فرضت الطبيعة نفسها، والطبيعة هي الأم الأولى للانسان، وخصب الطبيعة هو لبن الحنان الذي يرضع الانسان الحياة.

فرضت الطبيعة حضورها، واستسلمت طبيعتي.

عاصفة الثلج، أولا، ثم البرد الشديد، ثم الجليد، ثم الشمس ثم الصحو، فالغيم فالمطر، فالدفء فالفرح. حنان المطر حنان معطر بالدفء، دفء الفرح الانساني، دفء قلب الانسان ابن الطبيعة بالمطر

يسقي عطش اثنين : الانسان والتربة . تأتي تنزل تزرع وعودا خضراء بموسم أخضر في العام / ١٩٨١ /.

ياله من شتاء عنيف بدأ متأخرا ، الاّ أنه أتى بشكل كلي وكامل يغطي انتظارنا كل انتظارنا ، ويثير شجوننا وأفراحنا ، ذكرياتنا الموجعة ، وآمالنا العذبة .

ياله من زمن محرك للنفس البشرية .

ياله من شتاء يقسم الانسان الى ثلاثة : واحد يغور الى الماضي السحيق ، وواحد يسبح على السطح البريء ، وواحد يحلق في سماء الغد البعيد .

مرت سنة .
كبرنا سنة .
خسرنا سنة .
كسبنا سنة .

في ليلة رأس السنة وفي لحظة تفصل بين عامين ، نردد كل سنة ، كبرنا سنة !! ونصاب باكتئاب ضمني .

ومع قفزة عقرب الساعة الصغير ، ننتبه فجأة ، ونقفز بكل ماضينا وعمرنا المعلوم الى الغد ، نجر معنا تجربة عام كامل نضيفها الى ماتبقى من عمرنا المجهول ، تكبر كنوز الذاكرة سنة ، نزداد حكمة ، نزداد قلقا ، نزداد غنى ، ونتجوهر ، نزداد فقرا ونتطلع ، نتحسر على مامضى نرقب ماهو آت .

نقفز عتبة تفصل بين عامين، واحد أعطى كل ماعنده ورحل، وواحد مازال وليدا يصرخ صرخته الأولى العالية، يبكي فرحا ورعبا من مجابهة الحياة في العالم الجديد، ومما قد يحمله اياه البشر من أثقال الهموم الانسانية الكثيرة وأفراحها القليلة، مشاكلها وسعاداتها، فظاعة حروبها وأنانيتها، وعظمة نضالها وتضحياتها لتحقيق الحلم الانساني السلام، سلام الانسان وسلام الأوطان والأرواح والحريات.

نتصور أننا نقفز في لحظة من عام الى عام، جديد أتى وقديم مضى، حديث ولد، وعتيق مات، بينما نحن نقفز بين عمر عشناه وعمر نتمنى أن نعيشه بصيغة أفضل.

لحظة من العمر هي دقات الساعة تشير الى الثانية عشرة ليلة رأس السنة، هي في جوهرها امتداد بين الماضي عبر الحاضر الى المستقبل. فلاالعمر الذي رحل سيء كله ولا هو جيد كله، ولا العمر الآتي هو الأفضل لمجرد أن نتمنى في ليلة العيد أن يكون هو الأكثر كمالا وصحة وسعادة وسلاما.

ان قلقنا من مجهول المستقبل يحملنا على مغازلة الماضي والحنين إليه كزمن ذهبي دخل تاريخنا ولن يتكرر.

لحظة ليلة رأس السنة هي لحظة وصل وليست سيفا يقطع شريط العمر الى نصفين أو الى ثلثين وثلث. هي جوهر ديمومتنا. ولذا فأنا أقدسها بذاتها.

أتى كانون الأول عام / ١٩٨٠ / يحمل في جوهره بذرة الشتاء وعنصر تجديد دورة حياة الأرض وعمر الانسان. وسلم الرسالة ورحل.

فأتى كانون الثاني عام / ١٩٨١ /، يحمل في جوهره كتوأمه الراحل، رسالة التجديد والتغيير وشارة الولادة، ولادة الذكر، الشتاء، ذكر الطبيعة الأم، الأنثى الكبرى.

أقبل كانون الأول ومعه أقبل شتائي العظيم، كريم النفس خصب العطاء، يمنح الأرض كعشتار مطرا يسقي بذور الخصب ويهيؤها للحمل والولادة.

أقبل شتائي أنا لا كما تتنبأ المفكرة السنوية وجدتي مع « أول مربعانية الشتاء ».

وصل في الزمن الذي يريد، لا في الزمن الذي نريد.

انه رجل بكل معنى الكلمة، منه المبادرة ومنه البدء وعنده النهاية. والطبيعة أنثى عليها أن تتلقى حضوره بلهفة تعادل حجم الرغبة والانتظار والأمل.

أقبل الشتاء على الشام، شتائي أنا، رجلا يفرض وجوده علي، فأستسلم لأنه يستحق استسلامي، أنا الأنثى، الجزء الأصغر من ماهية الطبيعة وجوهرها وكيانها.

أستسلم له إلها صغيرا لأأقوى على رد ارادته، لكوني خلقت ضعيفة، أحمل في جوهري الأنثوي الطبيعي بذور سعادة الانتظار، وعظمة الطاعة، وكبر ذوبان الأنثى بالذكر، وقدسية النوم الدافىء والاستغراق الكلي في أحضان نار الثلج الحارق وتحت لسع الريح الباردة ورذاذ المطر السخي الحنون، تماما كما أحمل في جوهري سر متعة انصهار الروح المتمردة، تضمها

بعنف هيبة العاصفة، فتدمر تمردها، وتكسر أضلاعها عضلات الريح العاتية.

الشتاء، ذكر الطبيعة الأم.

أتى هذه المرة عاشقا مجنونا يمتطي جناح العقل، يوحي لنفسه قبل حبيبته، يقسم أمام نفسه، أنه سيأخذها لذاته، سيدمر نفسه ويدمرها في لحظة واحدة، الاّ أنه لايدري، هذا الحبيب الالهي المنبت، أنه يبني نفسه ويبني حبيبته عندما يدمرها ويدمر نفسه. يبنيها ويعمرها، يزرعها بالخصوبة ويسقيها ماء الحياة، ويحقق ذاته بها، ويحقق لها قدرتها الكامنة على الولادة ويهديها سر الديمومة والخلود.

ياله من شتاء !
يالها من طبيعة !
ياله من رجل !
يالها من امرأة !

مر الصيف والربيع والخريف، وأنا أسافر أرحل بين الشرق والغرب، بين الصحراء المحرقة قريبا من خط الاستواء، وبين الجزيرة الباردة القريبة من القطب الشمالي.

أرحل وأرحل داخل الطبيعة، وأرحل خارج نفسي وإليها كالنحلة أطير من أرض لأرض، من زهرة لزهرة، من حالة لحالة أجمع رحيق زهر العمر عبر الفصول الأربعة، ومن الاتجاهات الأربعة كلها.

لكن قرص الشمع والعسل، لايبدأ بالتشكل عندي الآ عندما ينزل حبيبي المطر يغسل أشجار أرضي الحقيقية في فصل الشتاء.

أفكاري ليست هي العسل، فأنا نحلة شغالة، الغرور ليس مهنتي.

الحكمة التي أختزنتها من دورة عام كامل، هي حكمة أضيفت على عمري. هي عام يمضي بعيدا عني الى كهوف الذاكرة، ليستقر في عقلي ووجداني وروحي وحتى في جسدي، حاضرا أبدا.

هذه الحكمة التي يمنحها لي معلمي، عمري، عندما يسافر الى الذاكرة، عاما مضافا الى عمري لاناقصا من عمري، هذه الحكمة هي العسل الذي يطيل عمر شبابي.

أنا، لاأفرز المرارة والصبر عندما تدق الساعة الثانية عشرة بين ليلة قديمة وفجر جديد.

أنا، نحلة تحيا الحياة أبدا بفرح، ترضى اتصال العمر الذي مر بالعمر الآتي، تطن طنينا مطربا متفائلا يبعث لحنا كالغناء.

عندما تفجعني الحياة أبكي وأضحك معا.

عندما تضربني الحياة تختلط دمعتي بابتسامتي، ألمي بسخريتي. عندما أكبر سنة أفرح بالكبر ولا أبكي كاليهود على حائط مبكى العمر يشب كالقدر المرعب، كالغول، في وجوه من يسهرون ليلة رأس السنة، يسكرون لكي ينسوا أنهم كبروا سنة، يبكون لأنهم قد خسروا سنة، يفتعلون المرح والفرح عساهم يصغرون سنة !!.

ليست أية سنة جديدة تأتي، مضيفة رقما الى عمري السابق، بقادرة على رسم التجاعيد على نضارة قلبي الطفل وروحي الشابة المرحة المتفائلة الراضية بالقضاء والقدر وقد ورثتها عن أمي وأبي.

أحب عمري، لاأنكر عمري، لاأصغر عمري، عمري لم أكذب، لاأكذب لأدعي عمرا أصغر. لاأحس أني كبرت مهما كبرت، لاأحس لاأرى في المرآة أني اليوم أقل جمالا مما كنت في العشرين والعكس هو ماأرى. انها قناعتي الذاتية وثقتي بشباب الروح الدائم، فالعمر واحد مهما طلع الانسان أو نزل، واغراءات الحياة قد تزيد طمع الانسان ورغباته المحمومة بمزيد من الاعمار، فعمر واحد قد لايشبع جوعه ونهمه للحياة، الاّ أن العمر واحد مهما جن الطموح واستعرت الرغبة بالحياة، ومهما فعلت المساحيق والفيتامينات وجراحة التجميل.

لاأحس أني كبرت لأني مؤمنة بجمال الاعمار وعظمة سرها، ولاأجمل من وجه تغزوه التجاعيد، وشعر يغزوه الشيب، وعين رصينة يسكنها سلام الشيخوخة، وفم تعلوه ابتسامة الرضى والايمان بقضاء الله وقدره. انها الحكمة التي تعلمتها من سنوات عمري وأعمار الآخرين.

لابأس قد تضعف صحة الانسان، قد تنهار قوة الصحة فتضعف قوة اليد أو الركبة، وقد تهددنا آلام الظهر والرقبة بأوجاع يومية حادة تقض مضجعنا وتؤرق عز شبابنا، وتدل على أن عقارب الساعة قد تجاوزت قمة الأربعين أو قمة الخمسين أو قمة الستين أو قمة السبعين، أو « قمة التل » كما يقول المثل الأمريكي !!. وقد يقول الطب أن نمو العظام وظهور المناقير في

العمود الفقري أمر طبيعي يظهر مع امتداد العمر التعب لجيلنا، فيضغط العظم النامي على الأعصاب ويسبب آلاما تعكر هدوء سعادة العمر الناضج في مرحلة مزدهرة للعقل كالشمس من أحلى مراحل عمر الانسان !!.

قد يغزونا قلق ارتفاع نسبة السكر والكوليسترول في الدم، قد تصيبنا جلطة دموية أولى تهدد حياتنا وتحرمنا حرية حركة الحياة وفورة الحب، تحد من رغباتنا على مزيد من المشاريع، والقدرة على الانتاج والعمل والحركة والسفر والعطاء العاطفي، قد يهددنا ارتفاع ضغط الدم أو هبوطه، قد نكون تعرضنا لخسارة عضو من أعضاء الجسد الغالي في حادث مؤسف مر على حياتنا في الحرب أو في السلم، قد نكون مجبرين على العيش والأكل والشرب والنوم والعمل والحب بحذر شديد، وبكلية واحدة، أو ثدي واحد، أو برجل واحدة، أو بعين واحدة أو بأذن واحدة أو بعمى كلي أو صمم كلي أو خرس كلي، أو بروح شقية، شققها الفشل إثر قصة حب حقيقية عاكستها ريح القدر الأسود، قد نكون مهددين بالموت إثر مرض عضال يفتك في خلايا جسدنا وفي ثقتنا بأنفسنا وقدرتنا على مقاومة جيوش جراثيم المرض..!!

قد نكون ممن يتمتعون بالحس الوطني العالي يفتك بهم بصمت قلق الوعي، يؤرق وجدانهم لبعض الأمراض الاجتماعية ينتشر في خلايا الجسد العربي الكبير كالطاعون، يهدد وحدتهم ووجودهم على خريطة الوطن العربي الواحد، تشغلهم هموم الوطن ومؤامرات العدو في الداخل والخارج.

ويسكنهم السؤال الوجودي العربي: أن نكون أو لانكون !!

لكن شتاء بلادنا العظيم، أتى ويأتي كل عام قويا كالقدر، يغسل أوراق اليأس في النفوس، ويمدنا كما يمد تربة الأرض بالوعود الخصبة، يبعث فينا البشر فتتورد الخدود وتشتعل الأرواح، وتنشرح الصدور ونحن نشم عطر عناق الأرض والمطر، وتتلاشى تجاعيد البشرة وتجاعيد النفس والفكر،

ونكبر عاما بالهموم.
ونصغر عاما بالآمال.

قد يكون العام الذي مضى قاسيا ظالما أخذ منا حبيبا شهيدا.

قد يكون بالصدفة، عاما جائرا خطف منا طمأنينة بيتنا وسعادة أهلنا وضحكات أطفالنا.

الاّ أنّ واقعنا المؤلم سيزول حتما في الغد. انها سنّة التطور في الحياة وسنة الأمل، الشفاء بالسعادة. بالنسيان نكبر سنة، تزداد حكمتنا سنة، لنحارب بها شقاء المستقبل المحتمل.

وان أعطانا العام الذي رحل مقابل كل لحظة فرح يوما كاملا من البكاء، فمن أجل عودة لحظة الفرح، علينا أن نتحمل. فالفرح كالشتاء، رجل عظيم يستحق عن جدارة انتظار الطبيعة ودموع الانسان إمرأة ورجل.

نحلة شغالة نشيطة متفائلة أنا.

أطير من زهرة الى زهرة، من عقل الى عقل، من قلب الى قلب، أجمع رحيق الحياة من بستان الحياة على مدار السنة لا في الربيع فقط، همي

الوحيد أن أشارك المجموعة والملكة في صنع قرص الشمع والعسل وأقدمه هدية للسنة الجديدة.

نحلة أنا في الشتاء تغني.
نحلة أنا تعيش بالحب.
بالحب تحيا.
بالحب تموت.
عسل الحب قدرها.
تفرز العسل فتحيا، ويلتصق جناحاها بعسل الحب فتموت.
نحلة أنا تؤمن بالتقمص، في الصيف تموت موتا مبدئيا، ويأتي الشتاء فتولد من جديد.
نحلة مختلفة أنا، في الشتاء تغني وتجمع رحيق أزهار الشتاء، وعلى مدار السنة تفرز العسل.

**من أوراق الشتاء ١٩٨١**

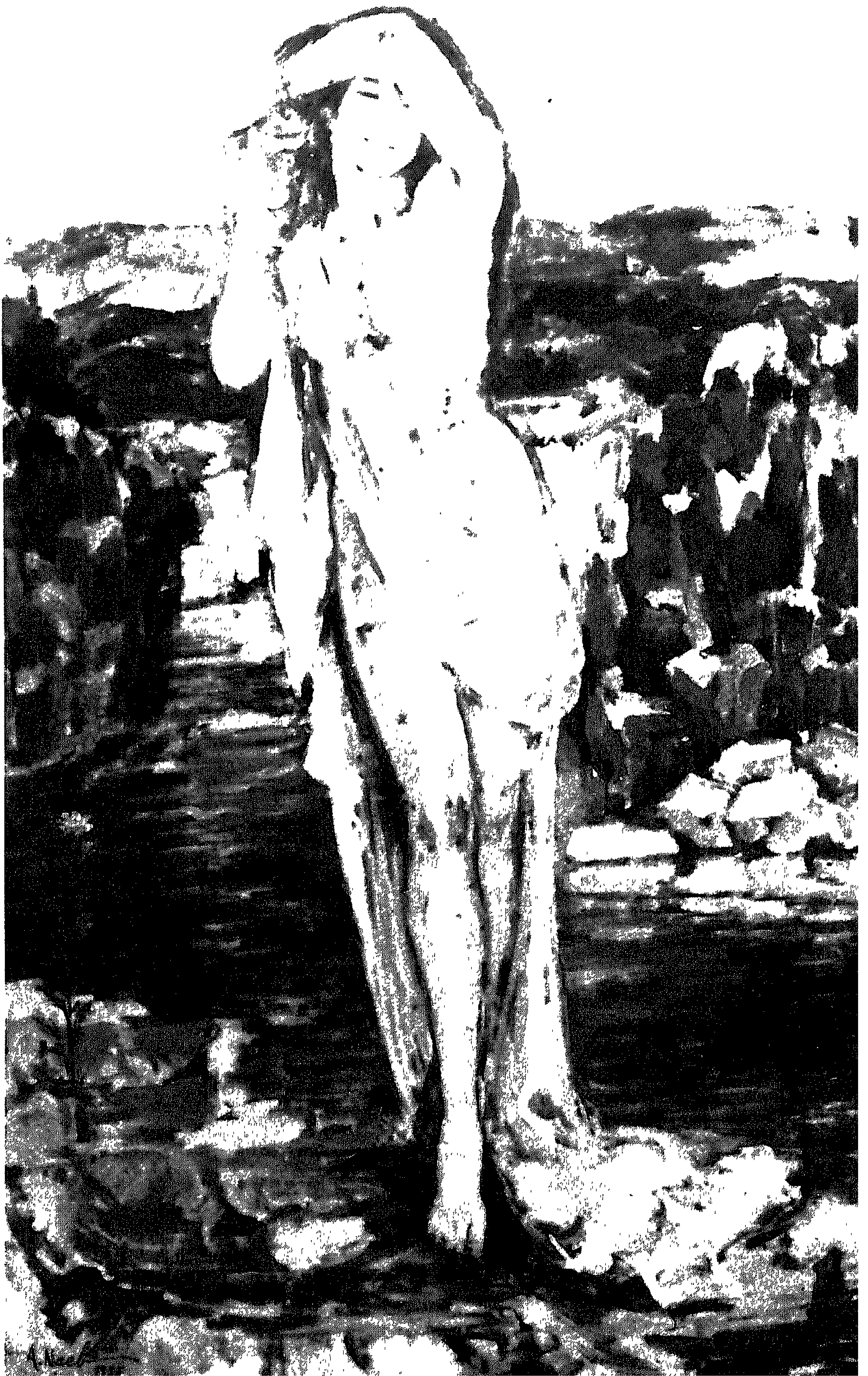
1947

# أنشودة الربيع .. للمرأة الأموية

عندما تبدأ دورة حياة الطبيعة في الربيع ، تبدأ دورة جديدة للحب في الكون ، ويتحرك جنون الشوق عند الكائنات الحية ، كل يبحث عن حبيبه ، عن نصفه الآخر الضائع كما جاء في خطبة أريستوفان في « المأدبة » وقد كتبها أفلاطون في القرن الرابع قبل الميلاد .

يقول أريستوفان في نهاية خطبته :

« على الانسان أن يعبد الالهة دائما حتى لاتوقعه في شر آخر أصعب من الأول ، ألا وهو تقسيمه مرة اخرى الى قسمين آخرين ، وحتى تسعده بمعاونة نصفه الآخر الحقيقي ، والاّ لوقع على نصف غيره وعاش معه معذبا الى الأبد » .



وهذه الفرضية الاخرى واقعة بالفعل، لان الحب في اكثر الحالات لايؤدي الا الى الشقاء.

إن الحب عند أريستوفان الشاعر المسرحي الاغريقي المعروف في الأدب اليوناني، هو في الوحدة التامة مع المحبوب، وفي الحب يكمن سر مصير الانسان، والحب واحد في جوهره العميق.

اشتعل الزهر في غوطة الشام وعلى أغصان أشجار حدائقها وشوارعها وبيوتها العربية وبساتينها ومشاتلها.

أقبل ربيع الشام، فأقبل معه قلبي يبحث ينادي حبيبه، نصفه الضائع.

تداخلت شخصية الشلامية في لبنان بشخصية الشامية في الشام، وتداخلت العصور.

أين ذهب حبيبك أيتها الجميلة الحكيمة العاشقة في النساء..!!؟

استحلفكن يابنات مدينتي ان رأيتن حبيبي ان تخبرنه بأن الحب اسقمني..!!

من هو حبيبك أيتها الجميلة في النساء..؟

طلعته جبل قاسيون، هيبته جبل الشيخ، قلبه نبع بردى، حنانه حنان أمي، دموعه نهر بردى، عشقه عشق «باريس» لهيلين طروادة، صمته صمت أبي الهول، دهاؤه دهاء معاوية، نقاؤه نقاء علي، فلسفته

فلسفة ماركس، عدله عدل عمر، شجاعته شجاعة خالد، عمقه عمق جبران، رومانسيته رومانسية شوبان، صورته صورة أبولو الاغريق، شرقيته شرقية بدوي جبلي من الارض العربية، قصته قصة قيس، بدايته بداية نرسيس، نهايته نهاية سيزيف.

يحضر عمدا فينحني سعادة الانوثة، يغيب عمدا ليفجر فيَّ إبداع الخلق الادبي، وهو في الحالتين أناني، يرى ذاته في تألق الأنثى وإبداع الكاتبة في ذاتي المفكرة العاشقة.

استحلفكن يابنات مدينتي ان وجدتن حبيبي الغائب ان تخبرنه بأن الشوق أهلكني.

أين ذهب حبيبك أيتها الجميلة الشقية الروح بين النساء...!؟

خرج ولم يعد.

كنت نائمة وقلبي يقظ.

التمست حبيبي فما وجدته، دعوته فلم يجبني ناديته فلم يسمعني، هو الذي يسمع الصمت صراخا، هو الذي يفهم الضحك بكاء !! أنا شقراء على السطح لكني في العمق سمراء حارة مثل نبيذ خوابي كهف كنيسة شرقية.

لاتلتفتن لشقرتي وبياض بشرتي فان شمس الهجر قد لوحتني وحولتني في العمق مني الى امرأة متفحمة القلب.

أخبرني يامن تعشقه نفسي، أين تهيم على وجهك بعيدا عني، أخبرني كيف تتعامل مع نفسك ضدي !؟

أخبرني يامن تحبه نفسي، أين تهيم على وجهك في الصحو وفي السكر، وحدك مع ذاتك، ووحدك مع أصدقائك، ووحدك وأنت معي .!؟ لم تحكم علي وعلى نفسك بالموت هجرا قبل أن يحل الموت، مع أن الربيع قد حل ضيفا في مدينتنا وفي ساحة حياتنا !! مع أن الحب قد عاش ذاته في تفرد قصتنا !!؟

أنا لحبيبي وأشواقه لي .

مافضل حبيبك !!؟

حبيبي هو الكامل بين الرجال .

فتحت لحبيبي باب مدينتي وسلمته مفتاح المدينة العبقة بعطر التاريخ والياسمين، لكن حبيبي مضى وانصرف !!!

استحلفكن يابنات مدينتي ان وجدتن حبيبي هائما على وجهه في براري الضياع، ان تخبرنه .بأن التي عشقتها واسميتها الكاملة بين النساء وأعلنتها « غجريتي الشقراء »، تعاني سكرات الموت قبل الموت، هجرا غامضا وحكما ظالما، وأنت العادل عدل عمر، الحكيم حكمة طاغور !!!

يابنات مدينتي العظيمة ذات الكبرياء أقدم مدن التاريخ، أخبرن حبيبي ان كبرياء الروح والجسد هما مقتل ذات الكبرياء .

في الاساطير، نرسيس العصور الغابرة رأى وجهه الجميل الفائق

الجمال على مرآة النبع، فعشق ذاته، ولحق بها، فكانت نهايته في نرجسيته وحبه لذاته دون سواها. وغار في قعر النبع وتفتح في دورة حياته الجديدة زهرة نرجس تتهادى عطرها المتميز أجيال العاشقين.

نرسيس هذا العصر.

نرجس العصر العربي.

نزل من بستان البنفسج في قمة الجبل المطل على البحر الابيض المتوسط.

نزل من قمة الجبل الى قاع المدينة الأم الحبيبة، واستقر في بستان الورد الدمشقي. شم عطر الوردة الدمشقية، وتعطر بماء الورد، وأكل مربى الورد، واغتسل في حمام الورد. وبدأ يصعد رويدا رويدا من قاع المدينة باحثا عن ذاته الضائعة حتى وجدها هناك في الأعلى، في قمة المدينة وارتمى في فوهة القمة النهاية اللانهاية، السكينة البشرية والقلق الوجودي معا، في زمن واحد وعلى أرض واحدة.

هي القمة. هو القمة.

القمة تعانق القمة !! هنا الاسطورة المعجزة في الحب.

وهل تسمح الطبيعة بديمومة معجزة الحب وأبدية اتحاد روحين متوازيتين وجسدين وفكرين حكم عليهما سلفاً بالظلم الأبدي، منذ البدء، من لحظة ولادتها، من لحظة ولادته..!؟

عشقت فيه ذاته التي تقمصت اثنان اسطوريان، نرسيس وسيزيف. نرسيس إله الجمال وسيزيف إله العبث.

وعشق فيها ذاتها وقد تقمصت اثنتان من آلهات الاغريق والرومان وسورية، مينيرفا وعشتار. مينيرفا إلهة الحكمة وعشتار إلهة الجمال والخصب.

وبدأ المد والجزر بين العصور.

والعاشقان المعاصران على قمة الموجة العاتية الصاعدة من عصر آلهة الاغريق حتى عصرنا المادي.

نرسيس الزمن الغابر هو نرسيس
وعشتار الزمن السحيق هي عشتار.

لكن نرسيس العصر انسان سادي ــ مازوشي يعذب حبيبته ويستعذب عذاب حبيبته له، والحب عنده لن يتحقق ولن يدوم إلاّ بتحقق هذه المعادلة الصعبة، الحضور ــ الغياب، الوصال ــ الفراق.

نرسيس العصر هو اثنان، نرسيس وسيزيف معا، يعشق ذاته ويعشق القمة في شخص الحبيبة المعاصرة مينيرفا ــ عشتار. لكنه حين يصعد القمة يحمل على ظهره « صخرة الهم »، وما تكاد أنامله المدماة تلامس طرف القمة، سعيا لنعيم راحة سكينة الحب الانساني، حتى تنحدر الصخرة الى قاع الوادي والى قعر المدينة وجذر المشكلة. وتدور دورة العذاب مع دورة الحياة في الطبيعة. يبدأ نزوعه وشوقه للصعود في فصل الربيع، لكنه مايلبث أن يتدحرج مع صخرته تدحرجا موجعا حتى الصفر،

خاوي اليدين من سعادة اللقاء، باقي فصول السنة، وعليه ان يحمل صخرته ثانية وثالثة الى مالانهاية. وماعلى القمة ــ الانثى إلاّ أن تنطحن انتظارا صامتا «مينيرفياً» لرحلة صعود الحبيب إليها من جديد، يسكنها هم استحالة وصوله.

ولانرسيس يتوب ولا القمة تتحول عن محاولات سيزيفُها العبثية حامل صخرة الهم الأبدي.

سيزيف يتوه في غابات العصر.

وعشتار تنزل من مملكتها الإلهية الى المدينة تنادي، تنحدر من أعلى قمة في جبل قاسيون الى بساتين الشام تسأل ترجو تتوسل.

«استحلفكن يابنات مدينتي ان رأيتن حبيبي ان تخبرنه بأن الحب أسقمني، وبأن نار الغيرة تحرقني».

جاء في الكتب السماوية.

إن المحبة قوية كالموت والغيرة قاسية كالجحيم، لهيبها لهيب نار، المياه الغزيرة لاتستطيع ان تطفىء المحبة والانهار لاتغمرها.

ياحبيبي... ياربيع الشام لك أغني انشودتي.

**من أوراق الربيع ٢٤ نيسان ١٩٨٢**

# ۱۹۸۴

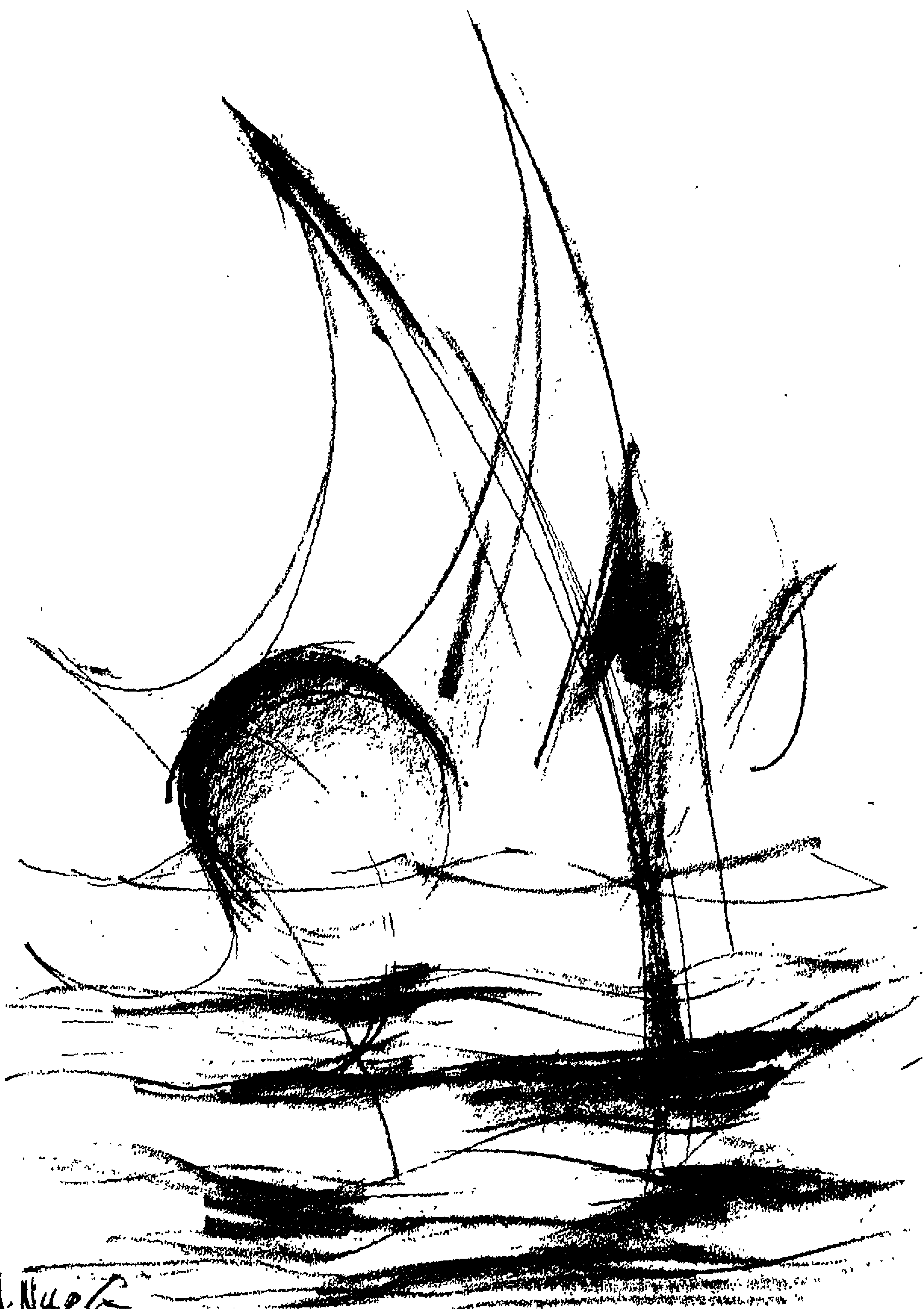
# رسالة لم ترسل إليه من ضفاف الميسيسبي

**منيابوليس. ليلة الثلاثاء ٣٠ تشرين الثاني ١٩٨٢**

بلغني الخبر أيها الحبيب. نفرت منك نفسي حتى قاع النخاع الشوكي. ياللكارثة. سقط التمثال دفعة واحدة الى قاع السطحية، كتلة من الرماد.

كنت أتساءل عمري عن النهاية، نهاية قصتنا. لم أكن أتوقعها نهاية مبدئية الاّ بموتك أو موتي أو موت كلينا معا. ولكن أن تأتي نهايتك في نفسي على هذه الصورة !! لا.

ليتني مت قبل أن أشهد مقتل وموت قناعتي المطلقة بك. وكيف ؟



وأين ؟ ياللكارثة، في جوهر العقل، ياللشك في لب الثقة. ياللفاجعة في جوهر الحب.

أنت حر منذ اللحظة التي أحسست فيها برغبة في التقيؤ وباحساس بالعدمية واللاانتماء الى هذا العالم المزيف.

هل تذكر كلمتك الأولى عن المجتمع المزيف !! والمرأة المزيفة ساكنة القصور في « أبي رمانة » في دمشق الحديثة !!؟

ياللتناقض بين الرجلين، أنت في البدء وأنت في النهاية !!

لقد تحررت منك أخيرا حرية فيزيولوجية ــ روحية مطلقة بخبر واحد فقط مسّني في عمق كرامتي وأنوثتي وشل حس العصب الذي كنت تتربع عليه ملكا ولا كالملوك. يالها من غلطة ستدفع ثمنها ماتبقى من عمرك. هل تعرف الثمن !؟ لقد سقطت نهائيا من قناعتي. وقناعتي. كالسماء عالية، زرقاء، صافية، واسعة، دائرية، كالقبة السماوية، لابداية لها ولانهاية ولاحدود، لاسطح ولايمكن لأحد أن يسبر غورها السحيق الى أعلى، غامضة مطلقة فيها يكمن سر الإله، وسر العظمة الانسانية الصادقة الكامنة في شخصي الضعيف.

في نهار / ١٥ / تشرين الثاني / ١٩٨٢ / بلغني الخبر. كنت أستعد لالقاء محاضرة عن وطني العربي سورية باللغة الانكليزية على بعض أساتذة جامعة مينيسوتا، وبعض الاساتذة والمشرفين الكبار على معهد هيوبرت همفري في الجامعة، وحضور عدد من زملائي من الولايات المتحدة

الامريكية ومن دول العالم الثالث لمنحة هيوبرت همفري، محاضرتي كان موعدها / ١٦ / تشرين الثاني / ١٩٨٢ /، ألقيتها بنجاح من قلب الموت القادم من الوطن يحمل خبرا ولا كل الأخبار عن الحبيب ــ الوطن. قاومت الانهيار الشخصي حتى أسجل لوطني علامة مضيئة. يالها من حرب طاحنة بين الأنا والكل، دفعت ثمنها في اليوم التالي للمحاضرة اختناقا في حلقي أودى بي الى مستشفى جامعة مينيسوتا، ووقف الاطباء المختصون الأمريكيون عاجزون عن تفسير ظاهرة ورم اللسان وسقف الحلق والحلق وجدران الفم في العمق وبشكل مفاجيء..!! وكنت أعرف السبب ولم أفتح فمي بكلمة عن الصدمة التي كانت وراء انهيار وظيفة الغدد في الجسد المسكين الباكي بلا دموع.

في نهار / ١٥ / تشرين الثاني / ١٩٨٢ / بلغني الخبر أيها الحبيب.
وأنا اليوم بعد اسبوعين لاأعرف ليلي من نهاري ولا جنوني من تعقلي ولامرضي من صحتي ولا من أنا ولا من سأكون وحيدة بعيدة في الغربة لا أهل لا أخت لا أخ لا أحد أقول له مابي الاّ الحيطان والشوارع الباردة والليالي المسهدة التي كسرت رأسي المسكين.

لماذا تعاقبني الحياة بكل هذه القسوة !!؟ ربما، لأنني أنا خالقة نفسي، المتمردة على قوانين الحياة في الشرق، والخارجة من جلد الأنوثة الهش، الى عوالم الفكر والحرية المسؤولة والمثل والحب الحقيقي ــ المستحيل.

أكتب لنفسي مابنفسي حتى لاينفجر عرق في رأسي في ليل منيابوليس وأموت في بيتي في سرير الفجيعة، في البناء رقم ٤٢٧، المنزل رقم

/ ٢٠١ /، الشارع الرابع المتقاطع مع الطريق الخامس من جنوب شرق مدينة منيابوليس على نهر الميسيسيبي، المنطقة رقم ٥٥٤١٤ في ولاية مينيسوتا، في أقصى الشمال الأوسط الأمريكي الراقي المغطى بالثلوج.

في هذا النهار وصلت الرسالة الى صندوق بريدي في العمارة التي أسكن.. تحمل الخبر وتحمل الفجيعة.

أنا « باندورا » العصر ولكن دوري يختلف كوني امرأة عربية.

« باندورا » كانت لعنة حبيبها المسحور وسبب خلاصه معا، عندما ظهرت في حياته حقيقة حب مطلق لازيف فيه، فزال عنه السحر وتمكّن بظهورها في حياته من أن يشيخ فجأة ويموت ويرتاح من لعنة الحياة الأبدية.

أما أنا، فقد كنت قبل، حبيبي، إمرأة ميتة. أحياني من الموت. أنقذني من الحزن الهادىء العميق، أعادني الى الصبا، عمري الحقيقي، نزل بي الى مواطن الجمال، صعد بي الى قمم النشوة والفرح الانساني، أعطاني من عمره فعدت صبية، وأعطيته من عمري، فصار عجوزا حكيما رصينا ممتلئا بحكمة العشق. ثم ياللكارثة سقط التمثال فجأة الى القاع بفعل طيش الدم في الشرايين الشابة مع غيري، وأنا بعيدة، وسقطت الأقنعة.

وتماسكت بأنفاس متقطعة، ولازلت أسأل نفسي أن تمسك بنفسي حتى لاتقعا معا الى هوة العدم « هنا ». فالموت حلو وجميل ونحن في بيتنا الحقيقي الأول في وطننا الغالي، ووطني الأم هو الشام هو دمشق أقدم مدينة لازالت مسكونة بالبشر منذ فجر التاريخ. فيها ولدت وفيها أحب أن أموت وأنام في « تربتها » الحنون نوماً أبدياً. أريد أن أعود لأموت في الشام الى

جانب أمي وأبي وجدتي لأمي وجدتي لأبي وجدي لأبي وجدي لأمي ، هناك في تربة الباب الصغير .

إليك أيها الحبيب .. أكتب عن مأساتي مع حبيبي أنت . ربما حبيبي الأول فيك يملك من الكبر مايمكنه من ادانة خيانة الثاني فيك .

مرت علينا هزات عنيفة ... وتجاوزناها . تجاوزتها أنا .

ألم الكارثة في رأسي سيقتلني حتما هذه المرة ، مالم أصل الى قناعات معاكسة تؤكد براءتك .

فأنا أكبر عمرا من أن أتجاوز هذه المحنة الأخيرة في حياتي . إن خسارتي لفادحة . حبيبي ، كان هو قوتي وكان هو كل صباحي ومسائي وفجري ومغيبي وأمسي وغدي . سقط هو فسقط الغد ، ولم أعد أملك شيئا ولا أريد . هو آخر الخط وهو آخر فرح وآخر ألم وآخر ولادة وآخر موت . انه دورة حياة كاملة .

أنا « باندورا » من دمشق الشام أكتب في منيابوليس توأم سانت بول مدينتي الميسيسيبي ، عن كارثتي الروحية الأخيرة .

ليلة بلغني الخبر أحسست برغبة أن أسير في الليل المخيف المثلج البارد الموحش في الشارع الرابع المؤدي الى أبنية جامعة مينيسوتا ، لأصل الى الجسر الواصل بين الضفة الغربية والضفة الشرقية . تصورت في الليل الثلجي الأمريكي أني أسير على الجسر المكشوف لا الجسر المغطى ببناء زجاجي الجدران ، أسير بمحاذاة درابزين النهر العظيم الذي تسافر فيه قطع الجليد

الضخمة الى الجنوب الامريكي ، أنظر إليه في الليل وحدي ، أتذكره شريطا أزرق اللون رسمته طالبة الثانوي التي كنتها في أواخر الأربعينات ، على خريطة امتحان الجغرافية ونجحت فيها بامتياز . تختلط الصور ، يتحد النهران ، تتوحد الاثنتان الطالبة في الثانوي في سورية ، والطالبة في الدراسات الآكاديمية العليا في أمريكا ، رسمته مرة ونجحت ، فهل ألقي بنفسي فيه مرة واحدة وأنجح في الوصول الى قمة الرحلة والى ذروة الطموح ، والى نشوة الموت في أحضان الأمواج الرصينة وأحضان الثلوج . في يوم ثلجي بارد ولدتني أمي في حي العمارة في دمشق في بيت عربي ، فلم لاتكون نهايتي بارادتي في أحضان الثلج والشتاء والنهر الخطير !!؟ تعبت من قسوة الحياة أرنو بشوق الى راحتي الأبدية فعقلي لم يعد قادرا على احتمال التفكير بالكارثة التي حلت في خلايا العقل والجسد .

لقد نفرت منك أيها الحبيب ومن الحياة .

لقد خسرت حبيبي ونفسي . خسرت احترام مبدأ حرية الاختيار . لقد كبرت آلاف السنين في لحظة . لقد تجعدت بشرة وجهي وبشرة نفسي بشكل مخيف . زال صباي الذي كان ينبع من فرحي الداخلي الصامت المطلق ، من سرّي العظيم ، من حبي الكبير . وكبرت وتهالكت وهربت مني قواي كلها ، ولا أعرف الآن ، كيف أنام وأصحو وآكل وأسير وأتحرك وأعمل وأتحاور مع الآخرين باللغة الانكليزية ــ الأمريكية ، وأقرأ وأكتب حتى بلغة غير لغتي الأم الحنون . لساني ينطق بصعوبة لغة الأمريكيين لأن روحي مسحوبة الى الداخل الى واحة لغتي العربية ، نفسي تحاور نفسي بالعربية ، لساني العربي هنا ، أضحى لسان الضمير العربي المهزوم الى داخل مأساة

القلب والعقل لامرأة عربية تعيش في المنفى، بعيدا عن الوطن والحبيب، والمستقبل مع الحبيب.

ألم داخلي في رأسي يحفر ويحفر سوف يودي بي الى سرطان في العقل أو جلطة في القلب.

ياالهي، ماهذه الهدية وأنا هنا في آخر العالم؟ لمن أقول وأحكي قصتي، ولم ماالفائدة؟ كيف أتعامل مع نفسي وكيف أعوّد نفسي أن تعيش بلا ذاتها الأخرى؟

ياالهول ماأشعر وما أحس !!.

أحس احساس «أم أوديب» عندما علمت بالنبأ. لقد سقط الحبيب فجأة من حبيب الى ابن، وقلع الابن عينيه عندما عرف الحقيقة. لقد عاشر أمه الحقيقية دون أن يدري. كان مذنبا ولم يكن. كان مدانا وكان بريئا. انه ظلم الحياة.

والآن جاء دوري لاقّلع عيني حتى لاتريا بعد وجه الحقيقة المرّة. لقد ماتت حبيبتك مسمومة. لقد ماتت حبيبتك بسم الاختيار. قتلها اختيارها الحر. لقد كان اختيارا مسموما منذ البداية موسوما بالخطأ. لقد كان رجلها أصغر منها !!!

أنت حر أيها الحبيب منذ تلك اللحظة التي ارتكبت فيها بحق نفسك أفدح جريمة ونفسك هي أنا، ونفسي هي أنت. ولم تعلم، ياللكارثة، ماذا ستكون ردة فعلي. لقد قلتها ألف مرة. أنا امرأة مختلفة. وأفعالك ليست

بالضرورة مصدر قناعتي بك وتعلقي. لاشك أني أسقطت عليك ذاتي العالية رسمتك على مثال صورتي الداخلية وعبدت صورتي، ونسيت أن الرسم لايصنع من الرسام خالقا لانسان جديد، أو إلها، ولا من اللوحة انسانا من لحم ودم وعقل وقلب وجوهر متميز وعاشق مختلف.

أنت حر، أيها الحبيب، منذ اللحظة التي وقعت أنا فيها في بحر من القناعة المطلقة باستحالة لقائنا.

أنت أصغر مني أيها الحبيب، أنا أكبر منك أيها الحبيب، بكثير، بكثير..!! بأكثر من ألف عام..!! والمعادلة مستحيلة. انها النهاية، ولم أكن «إلاهة» لأعلم بها منذ البدء.

جعلتك إلهي الصغير ونسيت أنك انسان عادي وأصغر مني بأكثر من ألف عام، عمراً وحضارة في الحب.

عد الى نقطة البداية.

عد الى حيث كنت، فمكانك هناك حيث كنت، لاعندي ولا معي ولا في. لقد غدوت فعلا ماضيا، كنت أتصور أني سأصنع منه فعلا مستقبليا. سوف أمضي الى المستقبل الأسود من دونك وحدي، أبداً وحدي. فان أخفقت في امتلاك المقعد الى جانبي، فمن غيرك يفعل !؟

قدري أن أكون وحيدة، قدري أن أمضي وحيدة. قدري أن أسير على رصيف شارع الحياة، أذني المرهفة، لاتصلها إلاّ موسيقى إيقاع خطواتي الحزينة الرصينة تفتقد خطوات رجلها الضائع أبداً في شوارع الحياة.

لم يبق لي إلاّ أن أنتظر لحظة موتي باستسلام كلي، بلا تمرد، بلا أسف، بلا حزن. الآن فهمت سر حكمة الاسلام.

الموت حق. أعود الآن الى إيماني وإيمان أمي وجدتي. ان الموت حق. وأرجو الله أن يميتني في تربة الشام ميتة طبيعية ولو بفعل الحب، لابفعل « تورنيدو » أسود يجتاح وادي الميسيسيبي في الشتاء الأمريكي فيقتلع البيوت والشجر والبشر. تورنيدو من الطبيعة الامريكية القاهرة، وتورنيدو من طبيعة الانثى العربية المقهورة في المنفى بعيداً عن طبيعة الوطن، الطبيعة الأم الحنون.

« الشام » انها الحبيبة الوحيدة التي أخلصت لي كأمي، انها أمي الثانية. لأمي خانتني، وضحكت من براءة قلبي وصفاء سريرتي، ونقاء خلقي، وحلاوة طبعي، وسمو عشقي، وعظمة إخلاصي، ولا الشام.

وأطلب من الله أن يكرمني، فيجعل قبري قريبا من قبر أمي. فلم أعد أستحق بعد رحلة العشق إلاّ الراحة الأبدية في تربة الوطن الأم.

مسكينة أنا. مسكينة أنت يا أناي لقد تعبت كثيرا حتى بلغت قمة الشهرة وقمة المجد الأدبي. تعبت حتى انتقلت صعودا من القلب الى العقل، من الجسد الحلو الى المطلق الى الله في قلب رجل، وكان الثمن غاليا غاليا.

بدأ الدفع في قارة أمريكا، قمة رحلة العمر والفكر.

ان كل خلية مني تموت ببطء.

ان الشهرة والحرية للمرأة في شرقنا العربي خنجران في القلب والعقل

والجسد والكبرياء، والعمر كله. انهما طريقان بالمرأة الى الوحدة والغربة والموت.

ان عقل المرأة هو المنفى.

ماذا أضافت علي التجربة الأمريكية لستة أشهر مضت !؟ وما الذي ستضيفه لستة أشهر قادمة !؟.

إما الرجل.. أو الشهرة والمجد.

لم ولن أحصل على الاثنين معا.

وضعت « كتابي الأول » مقابل زواجي من الحب الأول، ومالت الكفة في « الكتاب »، وطار الحبيب ومعه الزوج والأطفال والبيت وطمأنينة السعادة، الى سماء العدم، ومنها هبطوا جميعا الى حضن امرأة ثانية لاعلاقة لها بالشهرة والامجاد الأدبية، وظل الحبيب العربي الشرقي المحدود، ديكا صياحا تسير وراءه الدجاجة والصيصان، وكلمته لاتصير اثنتان. إعترف قبل أن يرحل: لست قادراً على استيعاب طاقتك الفكرية أيتها الغالية !! هه... الغالية !!!

أيها الحب الأخير... قراري في السفر الى امريكا كان كارثتك.

أيها الحب... لم تقل: لاتسافري، كانسان متحضر، لكن شرقيتك الكامنة رفضت تفردي بالقرار. وزلزلت أرض الشام مع ارتفاع الطائرة بي وتخلخل الهواء في غيابي، وحدث الاهتزاز في توازنك العاطفي وسلوكك الرصين. إعترف.

وضعت حبي المطلق وثروة عمري ورجل أحلامي في كفة، وسفري الى أمريكا لمتابعة دراستي الآكاديمية العليا في أعظم جامعات العالم في كفة، فماذا كانت النتيجة !؟ سفري ترك فراغا بحجم جسدي لابحجم عاطفتي في حياة حبيبي، وسقط إلهي الصغير الى هوة الانسان العادي جدا، اختل توازنه النفسي والجسدي عندما اعتبر قراري بالسفر والغياب لمدة سنة طعنة لامتلاء زمنه بي، فبحث عن البديلة، وهو يعرف أن لابديلة لي اطلاقا، لأنني روح لاحجم لها، ولست فقط جسدا حلوا يخطر بثوب جميل ينشر حفيف أطرافه عطر الأنوثة. غاب عطري عن حواسه فغاب عنه عطر إنسانيتي، وسقط في اللاتوازن بفعل طيش الدم الفوار الخانق.

فقد توازنه وهو في الشام بسبب غيابي، وكان غيابي امتحانا وضوءا كشافا.

ومالت بي أرض القارة الأمريكية العظيمة، فقدت توازن الجسد ولم أفقد بعد توازن العقل. لن أبحث عن البديل لأحل مشكلتي مع من أحب، فلابديل. ولا رجل في العالم يحل مكان الحبيب. محاولة التعويض والاسقاط مسألة سخيفة وضياع أكبر. ماجعلني أقوى على احتمال الكارثة هو فلسفتي الأخيرة في الحياة بعد خسارتي في الحب الأول وخسارتي بموت زوجي، وخسارتي بقناعتي بتميز عشق الحبيب لي، أن لا أعطي نفسي، كالطفلة الحلوة القلب، كلية، لأي شيء في هذا العالم، فالتجربة أثبتت لي أني لا أملك شيئا. لماأملكه... كل ماأملكه الى زوال. واني كلما أحببت شيئا وتمنيت دوامه على امتداد خط عمري، زال.

كانت فلسفتي الخفية، الى جانب قراري الخفي أن أعطي ثلاثة أرباع

نفسي وقناعتي وثقتي ككل، من أحب وماأحب في الحياة، وأترك لذاتي الربع الأخير حتى لاتغدرني الحياة مرة جديدة، وتشلني الصدمة المحتملة شللاً مطلقاً.

يجب أن أحافظ على ربع القوة في ساقي، وفي يدي، وفي قلبي، وفي عقلي، وفي قدرتي وإرادتي على متابعة ماتبقى من الرحلة وحدي دون أن أحتاج الى عكاز كعمياء، أو مقعد بعجلات كمصابة بالشلل، أو الى سرير في « القصير » كمجنونة.

يالكوارث الحياة. انها كالديناصور لاتشبع من جسدي ونفسي ودموعي نهشا. لاتشبع. لن تشبع الاّ بموتي. وسوف تشبع يوما.

رأيت الهيكل العظمي للديناصور الحقيقي في متاحف نيويورك وواشنطن. صورته بالكاميرا باحترام كلي وذهول من حجم أبعاده. وقفت قربه كالنملة. أخذ لي السواح معه صورا عديدة. لم تكن الصورة الواحدة تحتوي إلاّ جزءا من إصبع قدمه وأنا. حمدت الله أنه لم يكن مكسوا باللحم والجلد الغليظ، وانه لم يكن معبأ بثورة الجوع وسلطان القوة، وإلاّ لابتلعني لقمة طرية في لمحة. توقعت الفكرة وهربت منها. لكني لم أتوقع فجأة أن ديناصورا في الشام سوف يظهر فجأة ليمد عنقه الضخم عبر المحيط الأطلسي بين دمشق ومنيابوليس ليقضم فجأة كل ماتبقى من طراوة الأمل وفرح العمر، وليسلبني كل ماأملك من قوة الحب، تمد مفاصلي بقوة الحياة، وليتركني أسير في شوارع الغربة إمرأة مشهورة مقهورة مجهولة مهجورة مبعدة إلى جزيرة الوحدة، إلى العالم الجديد، حيث الانسان وحده وحده.

أنا في المنفى، أنا في المنفى، أنا في المنفى..!! الآن فهمت نابليون بونابرت وهو في المنفى. الآن وأنا في « منفاي » العاطفي، دمعتي ودمعة نابليون تتحدان تتعادلان. الآن فهمت عمق فلسفة أندريه جيد في «مدرسة الزوجات».

عاد الحوار الصامت بين أناي المنفعلة، وأناي الرسامة حوارا عاليا داميا.

أنا في المذبحة. أنا الذبيحة. ذبحني الراعي الحبيب الذي كنت ألحق ظله بنعومة وذكاء كالشاة الطيعة الطيبة السعيدة بصوت خطوات راعيها وعصاه وموسيقى شبابته تحكي قصة هواه.

فجأة تحولت العصا التي تصورتها عصا المعرفة الى سيف يهدد رقبة الشاة لا الذئب. ذئب الوحدة والغربة يهدد الشاة.

وبتر السيف جوهر قناعتي الثمين. وقسمني من سمتي الى القاع، الى اثنتين باكيتين مندهشتين. واحدة تبكي على الأخرى، وواحدة تنعي الأخرى. واحدة تدين الأخرى، واحدة طيبة لاتريد أن تصدق الخبر، واحدة عاقلة واقعية صدقت الخبر. واحدة نفرت نهائيا، وواحدة مازالت تعيش فرح الماضي النقي من كل شوائب الخيانة الحقيقية، خيانة الفكر والمبدأ المطلق وشرف العلاقة الانسانية. حتى الحبيب ممثل أين منه ممثلي مسرح شكسبير. وقعت الكارثة. ربما في لحظة ضعف إنساني !! ربما في لحظة حقد أسود من شدة الحب النرجسي !! ربما في لحظة رغبة جامحة في الانتقام من شدة قدرتي على الغياب !! ربما في لحظة سكر تجعل الرجل لايفرق بين الحلال والحرام بين الزوجة والابنة، وبين الحبيبة والأخت.

ربما في لحظة تشابه في الأصوات النسائية، تشابه بين صوتي الذي يحب وصوت آخر فيه قرابة وانتماء الى صوتي المبحوح بصورة الحبيب، وحضارة الوطن.

لاأدري. لاأدري.!!

والكارثة لن تبرر والجريمة لن يسدل عليها الستار. وضحكتي لن تعود ضحكتي، وبشرتي لن تعود الى تألقها، وجمالي لن يعود جمالي، وأناقتي لن تعود أناقتي، وأنوثتي انتحرت عند وصول الخبر. فجأة سقطت في أقصى درجات الشيخوخة ومت بفعل السم الذي دسه لي القدر في طعامي المقدس. ولاحياة بعد الموت. إلاّ..!!

**أنا**

**من أوراق الخريف**

**أمريكا ــ منيابوليس. ليلة الثلاثاء ٣٠ تشرين الثاني ١٩٨٢**

# أما آن لهذه الفارسة أن تترجل !!

هي مشبوحة الى قدرها الصعب .

معلقة أبدا من صميم قلبها وذروة عقلها على شجرة الحب المستحيل ، معرضة لعوامل الفصول الأربعة تذيقها عذوبة ومرارة سياط الثلج والعطر والشمس والريح الخريفية القرميدية اللون المجنونة .

يمر بها قدرها ، خالقها ، فارسها ، حاكمها ، عاشقها ، معشوقها ، قاتلها ، مقتولها ، مرور البدوي العربي ـــ السادي المعاصر لايدري أنه قد عشقها في لحظة اليقظة تحت تأثير سعادة الارادة والاختيار وكامل الوعي ، وأنه قد قتلها صمتا وحبا مجمدا في لحظة السكر ونشوة الغيبوبة وعمى الوجد وشقاء الفرقة وغضب العشق . لكنها بسبع أرواح تموت سبع مرات لسبعة أجيال ، وتتجدد دورة حياتها وألق شبابها بفعل إكسير الحب .



يحكم عليها، حبها له، بالخلود رغم الموت بعيدا عنه، ويحكم عليه، حبه لها، بالحياة رغم حياته المشوبة بما يشبه الموت، كطائر نادر يهوى الحرية، ويعيش في القفص بفعل ارادة الآخرين.

أما هو، فقد مارس حريته مع الحبيبة ضد الحبيبة.

أطلقت للريح جناحيه، لجأت للصمت، وامتنعت عن السؤال اعتدادا بكبريائها حتى لاتتعرض لذل السؤال، وقديما قالت العرب السؤال ذل ولو أين الطريق؟. وامتنعت عن السؤال احتراما لكبريائه حتى لايتعرض لأسر السؤال، فكانت النتيجة مغايرة لكل توقع. ولم يكن عادلا، وتعامل مع الحرية بعقلية شرقية. حكم على ذاته بالصلب. قرر أن يصلب نفسه من ذرى عقله وقلبه وجسده حتى قاع النخاع الشوكي، على صورتها الكاملة. وحكم على حبيبته ثانيا بأن يعلقها من قمتها من أعلى نقطتين فيها، من قلبها وعقلها، على شجرة العزلة والصمت والانتظار. يفرح بها ويشمت عن بعد، ثم يبكي في عمق الليل والبعد، رحمة بها وحنانا عليها وحنينا إليها. إنه يصدر الحكم وينفذ دون أن تعرف السبب. فهو الحاكم الآمر الناهي، ربما دون أن يعرف السبب، وربما لأنه يعرف السبب الكامن في أنوثتها المفكرة الطيعة المتمردة.

لقد عشق في حضورها المادي في حياته، البعد الميتافيزيائي السحيق. هي بين يديه طائر نادر يحط ويهاجر أبدا بين نقطتين وذروتين على «كرة العمر»، هما القطب وخط الاستواء. هو انسان يتغذى بالهجر، ينمو بالاستحالة، يتألق بالعذاب، يتوهج بالقلق، يزدهر بالعطش، يتجوهر بالوجد. هو عاشق من نوع مغاير.

انه عندما يأكل يموت وعندما يجوع يجود ويتجدد ويورق .

رفضته في البدء فجن بها، أعطته ذاتها فجن أكثر . لم تمس حريته بفعل أنانية حبها له، رمى نفسه كسمكة في بحر حبها، فتحول البحر الى سماء، وتحول هو الى طائر . صارت هي حريته . وعندما تبتعد، يصير العالم حوله سجنا يكاد يخنق أنفاسه . ارتبط الحب معها بالحرية، فصارت قدره حتى سبعة أجيال كما تقول الأسطورة .

أحبها بطريقة مختلفة لأنه رجل مختلف . أصدر على نفسه حكما نهائيا بأن يمر بها ليلا نهارا، طوال ماتبقى من الأيام والسنين يتشفى يسكر بالانتصار على وهم عدوة حبيبة، بعيدة قريبة . يمر معه كل من يعرفه ويعرفها، وكل من لايعرفه ولايعرفها، كل منهم يتفرج، يشهق ...!!

والريح والثلج والعطر والشمس تعبث بكبرياء الفارسة المحكومة بالاعدام حبا وبالموت وعيا الى الأبد، إنه حكم بالموت الواعي، وبالحياة الأسطورية . لاأحد يجرؤ على السؤال :

لِمَ هذه السادية ضد العاشقة المتفانية المختلفة ؟ وهل تستحق فعلا هذا المصير !؟.

لِمَ ؟ ألأنهم قالوا لها في البدء، محذرين، إنه فارس سادي ـــ نرجسي لايحب أحدا إلاّ ذاته، ولم تصدق !؟ ربما . وربما لا . فحدسها النقي به لايمكن أن يخدعها .

وتبقى « روح » الفارسة الغجرية الشقراء هي صاحبة الحق

الوحيدة ، القادرة على الحوار مع العاشق العربي البدوي السادي ، الذي يملك قرار السلوك والفعل ، وعلى جاريته العربية المعاصرة أن تنفذ . يحمل الوردة وكأس النبيذ بيد والسوط بيد .

الجارية الذكية قد فقدت كما يبدو حقها في أن تفهم مايدور في عقله . وكان لابد لها أن تعيد بناء ذاتها على ضوء رفضها القاطع لدورها الذي أضحى سلبيا في علاقة جدلية عالية المستوى لابد فيها من اتخاذ قرار تكون فيه هي الجارية ، السيدة ذات الكبرياء والعنفوان والنقاء والارادة ، ذات الحق في المشاركة في القرار الذي قد يمسها في العمق والكرامة ، ظلما ، لا لذنب ارتكبت سوى السقوط في هوة الحب والود وضعف الأنوثة وطبع الوحدانية في الحب ، والنمو مع الحبيب باتجاه الحبيب ، نحو الغد اللانهاية .

الفارسة معلقة على شجرة العشق ، وتبقى « فرسها » العربية الأصيلة الوفية الشقراء ، واقفة تحت جسدها المدلى المعذب بالشباب والوفاء ، تحرسها بصبر وعين دامعة ، تؤنس وحدتها . تقف تماما تحت قدميها الحافيتين الجميلتين ، وجسدها الغض المقهور ، وشلال شعرها الغجري المجنون المتدفق من نبع الحكمة والعسل والنار .

فارستنا محكوم عليها بأن تفقد القدرة على الكلام بصوت عال ، فإن كان قدر سيزيف حمل الصخرة الى الأبد ، فإن قدرها أن تفقد موهبة النطق وحرية البكاء العالي وشجاعة الحوار وعظمة المسير مرفوعة الهامة في شوارع النهار تعلن كسيدة راقية متكاملة الأبعاد ، واقعية الجذور ، رومانسية الأغصان ، أسطورة عشقها المتفردة على العالم الغارق في ظلام « اللاحب » ومستنقعات الجنس بلا حب . انها إمرأة فوق الاحتمال ، فوق الممكن .

وتظل « فرسها »المنطلقة من رمال نجد الى بساتين الجنة حول بردى، هي المخلوق الوحيد القادر على مواجهة العاشق البدوي السادي المعاصر، يحمل كأس الحب بيد والسوط بيد، لابد من مواجهته بالسؤال الغاضب الهادىء:

أيها الفارس العربي ..!! أما آن لهذه الفارسة أن تترجل !!؟

الصورة التراجيدية لهذا العشق ليست من الأدب الاغريقي، ولا هي من مجتمع أمريكا الشمالية السادية المعاصرة، وهي ليست من عصر قيس وليلى، لكنها من « عمرنا العربي » المعاصر الذي كاد أن يفقد صدق حدس البداوة بفعل القلق الوجودي الانساني الشامل، حين صار كل منا اثنان: إنسي وجني، خير وشر، قبول ورفض، حبيب وعدو، نعم ولا.

تحول « قيس » البدوي المعاصر الى « المركيز دي ساد » يقتل « ليلاه » ويغني، يعلمها الغناء ـــ البكاء، يحييها وينتشي، يهجرها ويتعذب، يلف ويدور حول أطلال بيت الحبيبة الغائبة « ليلى » الدمشقية الأموية، يقبل الجدران في عمق الظلام، يكتب على جوانبها شعرا جاهليا من شعر الشاعر العربي قيس بن الملوح « مجنون ليلى » يبرد جرح الشوق اللاهب، يؤكد استمرار التواصل غير المعلن، يختصر رسالة القلب التي لم ترسل، وحالة الوجد الموجعة فيكتب على جدار بيتها:

أمر على الديار ديار ليلى
أقبّل ذا الجدار وذا الجدارا
فما حب الديار شغفن قلبي
ولكن حب من سكن الديارا

يود لو يسلم على الحبيبة .. لكنها مسافرة غائبة ... يثيره الحنين إليها ، ينهل من أمير الشعراء العرب المعاصرين أحمد شوقي .... يرسم بحروف أنيقة على جدار بيت ليلاه :

سلام من صبا أرق ودمع لايكفكف يادمشق

سلامه ودمعه يرسمان الابتسامة وصورة السعادة على ثغر « ليلى » الأموية المعاصرة. وتسقط دمعة الفرح عند عتبة الباب السعيد بعودة صاحبته ، يغني المفتاح في قفل بابها ، فقيسها المعاصر لايمكن أبداً أن يصير مركيزا ساديا مطلقا . و« قيس » العصر العربي لايمكن أن يسمح للقلق الوجودي الانساني المعاصر أن يخلع عليه معطف المركيز دي ساد وقبعته ، فما إرتدى إلاّ العباءة العربية من وبر الجمل ، وما اعتلى هامته إلاّ العقال العربي ، وفارستنا على يقين بأن النخيل العربي يزداد تألقا ويتطاول كبرياء وجمالا وازدهارا وعطاء وحبا كلما تعرض لشمس الهجر والهجير ، وعلى أغصانه تتدلى عناقيد التمر ، حلوة يانعة عذبة شهية ، كلما توغلت جذوره في أعماق رمال الصحراء العربية الحارة .

فمن أقصى العطش تتدفق ينابيع الحب والابداع . ومن وراء القارات والمحيطات تعود الحبيبة ، ويعود الحبيب أكثر عشقا وقوة وصدقا ورسوخا .

إلاّ أن « العبية » العربية البدوية الوفية الطبع ، تلك الفرس الشقراء الأبية الشامخة الجامحة مازالت بحب وعتب وغضب تسأل الفارس المتيم عشقا :

أما آن لهذه الفارسة أن تترجل ؟ .

**من أوراق الصيف** تموز ١٩٨٣



قال الشاعر :

وياوطني عبدتك عن يقين

كأني قد عبدت بك الالها

عبادة الاله وعشق الوطن في بيت من الشعر يكاد يختصر تاريخ الانسان العربي في « تيار العمر العربي »، نهر الزمن العربي ينبع من الماضي مرورا بوادي الحاضر انطلاقا الى سماء المستقبل.

الانسان العربي ابن حضارة الأرض العربية المقدسة التي وطأتها أقدام الأنبياء والقديسين والصالحين والأبطال والعشاق، انسان بدوي عاشق لأرضه عشقا مبرحا منذ الأزل وسيظل الى الأبد ولن تفلح أية قوة في الفصل بينه وبين معشوقه.



قد يذهب شرقا ، وقد يتغرب غربا ، إلاّ أن جذوره العربية لاتلبث أن تتكاثر وتتنامى على البعد ، فيصير أكثر عشقا لوطنه أكثر شوقا وولوعا ، أكثر انتماء وفناء في الوطن البعيد ، أكثر لهفة وعنادا للعودة مهما امتدت الغربة ، لتقبيل تراب الوطن ، هذا الحبيب الخارق بكل ميزاته وعيوبه ، ويسقط كل وطن آخر ، وتسقط كل محاولة للمقارنة بين وطن عربي ينمو ، وبلد غريب يسكن على قمة التكنولوجيا المعاصرة جسدا بلا روح .

ركبت جناح الطموح وطرت غربا الى العالم الجديد ، الى الولايات المتحدة الأمريكية إلى قمة التكنولوجيا المعاصرة ، وأنا أعرف سلفاً أني سأعود الى وطني العربي الصاعد الى المستقبل ، أكثر عشقا لوطن تمتص جذوره نسغ الحياة من تراب الأرض المقدسة المشبعة بكنوز الحضارة والعلم والفلسفة الانسانية العربية ، تتنفس أزاهيره وأوراق أغصانه الغضة ، أوكسيجين الروح من زرقة السماء الالهية تغطي أرض العرب والعرب ، تمنحهم تميزهم الانساني العجيب . هم أبناء الأرض التي تتكلم العربية . هم في حالة عشق عربي .

عشق عربي ...!!؟

كيف أفهم أنا العشق !؟

وهل للعشق هوية !؟

هل يكفي أن ندعي التميز بطريقة عشقنا للوطن دون أن نكلف أنفسنا ، ولو للمحة ، جرأة النقد الذاتي لصورة هذا العشق !؟

هل نكون منصفين عندما نهاجم حضارة الغرب الصاعدة بسرعة

مذهلة نحو قمة النصر التكنولوجي، مستعملا العقل دون القلب، والتطور العلمي دون الروح، والنسب المئوية الرياضية دون الديباجات العاطفية !؟.

هل يكفي أن ندعي بفخر أننا أبناء الأرض العربية المقدسة التي نزلت فيها الأديان السماوية وعلى ترابها مشى الأنبياء والفلاسفة العرب والعلماء والمعلمون والشعراء والأبطال والفاتحون والبناة منذ آلاف السنين، بينما الآخرون، حيث تغرب الشمس، هم، بكل تطورهم العلمي المعاصر، لاشيء لاشيء، لأنهم لايملكون أرضا كأرضنا ولاتراثا متراكما كتراثنا، فنحن نبع الحضارات، وماضينا العريق نبع حاضرهم المجيد !؟.

وهل اذا ماتغنيت بحضارة أوغاريت وتباهيت بشعر المتنبي وفلسفة المعري، ومقدمة ابن خلدون، وقصر الحمراء، ومعركة ذات الصواري، أمر يكفي ليبرر عشقي للوطن العربي، يفتقد التطور الموازي لتطور من يملكون القوتين العلمية والعسكرية القادرتين على ابتلاع الوجود العربي الغارق في بحور الشعر، المخدر بشراب الروح، الطيب طيب النعامة تطمر رأسها في رمال الصحراء العربية المحرقة، لاتريد أن تفهم أو تتعلم لغة الكومبيوتر ولغة صواريخ الفضاء.!!؟

وهل اذا ماتواضع عالم في أقصى الغرب وعالم في أقصى الشرق، وأمتنع عن التباهي باختراعه الطبي، والعلمي لخدمة الانسانية، انسان متهم بأنه لايعشق وطنه مثلما أفعل أنا، لأنه ابن الزمن الحاضر، وأنا بنت حضارة عمرها آلاف السنين !؟ ولأن عشقه ليس عربيا، ولأن عشقي عربي ! عشقه

عشق عالم لغته الصمت والعمل، وعشقي عشق شاعر جوال لغته الغناء والكسل.

كيف أفهم أنا عشق الوطن..!؟

إن الوطن أي وطن يخضع لرياح التغيير. وعشقنا للوطن يجب أن يركب جناح ريح التطور. التغني بالتراث يتطلب بالضرورة، التغني بمجد الوطن المعاصر بكل عيوبه وميزاته، لأن الحاضر هو ماسوف ندعوه بفخر، التراث العربي المعاصر، مستقبلا. سوف يدخل بناء المستقبل العربي في تيار المجد العربي النامي باتجاه قمة التكنولوجيا الانسانية، سواء أكانت في الشرق أو في الغرب، يتعانق فيها الروح والجسد في وحدة كلية انسانية عربية، لاتذكر بقمة « الغرب » التكنولوجية التي استعملت مجدها العلمي في سبيل الانسان وضده معا، فاخترعت الأقمار الصناعية لمزيد من التواصل الانساني على شاشات التلفزيون، وللتجسس ضد الشعوب الحرة في آن معا. وما أظن قمة عربية تكنولوجية مستقبلية قد تخترع دواء ضد السرطان، وتستعمله في الوقت نفسه لتنفث سم الموت في أي شعب على الأرض.

هي ميزة الانسان العربي. انسانيته المطلقة. لكن... ولابد من لكن هذه. لابد من إنسانية عربية واعية مقابل العالم الواعي اللاإنساني.

لكن، لي كلمة مع نفسي، ومع انساني العربي المعاصر. ولتكن حرة صريحة جريئة. لكن لابد من تحليل كلمة عشق الوطن على ضوء رياح التغيير المعاصرة، انطلاقا من المثل العربية النائمة في دواوين الشعر العربي، وكنوز

الكتب الصفراء، والمتاحف، وتقاليد العرب الأصيلة والمفاهيم والقيم الأخلاقية وتعاليم الكتب السماوية .

أولا قررت أن أعود الى جذوري، الى التراث .

في « لسان العرب » للامام العلاّمة أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الافريقي المصري، المجلد العاشر باب القاف والكاف صفحة /٢٥١/ قرأت عن العشق :

« العشق : فرط الحب، وقيل هو عجب المحب بالمحبوب . ورجل عاشق من قوم عشاق . وامرأة عاشق، بغير هاء، وعاشقة . والعشق والعسق بالشين والسين المهملة : اللزوم للشيء لايفارقه ولذلك قيل للكلف عاشق للزومه هواه .

وسئل أبو العباس أحمد بن يحيى عن الحب والعشق : أيهما أحمد ؟
فقال : الحب، لأنّ العشق فيه افراط .
وسمي العاشق عاشقا لأنه يذبل من شدة الهوى، كما تذبل العشقة اذا قطعت، والعشقة : شجرة تخضر ثم تدق وتصفر .

وقال كراع : هي عند المولدين اللبلاب، وجمعها العشق، والعشق الآراك أيضا » .

جاء هذا الكلام جزءا من تعريف للعشق في القرن السابع للهجرة .

قفزت من زمن التراث الى الزمن المعاصر الى عام /١٣٩٥ هـ ــ ١٩٧٥ م/ الى الطبعة الأولى من المعجم الوسيط

« الصحاح في اللغة والعلوم » تجديد صحاح العلامة الجوهري، وهو من اعداد وتصنيف نديم مرعشلي وأسامة مرعشلي، تقديم العلامة الشيخ عبد الله العلايلي، تحت عنوان المصطلحات العلمية والفنية للمجامع والجامعات العربية.

في باب العين، وعلى الصفحتين / ٧٤٠ ــ ٧٤١ / قرأت تعريف العشق في لغة العلم المعاصرة:

**« عشق ــ العشق: فرط الحب. وقد عشقه عشقا، وعشقا أيضا. ورجل عشيق أي كثير العشق. والتعشق: تكلف العشق. ويقولون امرأة محب لزوجها وعاشق.**

التعشيق: تركيب أجزاء الخشب وتثبيتها واحد في الآخر بواسطة تشكيل مواضع الثبيت لتتزاوج باحكام.

تعشيقة (ج) تعشيقات مجموعة ميكانيكية مكونة من أجزاء متحركة متصلة أو متشابكة تؤدي الى نقل الحركة أو تغير سرعتها ».

أعود فأقول: اذا ماكانت اللغة العربية هي وعاء الفكر العربي ماضيا وحاضرا ومستقبلا، فهل ستساعدني لغتي على تفسير كلمة « العشق » وكلمة « عشق الوطن » بما يتلاءم ويتعادل مع تفكيري حول هذا المفهوم العظيم ضمن الشروط العربية التي نعيشها عربا معاصرين نتأرجح في أرجوحة عشق الوطن بين الادعاء والصدق. بين الوهم والحقيقة، بين النفعية الشخصية ونكران الذات، بين اللاوطنية والوطنية، بين الكلام والفعل. عندما لايكون الكلام مطابقا للفعل !؟.

أن تتهم بعشق الوطن مسألة كبيرة ومسؤولية أكبر. أن تتباهى بأنك العاشق المتيم بالوطن والمنظر الأول والمصالح الأكبر، حق عظيم وشرف مقدس يقابله واجب أعظم.

أن يقال عنك يعشق وطنه، مستعد للاستشهاد في سبيل وطنه، حاضر أن يموت كي يبقى الوطن، قصة لابد أن تكتب بكثير من المعاناة لكل دقائق الوطن وتفاصيله الصغيرة قبل الكبيرة.

أن تحمل مفتاح الوطن وتمضي عبر بوابته بأمان وكبرياء وفخر وفرح وزهو ولهفة وأمل، أن تنام في سرير الوطن قرير العين، وتحت مخدتك تنام آلاف السنين من الحضارة العربية تعطر نومك بعبق المجد التاريخي لأمتك، تبتسم له، تغفر عثراته وتنسى أيامه السود، وتتباهى بانتصاراته وفتوحاته، وعلى مخدتك ذاتها تتناثر زهرات ياسمين الحاضر وأزرار وبراعم ياسمين المستقبل، تعطر عطر التاريخ بعطر الياسمين وعطر الصبا والشباب، فهذا عز مابعده عز يضمك بعشق ويطويك بأزمنته الثلاثة الحاملة جوهر ديمومة العشق على مدى العمر.

العشق في اللغة كلمة من ذهب.

عشق الوطن فعل من ذهب.

فكيف نعشق وطننا العربي، كيف !!؟

كيف نعشق وطننا العربي الصغير، كيف !؟

أما أنا، فعشق الوطن عندي مسألة كبيرة ومسؤولية أكبر.

أن أعشق الحبيب ، يعني أن أكرس حياتي كي يحيا هذا العشق الى المدى ، وأن أفهم الحبيب بكل أبعاده ، فأحافظ عليه في حياتي ، لاأقتله حبا ولاأشقيه غيرة وأثرة وأنانية وجهلا وافراطاً في حب التملك .

الوطن ، عشقي الأكبر ، وأنا أرسم صورته العظيمة بطريقة عشقي له ، لابادعائي لعاطفة العشق في الراديو أو في الصحيفة أو في المجلة أو في الكتاب أو في المقهى .

أعشقه طولا ، أعشقه عرضا ، أعشقه عمقا ، أعشقه حلوا ، أعشقه مرا ، أعشقه غنيا ، أعشقه فقيرا ، أعشقه منتصرا ، أعشقه مهزوما .

من هم عشاق الوطن !؟

هم كثر ، لكن النخبة من فناني العشق هي النخبة التي تستحق لقب المواطنة ، وليت النخبة تصبح كلا شاملا ، وينتفي الأقل ، الأكثر ثرثرة وادعاء ، الأقل عطاء وصدقا .

عامل البلاط يرصف بلاط شرفة بيت حديث بعشوائية بلا « معلمية » دون أن يستعمل ميزان الزئبق بشكل علمي ، فيضطرني عمله « الأمي » لشطف الشرفة في بيتي وسقي أحواض الزريعة الشامية الناعمة ، باتجاه معاكس لقانون السقوط ، دون أن يحاول التعلم قبل العمل ، لتوفير جهودي المهدورة لرفع المياه كل يوم بمقشتي الى الأعلى ، وكان المفروض أن تنزل الى الأدنى الى أضعف نقطة بدرجة ميل مدروسة ، يدي ترفع الماء والماء يعود عكسا ، وفمي يشتم علنا وبالسر ذلك البلاط الخائن للوطن ولي

ولوقتي ، لمفاهيم العلم والفن والجمال ، لأصول الهندسة المعمارية ، فالخيانة لعشق الوطن تبدأ من انسان يقوم بعمل هو ليس أهلا له ، لا لسبب ، إلاّ لجمع المال من كل باب .

الدهّان يطلي جدران المكتب وفي الوقت نفسه يرش أرض الغرفة يطلي البلاط النظيف ، يحكم على الآخرين من بعده أن يصرفوا ساعات من الجهد المضني لحك الدهان اللاصق بالبلاط والرخام ، لهو دهان غير عاشق للوطن ولا هو بمواطن صادق لا مع نفسه ولا مع مهنته ولا مع مواطنيه ولا مع الوطن . هو نبات طفيلي متسلق على مهنة فنية شريفة في وطن أنجب في تاريخه ومن بين صفوف شعبه ، خيرة معلمي العمارة العربية الذين تركوا لنا مجدا مذهلا للعمارة العربية في الأندلس والمغرب العربي والمشرق العربي ، بدءا من دمشق وبغداد والقدس وانتهاء بالقاهرة والرباط . الوطن بحاجة ماسة الى مجموعة صادقة من أبنائه الحرفيين الشرفاء يحترمون مهنتهم وزمن الوطن وثروته ، فيوفرون زمن الآخرين ويوفرون غضب المواطنين بمدّ قطعة من القماش أو مجموعة من الصحف القديمة أو ورق النايلون ، لحماية نظافة البلاط والزمن والمال .

الشاب المراهق الغر يسرق مفاتيح سيارة والده أو والدته ، ليمارس مراهقته باستعراض عضلاته في شوارع المدينة أو القرية للفت نظر الفتيات المراهقات ، لهو مخلوق لايستحق شرف حمل كلمة مواطن ، فالتعبير عن العاطفة الانسانية قد يكون كافيا عبر رسالة أو وردة أو نظرة حب عميقة ، و« التشحيط » بالسيارات يثير حنق المواطنين واحتقار زوار الوطن من الأجانب والسياح ، وسخرية فتياتنا المراهقات ، فما عادت السيارة تثير انبهار

فتياتنا العربيات، وماعادت حيازة السيارة تزيد من قيمة الرجل في عين المرأة. تجاوز جيل النساء العربيات المعاصرات كل مظاهر التعبير السطحي عن الحب، والرجل الشاب لن يصل الى قناعة الفتاة الشابة ومن ثمة الى قلبها إلاّ على جسر الكلمة المتميزة.

والكلمة علم وشرف وأخلاق وحب، تخاطب العقل قبل الجسد. والمطلوب من شبابنا مخاطبة عقول النساء بحب وذكاء وفن وفضيلة كي يقطفوا ثمار الحب الراقي، وكي يحصدوا مازرعوا. بالغزل الموشى بالاحترام والحنان والادراك والشعور بالمسؤولية، يزرع شبان اليوم حقولا من الأزهار يقطفونها مستقبلا، جيلا من ربات البيوت والأمهات، لا جيشا من العاهرات. والعربي لا يريد لبيته عاهرة، فكيف يمنحها لوطنه، لبيته الكبير، مشكلة بلا حل؟ ولابد من حل. لابد من يقظة وجدانية فردية.

أن تكون عاشقا للوطن، يعني أن تدق المسمار بعناية وأن تمسح الغبار عن زجاج مكتبك وأن تغسل يديك قبل أن تترك بصماتك السود على جدران المؤسسات والدوائر الرسمية، وأن ترمي أعقاب السجائر في علبها، وأن تمتنع عن قصف عرق أخضر تدفع ثمنه مشاتل الدولة آلاف الليرات لتؤمن لك اخضرار الحياة حتى لاتهجم الصحراء على حياتك فتعيدك لركب الجمل بدل المرسيدس، ولتشرب ماء البئر بدلا من ماء النبع البارد الصافي.

أن تكون عاشقا للوطن يعني مثلا أن تضبط أعصابك في عز آب اللهاب، وأنت العربي ابن الصحراء العربية أصلا، وأنت راعي الجمل

الصبور سفينة الصحراء، فتحتفظ عبر الارادة الواعية بهدوء أعصابك، وتظل تتحرك بسيارتك ضمن الدور على مسارك الأصلي دون أن تقفز بنزق وأنت داخل عربتك كالأرنب الحديدي، كي تستعمل المسار اليميني النازل. من ساحة الجمارك الى ساحة الأمويين في مدينة دمشق مثلا، كي تسبق كل الواقفين في الصف فتصبح الأول الذي تجاوز خط ممر المشاة أو خط الاشارة الحمراء، كي تخرق القانون في أكثر من ناحية وتثير حنق المواطنين وقرفهم وغضب شرطة المرور فتحرك صلاحياتهم بالعقاب، وأضطر أنا المواطنة مثلاً، أنا التي تعشق القانون والنظام وتحب الأصول انطلاقا من عشقها للوطن تتمناه مثاليا فوق الأوطان، أو على الأقل مثل أوطان الآخرين بدءا من اليابان وانتهاء بأمريكا مرورا بالاتحاد السوفييتي وألمانيا وفرنسا وانكلترة أم الأصول والتمسك بحرفية القانون والنظام، أضطر أنا مثلا أن أزمر لك لأنك لاتعلم سيادتك أن اشارة المرور قد صارت خضراء، والسبب أنك لاتعلم، أنك خلفت وراءك الخط الفاصل الممنوع وصرت بتصرفك الأخرق، بحاجة لمن يخدمك بشكل غير مهذب وممنوع، فالتزمير لك أو لسيارة مخالفة من مواطن صالح يعتبر خرقا للقانون وجرحا للذوق العام وذبحا لجمال هدوء المدينة. قد تتسبب بتجاوزاتك كسائق أرعن مغرور مجنون بالسرعة، أو ربما تكون واحداً من المشاة غير المسؤولين الذين يحلو لهم مضايقة أصحاب السيارات بالمرور المفاجيء والبطيء لحظة اشتعال الضوء الأخضر للسيارات، تعبيرا عن حسدهم الأعمى لأصحابها المحظوظين. ظاهرا، التعساء في العمق، قد تتسبب سيادتك بمخالفة لانسان يقود سيارته وهو حريص أشد الحرص على تطبيق نظام المرور بدقة. انسان عربي متحضر يقود سيارة صنعت في بلد غربي أو شرقي متحضر، ليكسب الزمن ويعطي

الوطن زمنه ، لا لينام في السجن ظلما لأنه اضطر ان يدهس رجلا برز فجأة بين سيارة وأخرى على أوتوسترادات دولية يمنع فيها العبور أصلا من طرف الى طرف .

إن فن قيادة السيارة علم ، يقابله فن آخر اسمه فن السير في الشوارع من قبل المشاة لم نقرره بعد في مدارسنا كعلم أساسي مع الأسف لجيل كبير من مواطني المستقبل .

عندما أمر بسيارتي على أحد اوتوسترادات المدينة صباحا فتطالعني صورة قطة مدهوسة أو كلب قد لطشته سيارة ليلية فكومته جثة ممزقة ، أشهق لمنظر الدم في قلبي ، أعود ظهرا فأرى أن القطة الذبيحة تحت عجلات سيارات عصر السرعة ، قد صارت كومة سوداء تحس بها عجلات سيارتي ، أخفف الوطأ ألما وحزنا على القطة الجميلة المسكينة ، أتصور لو كانت القطة طفلا حلوا ، أبكي . أخاف أن أرى يوما جثة طفل جميل تتسوى مع الزفت لأن سرعة السيارات لاتسمح لأحد بأن ينقذ الجثة لدفنها باحترام ، فلا وقت لدى المستعجلين للوقوف برهة للصلاة على روح طفل أو حيوان أو وردة أو حجر يزين رصيفا . أمر مساء أبحث عن القطة الطفلة الحلوة البيضاء كالقطن فلا أرى إلاّ نقطة سوداء قد سويت عظما ولحما وشعرا وروحا مع الزفت الأسود ، أبكي لأن المواطنين في وطني لايعشقون وطنهم بما فيه الكفاية ولا من يعشق الحجر وغصن الياسمين المزهر والقطة اللعوب والكلب الأمين ولون شارة المرور الخضراء وبزة شرطي المرور . من لايحترم قلب المرأة الواعي فيغازلها عن طريق ارعابها بالحديد وتجريح السمع بموسيقى التشحيط والتشفيط المعاصرة بدلا من موسيقى الموشحات الاندلسية

والقدود الحلبية ورقص الدبكة والسماح وموسيقى شوبان وبيتهوفن وتشايكوفسكي وختشادوريان وسيد درويش، من يبيع الخبز رطبا ويصر على بيع عنقود العنب مفروطا، بلا أدنى حركة فيها من الذوق مايشير الى رحمة الأرض ونقاء الانسان والخوف من الله وعظمة التقاليد، هل أستطيع أن أسميه عاشقا للوطن أو حتى مواطنا يحرص على حماية صورة الوطن من التخلخل الخلقي، يحرص على وجود الوطن من الغزو العلمي المنظم لعدو اسرائيلي يسرق الأرض العربية، فلسطينية، سورية، لبنانية، أردنية، مصرية، ينهب التراث الفلسطيني ينسبه الى نفسه كي يقنع العالم أنه صاحب الأرض والتراث، عدو يسرق التفاصيل الصغيرة يدعم بها ادعاءه بحقه في أرض فلسطين، ونحن لانحرك ساكناً.

ان التفاصيل الصغيرة كثيرة.

ان لامبالاتنا بأدق الأمور سوف تسحب البساط العربي الأخضر الكبير. تحت أرجلنا.

إن الذي يعبث بتفاصيل الوطن الصغيرة، ويحول قيمنا الأخلاقية الكبرى الى منسيات، لهو مسؤول أيما مسؤولية عن تشويه الصورة الكبيرة للوطن، نريده أن يبنى بناء جديداً قوياً على أعمدة رخامية معاصرة تحتاج الى الأحجار الصغيرة في عمق الأساس، كي تظل شامخة كأعمدة تدمر وبعلبك والبتراء وجرش والكرنك.

أيها العربي في كل عاصمة عربية، في كل قرية، في كل صحراء وجبل، في كل سهل وساحل، انتبه..!! عشق الوطن فن.

عد الى لسان العرب .

تعشق وطنك بفن واحكام كما تتعشق الصدفة خشب الطاولة ، وكما تتعشق المرأة حبيبها ، وكما يتعشق الرجل حبيبته ، وكما يتعشق الجنين رحم أمه ، وكما تتعشق الروح الجسد ، وكما تتعشق السماء الأرض .

فالوطن العربي أيها العربي بحاجة ماسة الى عشيق عربي حقيقي ، ومئة مليون عاشق عربي لابد أن يعيدوا الأمور الى نصابها ، والعروبة الى صوابها والخريطة العربية الى حدودها الأولى .

أيها السائق العربي الى يميني ... انتبه !!

لا تتجاوز ..!! أنت مسؤول بحركتك الصغيرة عن مستقبل الأمة العربية الكبير .

أيها الحوذي العربي أمامي ... انتبه !!

العربة العربية بين يديك ، إمسك رسن الحصانين الأبيض والأسود بفن واحكام وعدل ، وإلاّ فان التوازن سوف يخون العربة .

أيها المقاتل العربي على الجهات الأربع .. اسمع .. !!

افتح النار باتجاه العدو الاسرائيلي ، فأنت مسؤول عن وجود هذه الأمة العربية ، يقبع العدو في قلبها كالصخرة ، يحيط بها من الجهات الأربع .

عشق الوطن معركتنا الرابحة حتما .

أيها الحبيب .. أيها العربي .. العربي ، اصعد على مدارج البحث العلمي ، إسهر على ضوء مصباح المعرفة ، فأنت العاشق الحقيقي للوطن ،

وأنت الوطن. أنت التراث، وأنت ثورة الحاضر، وأنت يقين المستقبل. وأنت الخلود، عشقا، عاشقا، معشوقا.

أنت العلم العربي بألوانه الأربعة، وأنت لسان العرب وأنت الصحح وأنت الصحاح.

**من أوراق الخريف ١٩٨٣**

# 1945

# هو في قمّة الخطّ البياني

سبع سنوات بعيون الشيطان .

أوراقي الرومانسية تتعرى تورق تزهر تصفر تجف تطير مع الرياح على امتداد الفصول والسنين ، قد بلغت عامها السابع .

سبع سنوات وأنا احتفل في شهر نيسان بعيد العمر ، بذكرى ولادة طفل الحقيقة في حياتي ، بيوم ولادة توأمي الفكر والقلب . الخلق الابداعي والعشق اللانهائي .

وأنا .. أعوذ بالله من شر الشيطان الرجيم ، من كلمة أنا ، اتفاءل بالرقم سبعة واتفاعل معه ، واؤمن بكل ماجاء في المعتقدات الدينية والاساطير الشعبية ، وبكل ماقاله السلف عن السبعة « وبكل ماتعلمت عن جدتي وأمي رحمهما الله ، عن مباركة « السبوع » عقب العرس أو الولادة



وبكل ماآمنتا به من قدرة « السبعة بعيون الشيطان » من رد العين الحاسدة الشريرة .

الشيطان بسبع عيون !!؟ ياله من مخلوق بشع !! لاشك أن شيطانا بسبع عيون وسبع آذان وسبعة ألسنة يلاحقني ، يحاول أن يحيط بي وبكل انسان طيب خير ، ليخنقه ، ليخنقني ويقتل حس الخير في تركيبي ، محاولا إخراجي عن طبيعتي وصمتي وصبري وحلمي وتسامحي وكبر نفسي وخلقي ، في زمن يحاول فيه الشر ، عبر بعض الناس ، أن يسود الخير في ذوات البشر الخيرين . لكن قوة ايماني المطلق بجوهر حتمية انتصار قوى الخير والحق والحب والحرية والعدل والحكمة في الحياة ، هو مايرد عني العين الشريرة ويكتب على جبيني حروف السعادة الروحية المطلقة ، متجاوزة ، بالثقة بنفسي وبمن أحب ، أحابيل الشياطين وأساليبهم المتدنية لهدم سعادتي الفكرية الراقية ، بشتى المؤامرات ·والأسلحة الثعلبية المسمومة المكشوفة لكل عاقل ذي نفس كبيرة واعية . إنهم يتسلقون جدران جحيمهم الى جنتي ولن يصلوا فلعنة الجحيم الروحي مكتوبة عليهم وهي قدرهم .

أطير نحو سماء المستقبل الحتمي الطالع من جذور الماضي على جناحي الرقم سبعة .

دخل عشقي للحياة عامه السابع ، وسوف احتفل بالسابع عشر من ربيعي والسابع والسبعين من « نيساني » أنا ، والسابع والتسعين بعد المئة والسابع والسبعين بعد الألف السابعة ، فأنا مؤمنة بفكرة ولادة الخير بعد الموت سبع مرات ، فايماني قاطع بأن مؤامرة الشياطين في الحياة ضد ملائكة الخير ، هي معركة خاسرة وان الصدق هو الرابح أبداً على مدى الزمن .

أنا ضد شيطان الشياطين من البشر ، وضد شيطان « فاوست » حتى في لحظات ابداعه .

على هذا المستوى الروحي العالي سوف أمضي نحو الغد ، متعالية كعادتي ، على القشور من الاقوال والافعال .

هذا الشعور بالثبات على المبادىء ، بالتميز والكبرياء والترفع عن صغار البشر وصغائر المواقف ، تفرضه النماذج الانسانية ــ الذئبية المعاصرة تتكاثر وتتحرك بحرية على سطح حياتنا العربية المعاصرة ، ترتدي أزياء البشر وأقنعتهم وماهي من فصيلة البشر بشيء .

على النقيض من هذا التيار المرعب ، يقف « هو » في رأس صف أبناء الجيل العربي ، في قمة الزمن العربي ، يحارب من أجل حريتين ، حرية الوطن وحرية ذاته ، تشده الذئاب بأنيابها من لحمه عبثا ، نحو الأسفل الأسفل من الغرائز الدنيا ، أنانية وحقدا وحبا في السيطرة ونزعة التملك البشعة ، في صراع ضار بين ذاته الحرة وذواتها الاسيرة ، صراع الضباع ضد الغزلان ، أملا في أن ترى في صفحة وجدانه ومرآة قلبه الناصعة ، قناعته بذواتها السخيفة الضعيفة ، وفرق كبير وبعد شاسع بعد السماء عن الأرض ، ان نشد انسانا الى الأعلى من أوتار قلبه أو نسحبه الى الأسفل من نسيج لحمه ، نحو الأسفل لن يمضي ، نحو الماضي لن يعود .

« هو » يتحرك أبداً نحو « الأنا الأعلى » بصبر دونه صبر الجمل في الصحراء العربية ، يضغط على فوهة البركان من هيجان ثورة قناعاته ، يؤجل غضبه القاطع كحد سيف « خالد » .

نفس طويل، وبال أطول، لكنه يوما سوف ينصف « الحقيقة » ويفعل ويقطع رقبة من يتلاعب بقلبه المحب الطيب ويحاول أن يَضحك من ذكائه المتربص، ليبعده عن أهدافه وعمن يحب في هذه الحياة. كل شيء يحدث مرة واحدة والحب لايحدث إلاّ مرة واحدة. وقد عانى الحدث العظيم وأحب « إمرأة متميزة » ولا قوة تمحو الحدث من العقل الذي عرف عشق الروح والجسد معا. هو « الحدث » في زمن لايعترف فيه الناس إلاّ بقوة الجسد. في المدى الميتافيزيائي السحيق من جوهر وجوده الجسدي، هناك تكمن قوة الروح عنده، فجرتها هي من حيز القوة الى حيز الفعل، فجرتها طاقتها الروحية، قوتها الجسدية. ولا قوة تلغيها. « هي » قدره قبل أن تلده أمه الغالية، أمه التي كان في طفولته يقول لها أحبك كثيراً « قد كيلو دهب !! ». فتضحك من الصبي الحلو الصغير الذي خرج عن المألوف ولم يقل لها:

أحبك « قد السما، قد البحر » !!! منذ طفولته كان ماديا، كان أرضيا بحتا، وعندما أحب حبا ـــ ماديا ـــ روحيا، صار يحب الأرض ـــ السماء، الانسان ـــ الله، الجسد ـــ العقل، لسبب جوهري وحيد، « هي ». « هو » في قمة الوعي، على المستويين العام والخاص. « هو » في قمة الزمن العربي الصاخب يضج بالتناقضات، على المستوى العربي والوطني والشخصي.

« هو » في ذروة الخط البياني على لوحة العمر الزمني والفكري والسياسي والعاطفي.

يحمل في وجدانه أقانيم الحقيقة الثلاثة: « الوطن، الطفل، الحبيبة »

ويمضي صعودا نحو الغد، قويا بهم، ضعيفا بهم، مترعا بالحياة لوجودهم في حياته.

« هو » نموذج الرجل العربي المعاصر، يعيش حرارة الخط البياني هذه الأيام الربيعية الدافئة التي جن فيها الزهر في بساتين الغوطة تحت ناظريه، وجنت الأحداث.

« هو » يصعد يصعد الى أعلى أعلى، غايته ان يتربع على أعلى قمة للتفكير « كبوذا » الذي عرف كل شيء، مثل « جلجامش » الذي رأى كل شيء.

« هو » والمستقبل على موعد قريب. يرفض أن يكون المستقبل غدا، يريده وبشدة، يشده وبقوة، يريد أن يقبض عليه، اليوم، الآن، اللحظة !!
« هو » يقفز، يطير الى المستقبل ينزل جنته الغامضة المثيرة بمظلة الطموح والتنبؤ.

« هو » يجسد أسطورة الهولاندي الطائر على الطريقة العربية. قد مل الشباب وهو في عز الشباب. انه « العربي الطائر » الى سماء الحكمة والنضج. غرق في محيط عشق الوطن، عبر بحيرة العشق الى الحبيبة المتفردة، وجد فيها ما لن يتمكن علماء النفس مجتمعين من تجسيده في امرأة، طباعها تلائم طباعه. بكلمة واحدة اختصر سر تعلقه بها وسر تفردها بين النساء، وسر ديمومة عشقهما ولانهائية ارتباطهما: « حبيبتي.. أحبك.. أحب « النفي » فيك... !! قولي « لا » ثانية فأنت « نعمي المطلقة » .

« هو » عاشق للوطن، للطفل، للحبيبة. عانق الوطن والعلم العربي

والعلم السوري والطفل والحبيبة، فتخطى لعنة الشباب، ووصل راضيا مرضيا الى تخوم شيخوخة الحكمة. فتجعدت روحه، وتحرر وانعتق من سخف الأشياء، وضحالة الأرواح، أرواح من هو مجبر على الحياة معهم، أرواح من هم أقل منه ويتحركون حوله، وتحرر من فوضى العلاقات الانسانية والعلاقات المادية والجسدية التي صار فيها الناس شوكا على حرير.

تحرر من الشوك وتمسك بحبال الحرير العسلي الأشقر. تعلق بالضفيرتين الشقراوين النابعتين كنهري عسل من عقل حبيبته « رابونتزل » العربية. وتسلق عليهما الى نافذتها في برجها العالي العاجي، منتصرا على سيوف الحراس الأغبياء، فلا سيف مسموم يتمكن من رقبة طائر الحب والحرية. منحته « الحبيبة » قوة خارقة.

وجلس على مائدة الحراس الاشراف تلتمع سيوفهم الذهبية في عتمة الليل مبشرة بنور النهار، بنور الحرية والحق والعدل والخير والحب والجمال. إشترك في الحوار حول مسألة انقاذ وتحرير الحبيبين « الوطن والحبيبة »، « الكل والذات »، « العام والخاص »، وأثبت انه الأول فكرا وانتماء وفعلا، لن يقبل إلاّ أن يكون الأول. طوال حياته المدرسية كان يتأرجح في أرجوحة تنوس بين الاخفاق والنجاح، بين الكسل والطموح، بين الغرور الفارغ والمعرفة الحقة، بين الادعاء والتواضع، بين الوهم والقدرة.

حتى « معلمته » الأولى كانت تخاف قسوة ملامحه وجنون غروره ونزقه، تخاف رجولته المبكرة في عز براءة الطفولة.

« هو » ومنذ البدايات، طفل وشاب وشيخ. يقبض على الأمس

واليوم والغد بيد من حديد، ضحى بجزء غال منها ليبقى الوطن، فغدا ضعفها جبروتا، وغدا نقصها مفجرا للعطاء، وغدا قهرها الساكن قلبه، عشقا كليا وحنانا دافقا للوطن وللطفل وللحبيبة. في اليد الأخرى يقبض على حزمة البنفسج والحنان والصبر والتسامح والعذوبة واللين وشفافية الروح، إنه رجل من « صخر وبنفسج »، وأنا أسيرة هذا الرجل ـ القدر من صخر وبنفسج بكل إرادتي ياله من عجينة انسانية عجيبة !! مشدودة أنا إليها من حبال الروح.

أنا ... أعرف أنه رجل والطموح توأمان..

أنا ... أعرف أن الطموح بلا عقل تهور. وأنا.. أعرف أن الطموح باستعمال أدوات الشر، إخفاق وهزيمة وسقوط.

وأنا.. أعرف أن الطموح باستعمال ذكاء الآخرين، أو بساطة الآخرين، بغية الوصول السريع، وحرق المراحل، وصولية مرفوضة، ومشروع ميت سلفا.

وأنا.. أعرف أن الطموح باستعمال القلب الشجاع والعقل التحليلي والقدرة على التركيب، والاستهتار بالموت في سبيل المبادىء السامية والقيم الانسانية المتحدرة عن السلف الصالح، وفي سبيل حياة أفضل للوطن، أمر مطلوب ومقدس.

وأنا.. أعرف أن اختصار دروب العمر بالاجتهاد والسهر والاخلاص في الحب والتفاني في خدمة الاخرين عبقرية وموهبة وحب خالص.

أنا أعرف هذا كله، وأعرف أنه يعرف أني أعرف، وأراقب عن بعد

وعن قرب أي طريق يسلك، على ضوء معلوماتي عنه، تأتيني عبر الحدس والتفكير العميق والتجربة والاستنتاج والادراك.

أنا أعرف، وهو يعرف أني أعرف، أنه يحاول أن يكون طموحا بلا غرور، حكيما بلا طيش، عاقلا بلا ادعاء، صاعدا الى القمة بلا غرض مادي، يعد للعشرة، كما وعدني، قبل أن يهدر صوته غضبا في وجه من يسيء إليه، أو يشك أنه قد يسيء إليه.

أنا أعرف، وهو يعرف أني أعرف، أن الانسان انسان، وليس إلها. قد يأخذه خير ويرده شر، قد يطلب قمة وقد تصل به درجات السلم الى القاع، ان نسي لحظة أو تناسى قانون الصعود، التعاليم السماوية، والمثل الانسانية، وقيم الانبياء والاجداد والآباء، وسلوك الانبياء والابطال والفلاسفة والعلماء والفنانين.

أنا أعرف، وهو يعرف أن وجود أحدنا في دائرة حياة الآخر، هو وجود المعلم والتلميذ معا أمام المعلم والتلميذ معا.

علاقته بمعلمة البنفسج في عهد الطفولة تستمر عبر علاقته بعاشقة البنفسج في عهد الشيخوخة ـــ الشباب.

شبهته بالهولاندي الطائر، تحرر من سخف الشباب الى اتزان الشيخوخة، ومن عبودية الجنس والحياة الى حرية الحب والفناء.

عرف أخيرا الفرق بين المشاعر الراقية والرغبات المشتراة بالشباب، المباعة بالذهب والدولار والتقاليد البالية.

الهولاندي الطائر، يعبر محيط الحياة في مركبة الاسطوري، يعاني وجع شبابه المتفتح أبداً، ذا النكهة المتميزة، يقسره على معايشة بعض القاصرين ذهنيا وروحيا من أبناء وبنات جيله.

« هو » يحاول بجهد مذهل ان يختصر في ذاته الفانية الضعيفة قوة معنى تواصل الازمنة العربية والسورية.

« هو » وريث نور ضوء القنديل في بيت جده وجدته، ودفء حطب الموقد، وحلاوة نغم « العتابا والميجانا » و« الأوف » و« ياليل ياعين »، وهو حامل هم الأزمنة الثلاثة المتشابكة بصبر أين منه صبر أيوب، يستبدل التهور بالتروي والطيش بالحكمة والجهل بالعلم والحقد بالحب والفقر بالعمل واليأس بالأمل.

ثنائيات تلازم خط حياته، يعلمه التضاد فيها، كيف يقهر السلب بالايجاب.

يفرز عناصر الحياة كبيرها وصغيرها، يسقط من حسابه، من حساب الزمن الغالي على خارطة العمر، الضحالة والجهالة والحقارة والصغار ونوازع الغيرة المسمومة والحسد الأعمى والقدرة على الأذى عند بعض الناس الذين يعيش معهم أو يضطر للتعامل معهم.

يسبر واحدهم، واحدتهم، بنظرة فاحصة عميقة نفاذة، بفراسة عربي بدوي قادم من رحم الصحراء العربية، بخبرة راع عربي نازل من قمم الجبال العربية، بمعرفة رجل عربي آت من عمق تفاعل الأجيال العربية الهابطة من عصر أبجدية اوغاريت الى عصر الجاهلية، الصاعدة ثانية الى

عصر الوطن العربي الأخضر الواحد، عصر الكومبيوتر المكتوب بالحرف العربي.

« هو » عربي متفرد، يختزن اللحظة، العصور كل العصور، يأخذ زبدة الانسان ويرمي القشور المتخلفة، الجهل والفقر والمرض.

عندما بلغ هذه النقطة على سلم الخط البياني تمكن أن يصير حكيما رصينا هادئا بعد أن كان عصبيا أخرق الطباع، سطحي الغرور، وتمكن ان يحقق في عصره، جانبا من شخصية الهولاندي الطائر وقصة قدره مع الحبيبة « باندورا » في الاسطورة.

الفرق بينهما ان « الحب » أعتق الهولاندي من لعنة ديمومة الشباب والحياة باتجاه حرية الدخول الى الشيخوخة والموت وسعادة الفناء. بينما الحب قد أغدق على العربي الطائر « عظمة الشيخوخة المبكرة »، ونعيم الحياة في عز الشباب الفوار، شباب الزمن العربي الطالع الى قمة المجد. على لوحة التاريخ الانساني المعاصر، القمة التي يرفرف عليها علم الوحدة العربية كما يتنبأ الشاعر العربي السوري سليمان العيسى. الحضارة الغربية عجوز تسير الى حتفها رغم كل مجوهراتها وقصورها وسياراتها وثرائها التكنولوجي، والحضارة العربية هي «سندريللا العربية» الفقيرة الطالعة الى قمة مجدها هناك، حيث يرفرف العلم العربي ويتألق صباها ويزدهر وجودها.

هو الاسطورة، وهو الحقيقة، وهو الرمز المستقبلي.

« هي » « أنا » في الوادي الأخضر على ضفاف نهر « بردى »

المنساب بفروعه السبعة بين بساتين « الشام » الحاملة أشجارها زهر المشمش والتفاح والكرز في ربيع الغوطة المتجدد ، أجمع الزهر الملون في سلتي لأرش العطر على وسادته تحت رأسه المتعب المثقل بهموم الوطن ، والطفل والحبيبة ، المرأة الممكنة المستحيلة ، تلك التي ترقبه بسرور وتتوقعه بفخر وتفرح له بغبطة .

« هو » على القمة من لوحة الخط البياني ، يراني جيدا بمنظار مقرب ، لكنه يمتطي حصانا مجنحا ملونا « كفارس » لوحة أدهم اسماعيل . يطير نحو قمم أعلى وأعلى وأعلى على حصانه العربي الطائر .

« هو » نموذج الفارس العربي المعاصر حلم الأجيال ، خلاصة تناقضات وتفاعلات التاريخ العربي والمذاهب والفلسفات والمعتقدات والأفكار والمشاعر والأحلام والأمنيات والوجوه .

صوته ، صوت يختصر رنين الذهب في حناجر الاجداد والآباء والأبناء الذين لم يولدوا بعد من أبناء الضاد .

« هو » هرمون عربي مذكر بخصوصية تجعله رجلا ولا كالرجال على الكرة الأرضية ، شرف السلوك عنده من شرف الوعد من شرف الكلمة من شرف الفكرة والعقيدة . يثير في حنايا الجنس الآخر ، حركة الحياة ونزعة البقاء وغريزة الديمومة ، كما يفجر ينابيع الحزن الاقصى والفرح الاقصى معا .

معه عرفت كيف أفرح وأحزن معا ، كيف أبتسم وأبكي معا ، كيف أنقهر وأنتشي معا ، كيف أنهزم وأنتصر معاً .

« هو » القارة السادسة ، أين منها قارة الاطلنيتد في عمق الاطلسي .

هو القارة السادسة
هو من اكتشافي أنا ..
هو من صنع قلبي أنا ..

وبعد ان ألقيت عليه اضواء عقلي ، بدا الاخرون ـــ النيام يكتشفون ندرة الثروة ، ينزلون شواطئه بنهم بحثا عن الذهب ، املا في اكتشاف كنوز المعادن الثمينة والجواهر الكريمة في الانسان منه ، جواهري وكنوزي ، ولكن عبثا ،فليس المهم ان يملكوا بصرا بل بصيرة .

بغرور أنثوي مطلق اقول ، عبثا ومطلقا لن يمتلكوا قارتي حتى ولا بعد موتي .

« هو » ليس رجلا كاملا ، الكمال لله وحده ، رجولته تتكامل صعودا ، تخلع عنها رداء الشباب المزخرف سعيا للغوص في دفء حنايا حكمة العباءة العربية الناطقة بالضاد والصاد والقاف والعين والغين والخاء والحاء .

حبيبتي ..!! تأتي من عمق صدره ـــ الجبل المختنق بنبع الحب العربي الصافي البارد في عز الهجير العربي .

حبيبتي انت ...!! هو وحده القادر على قولها وحمل مسؤوليتها قولا وفعلا ، لحظة ودهرا .

حبيبتي ..!! تأتي من جرح الذات المبعدة قسرا بفعل سمو شعوره بالمسؤولية عن مستقبل الوطن .

حبيبتي ..!! تسيل من النخاع الشوكي في ذاته ، عسلا مصفى ، تزلزلني تمحو غضبي وعتبي ، وتضحك سني وقلبي ، وتزهر عقلي وجنتي ، تأتي من حنجرته ــ عقله ــ قلبه ــ جنون جسده ، كلمة عبقرية الصدق والدفء ، تختصر الكلام كل الكلام وتقطع الطريق على الجدل العقيم بين عاشقين حقيقيين تفرقهما عبثية الحياة ، وتجمعهما ارادة الحب ، بكبر لا مثيل له بين اثنين قد وقعا معا على أرض الحب .

حبيبتي ..!! تأتي من اخر نقطتين في قلبه وعقله ، عربية الحرف عربية الجوهر . «هو» الذي يسلم عليك فيقول لك، مرحبا..!! لا « مرهبا » ولا « هاي » ..!! ولا « هالو » ..!!

« هو » الذي يناديني « حبيبتي » ..!!

لا « هبيبتي » ولا « دارلنغ » ولا « سويت هارت » ولا « هني » ...!! ولا « شيري » ..!!.

« هو » الذي يودعكم فيقول « السلام عليكم » «أودعناكم» ، لا « باي » ..!! ولا « سي يوليتر » ..!!

هويته لن تكون يوما اثنتان لا معي ولا مع الحرف العربي ولا مع الارض العربية ، لانه يوم يكون سوف لن يكون . وهو لن يكون اثنان لانه عربي إبن القاف والضاد والعين والكاف . هو العين . ولانني حبة عينه ،

لاني قرينة روحه ، لانني مثله أفرز القشور من سلوك الاخرين معي وأحتفظ لنفسي باللب ، فانا أرمي قشوره ، ولكل منا قشوره ، وقد فرضت عليه إذعانا منه لعبثية قانون الحياة ، المبني على التناقض . لا اتناول إلا الزبدة ، تماما كما تمكنه حكمة الشباب القادمة قبل الاوان ، من أن يرمي قشوري وقشور الاخرين ويبقي لنفسه القشدة ، فيطول عمره وتطول دقائقه الثمينة ، ويتحول النهار والليل في حياته الى جو من الطرب الروحي والسعادة الواعية . لا مكان فيها للنغم الشاذ ولا زمن فيها للاعادة والشرح والتكرار .

ولانني مثله ، أرمي من حياتي « الايام السود » التي لا تجمعني فيه ، انتظارا ملتهبا لليوم القمة ، أرمي القشور من الايام الخاوية ، واتغذى باليوم ، القشدة العربية الدسمة الناصعة ، أحارب به عبر الذاكرة الحية الخلاقة ، كل ما قد تحمله لي الأيام السود البلهاء الخاوية السديمية القادمة ، بفعل قوى الشر حوله وحولي ، من مشاعر وجع الفرقة والوجد والحنين ، للصورة والصوت معا ، للشكل والجوهر معا .

هو النهر يتجدد كل لحظة .

هو ، رمز التيار الواعي في زمن العرب اللا واعي .

هو ، الحب يرحل نحو المستقبل بسرعة مذهلة تخيفني . وما على الحبيبة الا ان تطير ، كي تظل المسافة بينهما واحدة ، كي تظل هي حبيبته التي تنمو وتتجدد بالحب وبأبجدية الحرف الى مالا نهاية ، تتجدد دورة حياتها سبع مرات ، كما تتجدد دورة الفصول أربع مرات . تحيا وتعيش سبع مرات أربعة فصول ، تعيش سبع حيوات بسبعين شتاء وسبعين ربيعاً وسبعين صيفاً وسبعين خريفاً ، تموت ثم تحيا ، ويموت هو ويحيا سبع

مرات ، وتظل هي حبيبته ويظل هو حبيبها . يظلان معا علاقة جدلية أبدية تفرز العشق الحقيقي . يعيدان الى الأذهان اسطورة « باندورا » والعربي الطائر ، لا معقولية وحتمية عشق جورج صاند وشوبان ، وجود احدهما ضروري لوجود الاخر ، أسر احدهما انعتاق للآخر .

وجودهما معا ضروري للوطن ، لوحدة الوطن . وعشق النقيضين هو أمن الوطن .

وسبعة بعيون الشيطان .

**من أوراق الربيع ٢٤ نيسان ١٩٨٤**

١٩٨٥

# قرار امرأة

في باريز وضعت القرار .

من عنف إيجابية الحب نبعت سلبية قرار الانفصال .

في القطارات ، وحدي ، بين باريز وتونون وجنيف وفرانكفورت ولورماين ذهاباً ، وإلى فرانكفورت وباريز إياباً . وفي السيارات بين باريز وضواحي باريز ، وفي الطائرات بين باريز ولندن وباريز ودمشق ، كان القرار في العمق مني ينتصر ويتعمق ، يصير عملاقاً ومستقبلا وحرية وولادة جديدة .

قرّرت أن أرحل الى مستقبلي العظيم ، وأنا في أوج الوعي وذروة الانتماء السرّي المطلق الى الحب ، مطلق الحب .



قررت أن أترك الحبيب يعيش في المنفى بعيداً عن وطنه الأصلي، أنا، محاصراً بقلعة المستحيل.

كان فارساً شجاعاً معاصراً أين منه خالد بن الوليد، وعمرو بن معدى كرب. وصار سيفه شبحاً أين منه سيف دون كيشوت الخشبي!!!

وقرّرت أن أتركه محاصراً بي وبماضينا وأرحل إلى مستقبلي، والقلب ينزف دمعا ودما على الرجل الأول منه مقتولاً بيد الرجل الثاني فيه، والأبهر، أبهري، نهر مفتوح على البحر الأبيض المتوسط.

في الحب ينتصر قانون المستحيل، يسود شر الفرقة، تورق أغصان الأحزان، وتخضر في ليل العشاق الأوراق الرومانسيّة ربيعاً صيفاً خريفاً شتاءً، تخلّد المشاعر الحقيقية الثابتة في زمن متحوّل.

قال نابليون بونابرت في باريز يوماً:
«ينتصر في الحب من يتمكّن من الفرار أولاً».

لم أفهم ماقاله نابليون إلاّ بعد سبع سنوات من وقوعي على أرض الحب المطلق، الحب الذي يحدث مرة واحدة.

بمنتهى الكبرياء، بكلّ قوة الاعتداد بالذات، ألغيت سطوة القلب، وقرّرت أن أطبق حكمة نابليون العظيم، وقررت أن أظل المرأة، الحلم، الحبيبة، المطلوبة، البعيدة، المنتصرة، المستحيلة، المالكة، الملكة المتوّجة على قلبه وجسده وعقله. أحمل في يدي مفتاح صندوق الكنز، أطوي في صدري سرّا عظيما سوف ينطوي معي.

يسألونني عن سرّ تألّق إبتسامتي وشبابي، عن سرّ ديمومة قوّة شباب الحب في حياتي !؟

أجيب بقدر، أخفي ماتبقّى بين ضلوعي.

لن يتمكّن أحد منّي في سويداء قلبه، في جوهر قناعته. حبّه لي قوّته الذاتيّة المطلقة، وسر جمالي وانوثتي.

حبّي له قوّتي الداخلية العظيمة، وسر وسامته ورجولته.

لن تتمكّن قوّة من إبادتي، ولن يتمكّن رجل، ولو كان حبيبي، أن ينهي قوّة النمو نحو المستقبل داخلي، لن أمكّنه من ذاتي المضيئة الحلوة.

عقلي معه هو الأول، وقلبي هو الثاني.

قلبي معه هو الأول، وعقلي هو الثاني.

أنا الأولى في حياته وأنا الأخيرة.

أحبّه بكبرياء عظيم، ولن أكون رقماً في حياة أحد. أنا النساء كلّ النساء والباقي أصفار. وجوده إلى جانب الأصفار، هو، واحد إلى اليمين، وهي، أصفار إلى اليسار، يؤكّد لاقيمتها، لامعناها، لاوجودها، لاجدواها.

امرأة أنا، حريّتها نارها، كبرياؤها نورها. لاأحد يعادل ذوباني الكلّي، أنثى، إنسانة، مبدعة. لاشيء يلغيني، لا رجل يطويني، فأنا أكبر من أبعاد الرجل، حتّى الحبيب. الحبيب يكبر، يتألّه، بشدّة تركيزنا عليه، باسقاط ذاتنا العالية على ذاته، ويعود إلى حجمه الطبيعي عندما نرفع رأس

النعامة المطمور برمال الصحراء، عندما نخلع نظارات الحصان ونراه بشكل علمي موضوعي شمولي أرضي.

رمال متحركة أنا... سأبتلع من يحاول المغامرة والسباحة بين أمواجي.

مستعصية أنا على الهزيمة، لسبب واحد، هو أنني اليوم أكبر مني بالأمس، وأنني في الغد أكبر مني في هذا اليوم.

شهرزاد معاصرة أنا... لن يتمكن شهرياري مني، لن يتخلص مني، لن يقتلني، قوتي أن كلمتي هي أنوثتي.

ولست أدري بعد، إن كنت أمثّل ذاتي أم أمثل جنسي المعاصر كله.

لست أدري إن كانت أوراقي الرومانسيّة هي أوراق ذاتيّة بحتة، أم أنها مرآة فضية تعكس تجربة الحب بكل أبعاده الايجابية والسلبية لدى امرأة دمشقية شاميّة، أمويّة، سوريّة، عربيّة، عالميّة، انسانيّة، كونية معاصرة !!؟

في دعوتي للعودة الى الطبيعة والحب، مدّ وجزر. هذا المدّ والجزر بين الدعوة للحب الكلي، والدعوة للقدرة على الانسحاب من الحب الكلي، بين الدعوة للفرح الغامر والألم العارم، وبين الدعوة للاستسلام للهزيمة الفاجعة، والنشوة بالانتصار الكلي، هو سرّ حالتي، هو سر كتابتي، هو سرّ العلاقة القائمة بين رجل وامرأة في حالة عشق أسطوريّة التكوين، خرافية المعالم، مستعصية الحل، أبدية المستقبل.

أما متى تظل المرأة حبيبة أبداً في حياة الرجل الحبيب، رغم النساء، بعض النساء الأصفار، فهو السرّ العظيم الذي أملكه وحدي، ولن أبوح به لكائن بشري. فهو سرّي أنا، وأنا أنثى من الشرق العربي المعاصر، سرّ غامض لايفسّر، وقوة روحية كامنة لاتخضع للتحليل والتصوير.

العالم قد يكتشف قانون السقوط.
والرياضي قد يكتشف قانون الطيران والسباحة في الفضاء.
والطبيب قد يكتشف سرّ تجدد الدورة الدموية.
والفلكي قد يكتشف سرّ اللانهاية في الفضاء.

إلاّ أن المرأة العاشقة، دون علماء النفس، هي التي تكتشف وحدها قانون الحب، وسرّ قانون النجاح، والاخفاق في العلاقة العاطفية بين الرجل والمرأة في الزمن المعقّد، لو تمكنت أن تكون اثنتان: متفرجة ولاعبة في ملعب الحياة... لو رفضت بكبرياء أن تكون الكرة.

قد تقولون: الحب حب وليس عقلا..!!

وأقول: حتى في الحب المعادلات الرياضية تملك سرّ التوازن الانساني، كما تملك في المادة سرّ التوازن الكوني.

أحبّ الحب بكبرياء.
أحبّ الحياة بعفوية.
أحبّ رجلي بعقل.

أوراقي الرومانسية في القرن العشرين، أطيرها مع الريح. بنفسجيّة

هي أوراقي، ياسمينيّة هي أوراقي، وردية هي أوراقي، ذهبية هي أوراقي، عاشقة هي أوراقي مغمّسة بزيت الحب.

هي دعوة حارّة للعودة الى الطبيعة الأم.
هي دعوة للعودة بالانسان الى الحب.
هي دعوة للدفاع عن الحب في عصر الجنس.
هي دعوة للاستغراق في الحب سنكراً ووعياً.
هي دعوة للنهوض بكبرياء الحب ذكاءً ونقاءً وشرفاً.

أوراقي في الآه.. يأأنا... !! هي أوراق الفصول الخمسة في الطبيعة:
فصل الربيع...
وفصل الصيف...
وفصل الخريف...
وفصل الشتاء...
وفصل الحب... !!

فهل من يدور مع دورة الفصول الخمسة ويلبّي نداء الحياة، ويتحرّر من شوائبه، انصهاراً في بوتقة التجربة.. !!؟

براعم أوراق الربيع الخضر بدأت تمدّ رؤوسها على أغصان نباتات وأشجار الغوطة مع اقتراب شهر نيسان ١٩٨٥.

نباتات الشرفات والأحواض في البيوت الشامية بدأت تتغندر ليبدأ عرض الأزياء المثير قريباً.

أنا .. الآن .. في حضن الشام أتذكر ماكتبته في باريز :

في باريز كنت «أنا العاشقة المعشوقة» أتحرك مع عقربي الساعة بين عامين، عام ١٩٨٤ وعام ١٩٨٥ . الحرارة وصلت حتى ــ ١٦ تحت الصفر .

أخفي أصابعي المثلّجة داخل جيبي المعطف الأسود، وأكتب القرار في عتمة الجيبة اليمنى .

شوارع باريز الجميلة الأنيقة الفاتنة يعتريها الصقيع، تلفحها ريح الثلج، تستقبلني، تستقبل خطوات جزمتي، وتسمع صوت العقل النيّر المشرق المتفتح، وترهف السمع للهاث وأنين القلب المشتاق المدمّى .

أحن حنيناً قاتلاً الى ربيع الشام وشمسها الدافئة، لكنّي في البرد أزدهر، أفضّل الثلج وأعشق الشتاء، حرية للعقل، تحرراً للذات الأسيرة .

في باريز، عاصمة النور والفن والعشق والتاريخ والحرية، المغطّاة بالثلج، بي، وضعت قراري . في باريز أكتب الأوراق الرومانسية الأخيرة على جدران العقل اللامرئية . فأنا روح عاشقة ملتزمة، تصارع داخلها فكراً موضوعياً متحرراً . بكل تواضع المكتشفين أقرر مايلي :

في دمشق الأمويّة اكتشفت أسرار ديمومة شباب الحب على سطح الكرة الأرضية .

من رجل واحد في دمشق التاريخ، أدركت سرّ الرجال كلّ الرجال، في التاريخ الانساني .

في الشام اكتشفت سرّ معادلة الحب الصعبة.

في دمشق ــ الشام تم الكشف أولاً عن سرّ الرجل، مطلق رجل. تمّ الكشف بوساطة منظارين مقربين، بالقلب المطحون في مطحنة الحب، وبالعقل المحلّق في سماء الحب والكبرياء والإبداع.

بالقلب وبالعقل، وضعت يدي على سرّ الكنز، كنز الانتصار في الحب، على جرثومة موت الحب في النفوس الضّعيفة. ولن أبوح بالسرّ أبداً.

على الطائرة بين باريز ودمشق، أكتب في مفكرتي: يكفي أنّي أحبّه حباً مطلقاً.

يكفي أني على يقين بأني حبّه المطلق، وأنّي شريانه الأبهر المفتوح على الشام أبداً.

قريبةٌ بعيدةٌ هو لي.
حيةٌ ميتةٌ هو لي.
أوراقي تحمل قصتي بكل تناقضاتها.

قصتي أني كنت بين قمتين، عاشقة للتراث العربي، للماضي، مأخوذة بالتكنولوجيا العالمية المعاصرة، بالفكر المستقبلي المعاصر، بالمستقبل.. أقفز الى أحضان المستقبل قبل أن يصل المستقبل. امرأة بهوية من هويتين، في الهوية الأولى تاريخ ميلادها، خمسة آلاف سنة قبل الميلاد، وفي الهوية الثانية تاريخ ميلادها في الثلاثينات من القرن العشرين بعد الميلاد.

تركت الحارة الشعبية العربية الاموية الشامية في القرن العشرين، وركضت بفرح الى الشارع المعاصر، يدان مفتوحتان وقلب مفتوح وعقل متطور. دخلت الشارع العريض لحياة الانسان المعاصر، ارتميت كلياً بين أحضانه.

فرحت ثم بكيت.

ضعت. انكسر قلبي، انشعرت روحي، تشوش عقلي، مادت الأرض بي، صدمت بمقدساتي الجديدة، كدت أفقد التوازن الكلي. وبشيء من صحوة الفكر وبشيء كثير من الكبرياء ومن قوة الجذور، وبشيء من عقلي النير وقلبي الطيب، بما تبقى منهما، قررت العودة الى الأصول والجذور. قررت العودة الى موطن قوتي، الى الحارة العربية الشعبية العتيقة في مدينتي مدينة المدن العربية القديمة، قررت العودة الى جذوري التي تشرب نسغها الانساني المتميز من أرض المدن العربية القديمة كل المدن، الى إنسانها البسيط الفقير الأصيل، الى أناسها كل أناسها.

أين الأمام... !!؟

لا أمام في الشارع العريض.

قررت أن أسير الى أمامي أنا، الكامن في الاصول والجذور.

مع تجربة الدخول في الشارع العريض عانيت تجربة «الباب الضيق» معاناة معاصرة.

خرجت من «الباب الضيق» إلى الشارع العربي المعاصر، لأعود

وأدخل شارع الحياة العريضة الطويلة العميقة، عبر بوابة الحارة العربية الضيقة.

الآن استطيع أن أخبر استاذتي في الفلسفة وعلم النفس السيدة جولييت عويشق الخوري، اني قد فهمت الكاتب الفرنسي العظيم اندريه جيد في روايته «الباب الضيق».

الآن في العام ١٩٨٥، استطيع ان أنجح بطريقة جديدة في مقرر الشهادة الثانوية للعام ١٩٥٠ حين كنت طالبة، في تجهيز البنات الأولى في طريق الصالحية في دمشق، القصر الجميل الذي هدمته آلات التكنولوجيا المعاصرة، ومازال يسكن الروح وقاع الذاكرة صرحاً لايهدم. يامعلمتي جولييت.. ياأمي الروحية: لقد دخلت «الباب الضيق» كما دخله السيد المسيح واندريه جيد وأنت!! لقد نجحت تلميذتك في امتحان الحياة الصعب، تفوقت على التجربة المريرة، والفضل للمعلمة الأولى أنت، وأنت، داخلي، الروح التي لاتنطفيء. ولكل منا معلمه الأول ولكل منا ناره ونوره. ومعلمتي هي النور يشع أبداً من سماء العقل والمحبة.

قال المسيح عليه السلام: إجهدوا للدخول من الباب الضيق. دخلت عبر الباب الضيق، انكشف لي السر.

اخرج الآن من الباب الضيق لاعود الى حضن الطبيعة الأم. أمي الشعبية، الشام، جنتي. ففيها يكمن سلام روحي بعد حرب ضارية مع رغبات الذات، ينتظرني في رحمتها خلاصي مما بي، وفيها الطفلة، أنا، تنام وينام الأمان، وبين حيطان حاراتها الطينية الضيقة، وشبابيك بيوتها العربية

المتعانقة، سوف تحدث ولادتي من جديد في دورة حياة جديدة، وسوف ألقى ماتبقى من مستقبلي، وأعلن في وجهها الرضي الطيب: ياحبيبتي ياأمي، ياطفلتي، أنت الغد، أنت الأمام كل الأمام.

أخلاق حارتي العربية هي أخلاق العشق لا يخون، وسر مدينتي الاموية هو سر العشق لا يموت، وعلى أعتابها ينتحر تهريج المدينة المعاصرة، السيرك.

الرجل الذي أحب حارتي «حارة الورد» في الشام قال لي يوماً: أحبك ياأموية !! وكان يقصد أن يقول: أحب حبك لي ياأموية !!! أحب حضارتك ياسليلة بني أمية، بناة أكبر امبراطورية في التاريخ العربي. حضارتك تبهرني، عشقك يحيرني. عندما تتخلين عن عشقك لي، سوف أعود الى الشارع العربي المعاصر، تمثالاً من الحجر مفرغا من المحتوى، خاوي اليدين من ثروة الحياة. يراني الآخرون، ولا أرى أحداً إلاك أنت. آه .. منك أنت .. ياأنت .. !!!

مرّ هو القرار. لابد من القرار.
لابدّ من تطبيق حكمة نابليون بونابرت.
لابدّ من سيادة حكمة باريز على عاطفة دمشق.
سوف أبحر نحو شاطئ الحبيب بعيداً عن الحبيب.
قررت أن أظل حبيبته أبداً.

فقد كشفت سرّه المطلق، ولن أبوح بالسرّ.

حتى هو لايعرف أني أعرف سرّه.

قررت أن أرحل، وأترك حبيب العمر محاصراً بي وبماضينا .
ماقد حدث يكفي لرحيلي .
أخذ سبع سنوات من عمري .
الثامنة لا ...

قررت أن أقتل النساء كلّ النساء حوله مستقبلاً بفعل رحيلي ... فهو قد يتحمل امرأة لايحبها مفروضة عليه، بفضل وجودي في حياته . أما غدا ... فلا .

لن تتكرر في حياته امرأة مثلي . ليس غرورا، لكنه اليقين بفعل المقارنة بيني وبين الاخريات، بين ماهية الحب والفكر والالتزام ونقاء السريرة ونبل الطبع وسموّ الخلق عندي، وعند الأخريات .

الثقة بالذّات هي الأنوثة المطلقة، هي الجمال والكمال، هي القوة، هي الخير، هي العدل، هي الحكمة، هي الشباب، هي السلام . ولا سلام في نفسه بعد رحيلي . أنا أعرف . أنا أعرفه .

مرّ هو القرار، يسحب القوة من الذاتين المتيمتين عشقاً، يفرغ المدينة ذات الرقم واحد من المعنى، يضعف الجسدين المبعدين بفعل القرار، يقتل حس الرغبة في الاستمرار والعمل والخلق والعطاء، يطفىء شعلة الحب المتفرد، يبث غازاً ساماً في اوكسجين الحياة، ماتبقى من الحياة، يملح طعم انتظار المستقبل دون رفقة الحبيبة .

هذا هو قراري .
لابد من القرار .

يا له من قدر يختصر تناقضات التاريخ .

يا لها من أوراق تؤكد الحب وتنفيه ، تمجد الحب وتلغيه .

يا له من قرار يمجد الحب قوة مضيئة للانسان ، يلغيه لعبة مسلية ، مركباً من ورق في بحر الظلمات بلا شراع ، بلا بوصلة ، بلا ملاح ، يبحر باتجاه اللاشاطىء .

قررت أن أرحل ، وأترك الحبيب محاصرا بي وبماضينا الى آخر مستقبله .

قررت أن أبحر باتجاه المستقبل ...
مستقبلي أنا .

في الصيف .. سوف أشكل شعري الأشقر بزهرة الآه ياأنا الصفراء ، وأغني : آه ... ياأنا ... !!!

ويا للمفاجأة ... وأنا على وشك كتابة الورقة الأخيرة من أوراقي .. ياللمفاجأة التاريخية من الشاعر أحمد الجندي وهو يسألني عن عنوان كتابي الجديد . قلت : آه ... ياأنا ...!! على اسم الزهرة الشامية قال : آه ... ياأنا ...!! مدخل لأدوار الطرب القديمة كلها ..!! قلت : لم أسمع بهذا .

وغنى لي الشاعر الكلمات ملحنة ، وغنى قلبي فرحاً .

وأنا مغنية عربية معاصرة ، تسكنها روح جنية عربية غابرة من آلاف السنين .

وأنا مغنية عربية معاصرة، تسكنني روح البيئة فأين أهرب من هويتي ولم !؟.

وأنا مغنية بدوية قادمة من عمق التاريخ العربي، يسكنني حداء الصحراء، وموال الليل.. ياعين، فكيف اتخلى عن موالي !؟.

وأنا مغنية عربية تسكنني عصور الطرب العربي الأصيل، من زرياب وسلامة وحتى محمد عبد الوهاب في بداياته، وأم كلثوم في طقطوقاتها وقصائدها وعصرها الذهبي الأول، صوتاً وشعراً ولحناً. تغني: أراك عصي الدمع... وأردد: آه... وألف آه..!!.

تردد... وأردد الآه طربا واستزادة ولا أشبع. وتغني فتحية أحمد عن الصفصافة، ويغني صالح عبد الحي لزهرتي الاثيرة: ليه يابنفسج....!! فتذوب روحي وتشف وتسمو، وأردد الآه.

أحب الترداد عطاء.
أحب الترداد تلقياً.

وان رأيتني أردد عبارات الغزل بالريح والمطر والحبيب والشام والوطن، فلا تعجب.. !!.

هكذا أنا.

ولن أقبل دخول الكهرباء على آلتي العود والقانون إطلاقاً. لن أميل طرباً على دخول الكومبيوتر على تختنا الشرقي قطعاً.

أحب الترداد.. أطرب سكراً للترداد، ولا اعتبره نقيصة، بل وفاء للجودة، للكلمة، للمعنى، للحن، للصوت، للعاطفة ــ الديمومة،

تتدفق، تسيل من المغني والشاعر والموسيقار كما العسل، كما النهر العربي، نيلاً، فراتاً.

تردد حنجرتي نغمها ونغم الآخرين ولا تشبع، وتسأل روحي الوصل لاتقطع ولاتقنع، وأنادي وينادي قلمي وكأنك لاتفهم لاتحب لاتسمع..!!.

قدري، وخارجاً عن إرادتي، وبكل اعتزازي، وريثة أبو خليل القباني وعبده الحمولي وسيد الصفتي وألمظ، أنا. ومن قبلي كانت أمي وكان أبي.

ويا للحظ..!!.

ويتحد غنائي في أواخر القرن العشرين، بغناء سيد الطرب العربي في نهاية القرن التاسع عشر في مصر أم الدنيا، وفي بلاد الشام. نغني معنى واحداً وجعاً واحداً. نلتقي دون أن نلتقي صدفة، فاذا بنا توأمان، قدرهما الآه من الأنا.. رغم الزمان والمكان بسبب «صدمة المستقبل» القادمة قبل الأوان.

ويتعانق صوتي وصوت عبد الحمولي الذي كان يدوي بلا ميكروفون جارح، مفجراً آهات الطرب بين حلب ودمشق وحيفا والقاهرة، وأغني أغنية تقضي على الشرخ، على سواد القرار، بعفوية الحب، وجنون الشوق، ورحمة الحنين، وكبر التسامح باللهجة المصرية العذبة:

آه... يا أنـــا
ويش للعوازل عندنا
قوم.. سضيع العزال
وواصلني.... أنا
أغني... ويلوح في الأفق القرار.

بين الليل والنهار ينوس القرار .
أناشيدي أطلقها في النهار .
أغاني ومواويلي أرسلها في الليل دون النهار .

والليل .. صديقي يحتويني ، كالحبيب ، يعذبني ، يحنو علي ، فيه تنتشر كالعطر آهاتي وأغنياتي ، وفيه كالجمر تتوهج وتفيض دموعي وتعلو وتخبو شهقاتي .

ويمر الليل .. ويطلع النهار ..!!
وأغاني الليل ، يمحوها النهار ..!!

ويتوارى حنيني ، وينهض كبريائي ، وأتمسك بحبال الإرادة ، أعاود كسيزيف حمل الصخرة ، هم العشق ، أتسلق جبل العنفوان والعنجهية الى مكاني الحقيقي العالي ، الى قمة كبرياء الأنوثة ، وأمنع الشوق من الحركة والفعل . الشوق عندي أنا المرأة العاشقة أمر مختلف ، شوق مختلف بالفطرة ، بالوراثة . هو حياء وانتظار وسكون يغلي ، شوق إمرأة عربية يتجاهله العصر . والشوق كما أفهمه عند الرجل العربي العاشق ، أخلاق وفروسية وانطلاق ومبادرة وفعل ، يلغيه العصر .

وأظل عنيدة مع الحب المعند ..
وأظل شرقية في مفهومي للحب ..
لا اتنازل عن حقوقي في الحب ..
لا اتنازل عن تراثي العربي ..
لا اتجاوب مع منطق العصر في الحب ..
خاسرة .. ياذات الحياء الخاسر ..!!
أهجمي كالذئبة على الحب ، الهدف ..!!

مستحيل . مستحيل أن يصير طبع الغزالة طبع الذئبة ..!!
خاسرة ...!! لا . مسألة ضد الطبيعة ان تصير الغزالة صياداً .
لا .. لست خاسرة، تسكنني قناعة أينشتانية، الخسارة والربح في الحب والحياة مسألة نسبية .
خاسرة ..!! أهربي من ضعف الماضي الحالم،الى سطوة المستقبل المادي ..!!
أين أهرب ..؟ وأنا وريثة هذا التراث العظيم ..!؟

ويأتيني صوت أبي حياً قوياً وأقوى من الحياة :
«ياإبنتي تذكري .. ياسهام الحلوة
تذكري .. الحجر مطرحه قنطار ..!!» .

وأهزم الموت، وأقبل صوت أبي ويده وأنفذ الوصية العربية ــ الحكمة، وتظل الأنا ــ الحجر، مكانها بكل كبرياء تزن القناطير .

أعود للبداية ..
أقف على حافة «نبع الفرلق»، عبر الذاكرة، أنظر بعمق في مرآة النبع ..!!

افتتح المندل ..!! لا أرى المستقبل .
لا أرى بوضوح صورة الذات .

أحدق بحثاً عن صورة «ذاتي الثانية» ..!!
بين الحلم والحقيقة .. تتوه نرجسيتي ...
بين الليل والنهار .. تضيع صورتي ..
بين الماضي والمستقبل .. تبكي قيمي ومبادئي ومفاهيمي ومثلي .

وفي المرآة .. أقرأ .. ومن عمق النبع أسمع صوت العقل :

لابد من القرار .
مر هو القرار .
ولا قوة تكسر القرار .

يا لها من رحلة نرجسية رومانسية اسطورية معاصرة، قطعت فيها آلاف الأميال النفسية بحثاً عن الذات بين ربيع عام ١٩٥٨ وشتاء عام ١٩٨٥ ، وماعثرت أبداً على «كوخ للذات» ، وماقطفت وماشممت إلا زهرة النرجس الشامي ، وماشكلت شعري الأشقر إلا بزهرة الآه ... ياأنا ...!!

عربية نرجسية أنا .. صنعت وأصنع نهايتي برومانسيتي .
نرجسية شامية أموية أنا .. صنعت وأصنع بدايتي بقلبي .
عصامية أنا .. صنعت وأصنع مجدي وخلودي بحبي ومحبتي .. بشوقي وعصاميتي وعصمتي .

سألني صديق عزيز محب من الشام، منذ سنوات عن الحب عند المرأة الشامية .. فهل أجبت ..!؟
قال : ياسهام .. اكتبي عن الحب ...!! إمتثلت .
فهل كتبت ..!!؟

**باريز . دمشق .**

**سهام ترجمان**
**من اوراق الشتاء ١٩٨٥**

# زهرة آه يا أنا!!

آه... يا أنا...!! في «معجم الألفاظ الزراعية» الصادر بالعربية والفرنسية عن جامعة الدول العربية عام ١٩٥٧ ــ القاهرة، كما عرفها المؤلف الامير مصطفى الشهابي نائب رئيس المجمع العلمي العربي في دمشق، وعضو مجمع اللغة العربية في القاهرة، وفي الصفحة ٤٤ من المعجم:

« بَهار. أُقْحُوان — ANTHEMIS (An THEMIS)

(كانت العرب تطلق كلمة البهار على أنواع من هذا الجنس وأنواع من جنس CHRYSANTHEMUM الذي سميناه جنس الأقحوان تعميماً. وأقحوان من أصل فارسي. جنس زهر من المركبات الأنبوبية الزهر).

بَهار عَرَبي — A. ARABICA (A. d'ARABIE)

(آه يا أنا بعامية الدماشقة)

بهار حَقْلِي — A. ARVENSIS (A. des CHAMPS)

ومن أسمائه القديمة البهار . وكانت كلمة البهار تطلق أيضاً على غيره .» .

موعد الزراعة : الربيع المبكر والعادي والمتأخر .

طريقة التكاثر : البذور .

فترة النمو : نيسان ـــ حزيران .

الإزهــرار : حزيران ـــ آب ـــ ايلول .

# هذا الكتاب

- فكرة التصميم والإخراج : المؤلفة سهام ترجمان .
- تنفيذ التصميم والإخراج : الآنسة بشرى الحكيم .
- الغلاف الأول الملون ، واللوحات الفنية الرومانسية بالابيض والأسود بريشة الفنان الكبير عبد القادر النائب .
- الغلاف الأخير : بكاميرا الفنان الموهوب حسن مرشد .
- طباعة الغلاف : باشراف الفنان الكبير في فن الطباعة العميد مروان ديب .
- لوحة الثلج : بكاميرا الفنان الكبير الدكتور مروان مسلماني .
- لوحة زهرة «الآه يا أنا» ، ولوحة الاوراق اليابسة للزهرة ، والمعلومات عن الزهرة ، من أرشيف الدكتور لؤي أهدلي .
- اللوحة الكاريكاتورية «أنا» للفنان الكبير علي فرزات .
- الخطوط للفنان المبدع سمير مولوي .
- تصوير لوحات الكتاب : الفنان القدير أبو وحيد ، محمد وحيد الدقاق .
- إعادة بناء الصور الفوتوغرافية للكاتبة في الخمسينات ، تصويراً وتحميضاً وتكبيراً ورروتوشاً : الفنان مروان مسلماني .
- التنضيد الضوئي : الآنسة ليلى قرياقس .
- الآلة الكاتبة : الآنسة فاتنة سكر .
- الإشراف العام على الطباعة : محمد شادي الحلبي .

# الفهرس

# للمؤلفة

○ **يا مال الشام**...................الطبعة الأولى ١٩٦٩ .

○ **يا مال الشام**...................الطبعة الثانية المعدلة ١٩٧٨ .

○ **يامال الشام بالانكليزية**.........تقوم بالترجمة المستشرقة الأمريكية الدكتورة (أندريا رو) أستاذة علم الأجناس والإجتماع في جامعة سيراكيوز ــ نيويورك . وسيتم الطبع والنشر في الولايات المتحدة الامريكية خلال عام ١٩٨٥ .

○ **جبل الشيخ في بيتي**.............مجموعة مقالات وجدانية عن الوطن في زمني الحرب والسلم ، يعد للطبع في الإدارة السياسية .

○

# صدر عن دار
# طلاس
# للدراسات والترجمة والنشر

| اسم الكتاب | المؤلف | المترجم | السعر[1] ليرة |
|---|---|---|---|
| رسالة الاسلام ــ الرسول العربي | العماد مصطفى طلاس | | ٢٥ |
| فارس الأطلس ــ عقبة بن نافع | العماد مصطفى طلاس | | ١٠ |
| فطير صهيون | العماد مصطفى طلاس | | ١٦ |
| راعي القدس ــ ايلاريون كبوجي | العماد مصطفى طلاس | | ١٥ |
| فارس الجزائر ــ الأمير عبد القادر | العماد مصطفى طلاس | | ١٧ |
| المصطفى من أحاديث المصطفى | العماد مصطفى طلاس | ( قياس كبير ) | ٦٠ |
| | | ( قياس صغير ) | ٣٠ |
| كذلك قال الأسد | اختارها العماد | ( قياس كبير ) | ٣٠ |
| | مصطفى طلاس | ( قياس صغير ) | ١٥ |
| حب وبطولة | سليمان العيسى | | ١٥ |
| قصة المتنبي | أحمد الجندي | | ١٢ |
| صبرا وشاتيلا (تحقيق حول مجزرة) | أمنون كابليوك | المكتب العربي للترجمة | ٦ |
| روضة الورد | سعدي الشيرازي | محمد الفراتي | ١٥ |
| سعد الله الجابري | أحمد الجندي | | ١٥ |

( ١ ) السعر يشمل كامل الأجزاء

| | | | |
|---|---|---|---|
| فراشات غجرية | نضال قبلان | | ٦ |
| كيان ( قصة ) | كوليت الخوري | | ٩ |
| البطل والتاريخ | صفوان قدسي | | ١٨ |
| خريف الغضب ( جزءان ) | محمد حسنين هيكل | | ٣٠ |
| كفاحي | آدولف هتلر | لويس الحاج | ١٨ |
| ماجدولين | الفونس كار | مصطفى لطفي المنفلوطي | ١٠ |
| رسالة من امرأة مجهولة والحب الجنوني | ستيفان زفايغ | أنجيل عبود | ٨ |
| سقوط السنديان | اندريه مالرو | د . سامي الجندي | ٩ |
| عشرة أيام هزت العالم | جون ريد | فواز طرابلسي | ٢٢ |
| هكذا يتكلم القائد | نابليون بونابرت | عبد الله حيدر | ٨ |
| حبات من الرمال الذهبية | سليمان العيسى وشعراء آخرون | | ١٠ |
| رواد النغم العربي | أحمد الجندي | | ٩ |
| حبال من رمل | ولبر كرين ايفلاند | د . سهيل زكار | ٢٥ |
| البطالة المقنعة في الوطن العربي | سمير عبده | | ١٤ |
| باقة نثر | سليمان العيسى | | ١٨ |
| موجز ديوان المتنبي ( شرح اليازجي ) | اختصره سليمان العيسى | | ٢٠ |
| طريق التبغ | ارسكين كالدويل | منير البعلبكي | ١٥ |
| تولستوي | ستيفان زفايغ | ميشيل واكيم قصي الأتاسي | ١٠ |
| حب بياتريس الجديد ( شعر ) ( بالعربية والفرنسية ) | جيرار مورغ | رواد طربيه | ٨ |
| الاستراتيجيتان السوفييتية والأمريكية | هنري باريس | أحمد عبد الكريم | ١٠ |

| | | | |
|---|---|---|---|
| شعراء من بلاد الشام | أحمد الجندي | | ١٥ |
| رد على التوراة | ندرة اليازجي | | ١٠ |
| رد على اليهودية واليهودية المسيحية | ندرة اليازجي | | ٢٥ |
| الصراع على سورية | باتريك سيل | سمير عبده ـ محمود فلاحة | ٢٠ |
| نظرات ومسائل في الإدارة | أحمد الدباس | | ٤٠ |
| روائع طاغور | رابندرانات طاغور | الدكتور بديع حقي | ٢٠ |
| الفراشة وقصائد أخرى ( بالعربية والانكليزية ) | سليمان العيسى | برندا ووكر | ١٠ |
| العواصف | جبران خليل جبران | | ١٠ |
| البدائع والطرائف | جبران خليل جبران | | ١٠ |
| النبي | جبران خليل جبران | ثروت عكاشة | ٨ |
| السابق | جبران خليل جبران | انطونيوس بشير | ٥ |
| عرائس المروج | جبران خليل جبران | | ٥ |
| التائه | جبران خليل جبران | عبد اللطيف شرارة | ٦ |
| المجنون | جبران خليل جبران | انطونيوس بشير | ٥ |
| الأرواح المتمردة | جبران خليل جبران | | ٨ |
| دمعة وابتسامة | جبران خليل جبران | | ١٠ |
| الحروب والحضارات | مدرسون في المعهد الفرنسي لعلم الحرب | أحمد عبد الكريم | ٢٠ |
| بروتوكولات حكماء صهيون ( جزءان ) | عجاج نويهض | | ٣٠ |
| حرب الثلاث سنوات ٦٧ ـ ٧٠ ( مذكرات ) | الفريق أول محمد فوزي | | ٢٥ |
| قصة الرعب والجرأة | الكسندر بيك | | ١٥ |
| رفائيل | لامرتين | محمد حسن الزيات | ١٦ |
| فيكتور هيجو | | فريد جحا | ١٥ |

| | | | |
|---|---|---|---|
| الأمنية الأوروبية ................ | اندريه بريغو ............ | أحمد عبد الكريم ........ | ١٥ |
| أو الدفاع المشترك المفقود | و دومينيك دافيد | | |
| الطاعون ...................... | البير كامو ............. | د . سهيل ادريس ...... | ١٥ |
| السلام الضائع في اتفاقيات....... | محمد ابراهيم كامل ...... | ...................... | ٣٠ |
| كامب ديفيد | وزير خارجية مصر الاسبق | | |
| استراتيجية العصر النووي ........ | الجنرال بيير غالوا ....... | اللواء الركن سميح السيد .. | ١٢ |
| حرب البترول السرية ............. | جاك بيرجيه وبرنار توماس. | اللواء الركن سميح السيد .. | ١٢ |
| تاريخ الأدب الغربي ( جزءان ) ... | مجموعة من الاساتذة .... | ...................... | ١٠٠ |
| مختارات من الشعر الروسي ....... | ...................... | د . ماجد علاء الدين .. | ١٨ |
| إلي أواصل الأرق................ | سليمان العيسى ........ | ...................... | ١١ |
| الحرب العالمية الثالثة ........... | الجنرال جون هاكيت ... | موسى الزعبي .......... | ٣٣ |
| يسوع ابن الانسان .............. | جبران خليل جبران...... | ...................... | ١٢ |
| نشيد الجمر .................... | سليمان العيسى ........ | ...................... | ٢٥ |
| من الشعر اليوناني الحديث ....... | ...................... | الياس معوض........... | ١٠ |
| يوميات وزير ( جزءان ) .......... | ريتشارد كروسمان ....... | العميد صبحي الجابي ... | ٥٠ |
| ليالي الشيطان الأخيرة (راسبوتين).. | فالنتين بيكول .......... | عبد الوهاب مدور ...... | ٤٠ |
| ديك الجن الحمصي .............. | أحمد الجندي ........... | ...................... | ١٠ |
| ( ديوان ودراسة ) | | | |
| سلام غير مرغوب فيه ........... | لجنة أمريكية ........... | اللواء الركن سميح السيد .. | ٩ |
| الجدل الكبير حول............... | ريمون آرون ............ | اللواء الركن سميح السيد .. | ١٥ |
| الاستراتيجية الذرية | | | |
| عودة وضاح اليمن ( شعر ) ....... | د . عبد العزيز المقالح ... | ...................... | ٢٥ |
| الحرب الأهلية العالمية .. ........ | جاكلين غرابان ......... | اللواء الركن سميح السيد .. | ١٤ |
| | وجان بيرنار بيناتيل | | |
| المسألة السورية المزدوجة.......... | ميشيل كرستيان دافيه... | اللواء جبرائيل بيطار ..... | ٢٢ |
| (سورية في ظل الحرب العالمية الثانية) | | | |

| | | | |
|---|---|---|---|
| عملية كمال عدوان | العماد مصطفى طلاس | | ٨ |
| الثورة الجزائرية | العماد مصطفى طلاس | | ٨٠ |
| مع سليمان العيسى | مجموعة من الكتاب | | ١٤ |
| من وحي المرأة ( شعر ) | عمر أبو ريشة | | ٢٥ |
| كيف سقينا الفولاذ | نيقولاي أوستروفسكي | غائب طعمة فرمان | ٢٥ |
| رباعيات عمر الخيام | عمر الخيام | أحمد الصافي النجفي<br>تقديم أحمد الجندي | ١٥ |
| المسيح يُصلب من جديد | نيكولاس كازانتزاكس | شوقي جلال (جزءان) | ٤٠ |
| وجيز علم الجنس الهندي | فاتسيايانا | كاستون فاتول | ٢٠ |
| لحن كرويتزر | ليون تولستوي | د . سامي الدروبي | ١٣ |
| أنشودة الحب الظافر ( قصص ) | تورجنيف | عدنان سبيعي وخليل شطا | ١٢ |
| الأيام المضيئة ( قصص ) | كوليت الخوري | | ١٥ |
| أغاني الأغاني (٣ مجلدات) | أبو الفرج الأصفهاني | اختصره يوسف عون | ١٠٠ |
| شوارد قلم في الأدب والنقد | محمد روحي فيصل | | ١٥ |
| العمران في مقدمة ابن خلدون | د . سعيد محمد رعد | | ٤٠ |
| حديث الهيل ( شعر بدوي ) | عمر الفرا | | ١٢ |
| مذكرات ديغول ( ٤ أجزاء ) | | | ١٠٠ |
| ١ ـــ النفير | الجنرال ديغول | عبد اللطيف شرارة | |
| ٢ ـــ الوحدة | الجنرال ديغول | عبد اللطيف شرارة | |
| ٣ ـــ الخلاص | الجنرال ديغول | خليل هنداوي<br>ابراهيم مرجانة | |
| ٤ ـــ الأمل | الجنرال ديغول | د . سموحي فوق العادة | |
| مذبحة صبرا وشاتيلا | العماد مصطفى طلاس | | ٢٢ |
| الآداب المعنوية للصلاة | الإمام آية الله الخميني | أحمد الفهري | ٦٠ |
| رسائل أبي حيان التوحيدي | د . ابراهيم كيلاني | | ٢٨ |

| | | | |
|---|---|---|---|
| خروتشوف | بسام العسلي | | ٢٤ |
| ستالين | بسام العسلي | | ٢٥ |
| الشعر بين الرؤيا والتشكيل | د . عبد العزيز المقالح | | ٢٨ |
| التربية الرياضية الحديثة | فايز مهنا | | ٢٧ |
| سيف الله ( خالد بن الوليد ) | العماد مصطفى طلاس | | ٢٢ |
| آفاق الاستراتيجية الصهيونية | العماد مصطفى طلاس | | ٢٠ |
| زنوبيا ( ملكة تدمر ) | العماد مصطفى طلاس | | ٢٠ |
| الثوم والعمر المديد | العماد مصطفى طلاس | | ٢٢ |
| القدس في فلسطين | جورج مونتارون | فريد جحا | ١٠ |
| كيسنجر في البيت الأبيض (مذكرات في اربع مجلدات) | هنري كيسنجر | خليل فريجات | ٢٠٠ |
| اعترافات جان جاك روسو ( ثلاثة أجزاء ) | جان جاك روسو | محمد بدرالدين خليل | ٩٠ |
| الطريق إلى بئر سبع | ايثيل مانين | د . نظمي لوقا | ٢٥ |
| سيوف عربية ( شعر ) | نذير الحسامي | | ١٠ |
| الوردة تُعشق برعما | نذير الحسامي | | ١٢ |
| كازانوفا | ستيفان زفايغ | ميشيل واكيم قصي أتاسي | ١٥ |
| حصاد الحب | إميل زولا | | ٢٠ |
| الزنبقة الحمراء | أناتول فرانس | أحمد الصاوي محمد | ٢٥ |
| هل يمكن السيطرة على الحرب (النووية) ؟ | معهد الدراسات الاستراتيجية ( لندن ) | د . محمد حجار | ١١ |
| يوم العيد | انطون تشيخوف | عدنان سبيعي وخليل شطا | ١١ |
| المعلقات السود والذئب (شعر) | نجيب جمال الدين | | ٢٥ |
| الغزو الاسرائيلي للبنان | مجموعة من الباحثين باشراف العماد مصطفى طلاس | | ٣٠ |

| | | | |
|---|---|---|---|
| المعجم الطبي الموحد انكليزي ـ عربي ـ فرنسي | مجموعة من الاطباء الاختصائيين | | ١٠٠ |
| الكنّة (عن البلغارية) | جيورجي كاراسلافوف | حسين راجي | ٢٠ |
| اليسا فيتا باغريانا (مختارات شعرية) | | حسين راجي | ١٦ |
| شعراء فرنسيون معاصرون | سعد صائب | | ٢٠ |
| فن الشعر في قصائد الشعراء وكلماتهم | مجموعة من الأساتذة | سعد صائب | ٢٢ |
| الدليل العملي للوقاية من أمراض القلب | المركز الطبي لجامعة بوسطن | دار طلاس | ٢٢ |
| ايزابيلا | اندريه جيد | د . صبري فهمي | ١٥ |
| سيرة بالتازار كوسا (البابا يوحنا الثالث والعشرون) | اليكساندر باراديسيس | بسام اسخيطة | ٢٥ |
| هرمن ودروتيه | غوته | د . محمد عوض محمد | ١٥ |
| التحكم بوزن الجسم عن طريق اليوغا | ريتشارد . ل . هيتل مان | دار طلاس | ٢٢ |
| طريق الحرية | هوارد فاست | سليم ابراهيم عبود | ٣٠ |
| الأدب والأنواع الأدبية | مجموعة من الاساتذة | طاهر حجار | ٢٥ |
| البراعم (قصائد للأطفال) | مختارات من الأدب الالباني | عبد اللطيف ارناؤوط | ١٢ |
| العصافيرُ وقوس قزح (قصص للأطفال) | = = = = | عبد اللطيف ارناؤوط | ١٤ |
| التقرير الكامل للجنة كاهان الصهيونية حول مذبحة صبرا وشاتيلا | النص الكامل وإفادات بعض الشهود | | ١٨ |
| ومرَّ صيف | كوليت الخوري | | ٢٠ |
| سر الصلاة أو صلاة العارفين | الإمام الخميني | أحمد الفهري | ٣٠ |
| نبضات أفئدة | | قدم لها العماد مصطفى طلاس | ١٠ |

| | | | |
|---|---|---|---|
| لوليتا | فلاديمير نابوكوف | مروان الجابري | ٢٠ |
| ديغول ما له وما عليه | بيرنارد ليدويدج | اللواء الركن سميح السيد | ٣٥ |
| العرس الكبير | اعداد وجمع قمر كيلاني | | ١٧ |
| العلاقات الدبلوماسية الأميركية | توماس آ . برايسون | دار طلاس | ٣٠ |
| ايزابيلا | اندريه جيد | د . صبري فهمي | ١٥ |
| العلاقات الخطرة بين الجنسين | كودير لوي دي لاكلو | اديب مروة | ٣٥ |
| آه يا أنا | سهام ترجمان | | ٧٥ |
| تدخل الدول العظمى في الشرق الأوسط | بيتر مانغولد | اديب يوسف شيش | ٣٠ |
| هرمن ودروتيه | غوته | د . محمد عوض محمد | ١٥ |
| أصوات في الليل | صلاح دهني | | ٢٠ |
| مصلح البيانو الضرير | مارسيل بريفو | حسن صادق | ١٥ |
| اصداء النضال العربي في شعرنا المعاصر | أحمد سعيد هواش | | ١٣ |
| أوراق مسافر | الدكتور عمر موسى باشا | | ٢٠ |

# تحت الطبع

| | | |
|---|---|---|
| ـ معجم الأسماء العربية.......... | العماد مصطفى طلاس<br>الاستاذ نديم عدي | |
| ـ الفن الاسلامي................. | د . عفيف بهنسي | |
| ـ الجامع الأموي (باللغات : .... العربية والافرنسية والانكليزية) | د . عفيف بهنسي | |
| ـ مذكرات ادغار فور........... | ادغار فور............ | د . حافظ الجمالي |
| ـ عنب المائدة.................. | مجموعة من الباحثين المختصين | دار طلاس |
| ـ امرؤ القيس................... (عاشق وبطل درامي) | قمر كيلاني | |
| ـ الف وخمس مية.............. من الأمثال الشعبية | سيمون حمصي | |
| ـ ١٠٠ قصة بهيجة للاطفال.... (في أربعة أجزاء) | اصدار................ دار (هملين) البريطانية | سليمان العيسى<br>بهيج بدين |
| ـ كذلك قال الاسد............ (طبعة ثالثة مزيدة ومعدلة) | ...................... | قدم له العماد مصطفى طلاس |
| ـ حكاية الأميرة جنان.......... | خالد محي الدين البرادعي | |
| ـ لا شيء خلف الفولاذ......... (رواية) | جاكلين سوزان......... | عبد الكريم ناصيف |
| ـ النباتات العسلية.............. | ...................... | ترجمة دار طلاس |
| ـ دراسات حول النظرية الديمقراطية | رينيه دو لاساريير........ | د . حافظ الجمالي |
| ـ فن التصوير.................. | جون هيجكو.......... | العماد مصطفى طلاس |

| | | |
|---|---|---|
| ـ تلخيص المتشابه في الرسم .. .. وحماية ما أشكل منه عن بوادر التصحيف والوهم | أحمد علي ثابت ......... (أبو بكر الخطيب البغدادي) | تحقيق سكينة الشهابي |
| ـ الدليل العملي لمنتجي .......... الغذاء الملكي | آلان كاياس ............ | دار طلاس |
| ـ العسل غذاء وعافية .......... | جان لوك داريغول ....... | دار طلاس |
| ـ الوجبات الغذائية الهندية السريعة . | ميشيل بانديا ........... | مهند الغبرة |
| ـ التربية الحديثة للأغنام ......... | د . بوهيير دوليكليز .... | دار طلاس |
| ـ الأصابع الصغيرة ............ تنمو في الظلام | نزار مؤيد العظم | |
| ـ مناهج التعليم البوليتكنيكي .... | حسين عمر حمادة | |

العماد

في

اللغة والعلوم والفنون والأعلام

معجم لغوي موسوعي

سيصدر قريباً عن الدار بالتعاون مع مؤسسة

لاروس الفرنسية بترجمة معجمها الموسوعي L 3

مطابع ألف باء - الأديب - دمشق



الكاتبة العربية السورية الشامية سهام ترجمان تطل علينا في مؤلفها الثاني «آه... يا أنا...!!».

«آه... يا أنا...!!» أناشيد رومانسية في الحب لإمرأة عربية شامية أموية معاصرة.

هو دعوة للعودة بالإنسان العربي المعاصر الى حضن الطبيعة العربية الأم، والى حضن الحنان والحب والمحبة الخالصة، في عصر يؤله الجسد دون الروح، ويغرق في الجنس بعيداً عن العاطفة. عصر الآلة والمال والإسمنت والتكنولوجيا المعاصرة التي تمجد المادة وتسقط الانسان.

«آه... يا أنا...!!» رحلة الحب والمحبة عند الكاتبة بين «الفرلق» و«الشام»، بين ربيع عام ١٩٥٨ عند نبع «الفرلق»، وشتاء عام ١٩٨٥ عند نبع بردى.

«آه... يا أنا !!» رحلة العودة الى الجذور... رحلة العودة من الشارع المعاصر الى أحضان الحضارة العربية.

طلاس للدراسات والترجمة والنشر